باسم خندقجي

سادِنُ المحرقة

قناع بلون السماء II

مكتبة ياسمين

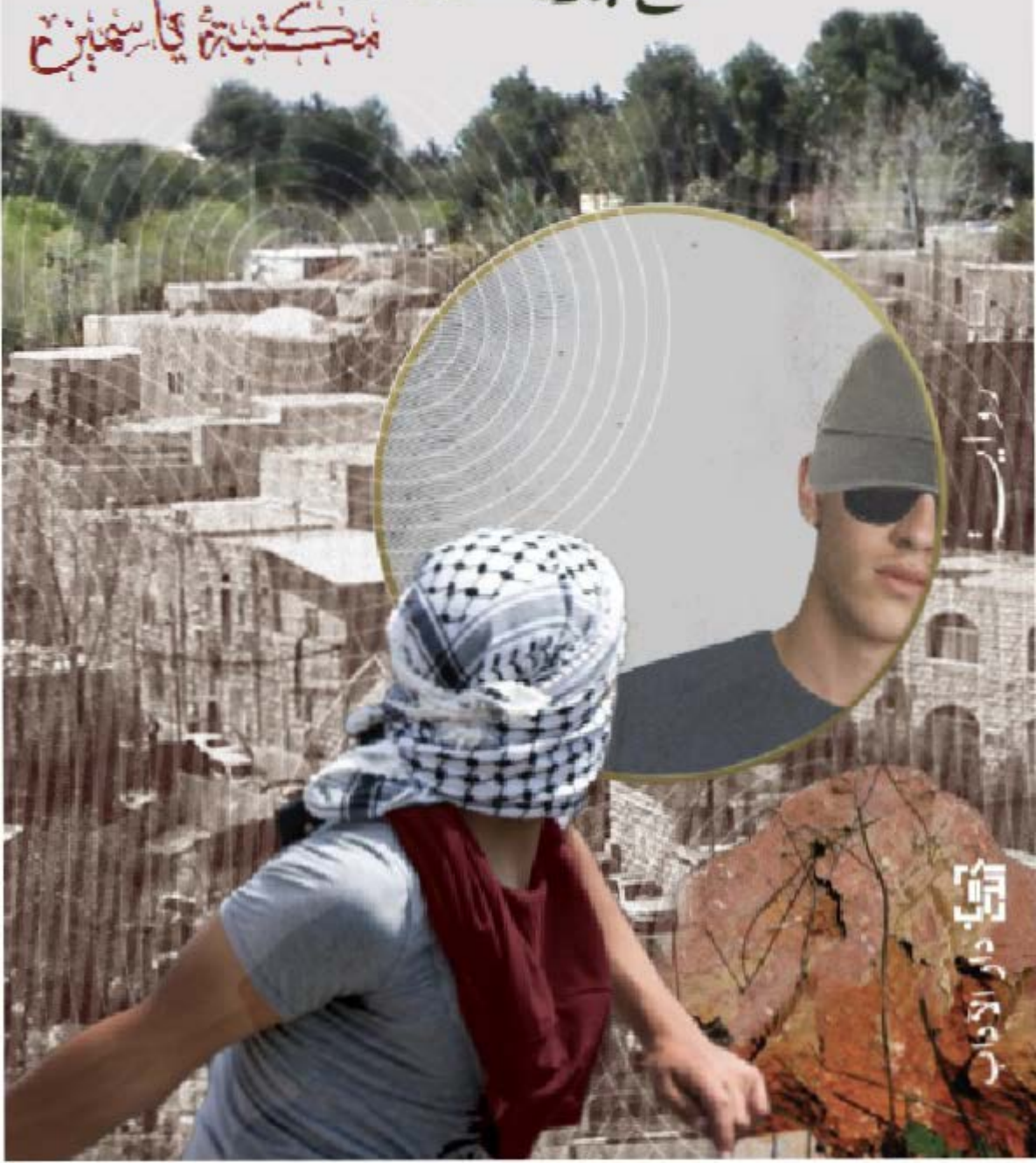

سادنُ المحرقة
باسم خندقجي / كاتب فلسطيني
الطبعة الأولى عام 2024
ISBN 978-9953-89-769-1

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

إلى صوفيا
بحضوركِ يكتمل المعنى
وإلى أمّها نور وأبيها يوسف
قولا لها كم هي حلمي...

باسم

«أترونه أنتم؟ أترون القصَّة؟ أترون أيَّ شيء؟ يُخيَّل إليَّ أنِّي أحاول أن أقصَّ عليكم حلمًا... أحاول محاولة فاشلة... إذ لا يمكن لسرد الحلم أن يخلق الإحساس الذي نحسه في أثناء الحلم.

هذا المزيج من السخف والعجب والدهش في وسط ارتعاش ناتج عن ثورة ومقاومة. ذلك الإحساس بأنَّك في براثن شيءٍ لا تستطيع تصديقه، وهو إحساس من جوهر الحلم ذاته».

(جوزيف كونراد - قلب الظلمات)

«في كوخنا يستريح العدوُّ من البندقيَّة،
يتركها فوق كرسيٍّ جدِّي. ويأكل من خبزنا
مثلما يفعل الضيفُ. يغفو قليلاً على
مقعد الخيزران. ويحنو على فرو
قطَّتنا. ويقول لنا دائمًا:
لا تلوموا الضحيَّة!
نسأله: من هي؟
فيقول: دمٌ لا يُجفِّفهُ الليل...».

(محمود درويش - عندما يبتعد)

الفصل الأوَّل

[صدحت الموسيقى قاذفةً صخبها في رأسه، عبر سمَّاعتَيْن صغيرتَيْن غرزهما في أذنَيه لتساهما في فصله عن ضوضاء الواقع لهنيهة، خلال جلوسه في الحافلة الهادئة وشبه الخاوية من الركَّاب في ذلك الصباح.

إذ انغمس متوحِّدًا بكآبة ما اعتراه في دفتره، الذي أخرجه من حقيبته الجلديَّة السوداء:

«ليس كلُّ الألمان نازيِّين، وليس كلُّ النازيِّين ألمانًا»

ثم توقَّف عن الكتابة للحظة مختلسًا النظر إلى ما حوله بحذرٍ، كما لو أنَّ أحد الركَّاب سينقضُّ عليه بغتةً وهو متلبِّس بذكرياته البعيدة. ثم عاد مرَّةً أخرى للكتابة بسرعة، ليلحق بصورةٍ عتيقة ومضت فجأةً في داخله ورمته بتلك الجملة التي قالتها له أمُّه قبل ثلاثين عامًا، وهي تربِّت على كتفه أثناء تحديقه ببضعة قبورٍ دُفن أصحابها خارج سور مقبرة الكيبوتس، ما استدعى انتباهه حينذاك. أوضحت أمُّه لوعيه الطفوليِّ الذي لا يتجاوز السبعة أعوامٍ أنَّ أولئك الموتى ليسوا يهودًا وإنَّما أغيارًا، ولكنَّهم مناصرون وداعمون لدولة إسرائيل، ومنهم بعض الألمان الذين كانوا نازيِّين أو أبناءً لنازيِّين، أرادوا التكفير عمَّا اقترفته النازيَّة بحقِّ اليهود عبر الهجرة إلى أرض إسرائيل، والإسهام في بناء الدولة العتيدة وخدمتها، من دون أن يحقَّ لهم بحسب الشريعة اليهوديَّة مشاركة اليهود التراب الذي يواري جثامينهم.

شرعت الصورة بالتلاشي على أنغام وكلمات أغنية

paint it black لفرقة stones، ليُسعفها هو قبل أن يغلق الدفتر بزفرةٍ صباحيَّةٍ حارَّةٍ مرفقةٍ بتاريخ يومه هذا، ثبَّتها بمسمار تاريخ علَّق عليه لوحة جديدةً من لوحات بؤسه على جدار أيَّامه، التي لا يمكنه وصفها الآن بالخاوية - رغم أنَّها خاويةٌ للغاية كما يدَّعي هو - إذ لربَّما ستُمَسُّ بعد قليلٍ بالجنون، أو المزيد من الأحلام، أو العدم].

(صباح الاثنين 7 آذار 2022)

أُغلِق الدفتر الآن...

أنا الذي أُغلق دفتر الذاكرة، وأنزل من حافلة أقلَّتني من جفعات شاؤول وأحراش أورشليم إلى هنا، إلى مشارف تلِّ أبيب الشرقيَّة التي لطالما أحببتُ ارتيادها سيرًا على قدمي، مفتتحًا التجول فيها من شرقها، حيث حي «شخونات هتكفا» الهامشيّ، الذي تؤكِّد تلُّ أبيب من خلاله حقَّها في مركزيَّتها وعزَّة المدينة الصهيونيَّة البكر.

ألتفتُ حولي قبل انعطافي يمينًا لأسلك شارع أيالون المتعدِّد المسارات، وشريان تلِّ أبيب الرئيسيِّ الذي يغذِّيها بكلِّ الأماني والرغبات والشهوات. أزفت ساعات الزحمة الصباحيَّة وضجيج المركبات وعجيجها، ما يُريحني قليلاً ويُبعد عن قلبي رعبًا مقيتًا قد يتسبَّب به بوق شاحنة حادّ، مرفقٌ بشلاَّل شتائم يصبُّه سائق الشاحنة على الزِّحام.

أسير على الرصيف. يدٌ أقبض بها على حقيبتي، ويدٌ في جيب معطفي الصوفيِّ الأسود المتوسِّط الطول. برد

قارسٌ لا يمتُّ للربيع بصلةٍ يعتري مدينة الربيع.

أرتاح أكثر رغم البرد لأنَّ الرصيف خالٍ من المارَّة. أو ربَّما أرتاح لسببٍ آخر، أو بالأحرى أتوهَّم الراحة وهذا الاسترخاء الصباحيَّ لأنَّني نجحت باصطياد ذكرى بعيدةٍ أرديتها في دفتري منذ لحظات. بل أرتاح أكثر لأنَّ ضمير الغائب يعفيني من قيود الخصوصيَّة وحدودها، وعدم انتهاك ذكرياتٍ لم أكن لأراها كما أراها اليوم. تختلف المحدِّدات قليلاً اليوم، محدِّدات الماضي وكيفيَّة النظر إلى الأمور والأشياء، منذ أن قالت لي هداس طبيبتي النفسيَّة إنَّني بحاجةٍ إلى الكتابة، لكي أساعدها بالعثور على نقطة تعيين وانطلاق واضحة تستطيع من خلالها تفكيك بؤسي، واكتشاف أصل ما أُعاني منه منذ أعوامٍ عديدة:

- «نقطة التعيين كفيلةٌ بتسليط الضوء على عالمك الداخليّ... إنَّها بمثابة الشيفرة الخاصَّة بخريطة وعيك ولاوعيك. ركِّز على ذكرياتك. ثمَّة ذكرياتٌ للمستقبل نهرب منها بدفن أنفسنا في قبور الماضي. اكتب! الكتابة هي الحاضر... حاضرٌ لروايةٍ قد تكتبها أنت. ما أدراك؟».

وها أنا أكتب بضمير الغائب. منذ عامَيْن وأنا أكتب من دون أن أشفى بعد منِّي، ومن آثار ما بعد الصدمة، البوست تراوما التي أُعاني منها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. تفاجأت هداس من أسلوب كتابتي بضمير الغائب. لم أبُح لها حينذاك بالتساؤل الذي حاصرني قبل الشروع بالكتابة: ضمير الغائب، أهو طوق نجاةٍ من هاوية

الواقع، أم انحدارٌ في هاوية الماضي؟

ضمير الغائب، أهو مرآتي، أم مسرح الدمى التي أحرّكها بأصابعي من دون أن أكشف وجهي وشخصيتي للجمهور؟

لأُجيبها، أُجيب هداس في سرّي، بأنَّ الكتابة بضمير الغائب هي الأمل بعودة ضمير غائب. فهل أنا بلا ضمير؟ أنا الذي أتوغَّل الآن في أزقَّة ذكرياتي البعيدة والقريبة ودهاليزها، أكتشف أنَّ المسألة لا تكمن بكتابة قصيدة أتوسَّل فيها ضمير الغائب لمناجاة ضميرٍ غائب، وإنَّما تكمن باجتهادٍ مبالغٍ فيه أثناء البحث عن نقطة التعيين اللعينة تلك التي رمتني بها هداس. إذ إنَّ منطق الأشياء يختلف. الصور تختلف، تسلسل الأحداث يختلف، حين نتزوَّد برؤيةٍ ما للماضي والحاضر والمستقبل، رؤيةٍ تعيننا على العثور على ما سقط في حفر النسيان، أو تجاهل بعض ملامح الذاكرة بعفويَّة، لنكتشف حين نكبر أنَّنا لم نكن عفويِّين على الإطلاق بل مجرمين. أو أنا على الأقلِّ مجرمٌ بحقِّ ذاكرتي، أنا الساعي السائر على إيقاع الأغاني الصاخبة في وقتٍ يشتدُّ تدفُّقه ليغدو ظهيرةً بعد قليل. أرفع صوت الموسيقى لا لأنعم بسحر الأغاني، بل لأنعزل عن ضوضاء المدينة وأيِّ صوتٍ مباغتٍ قد يزيل عنِّي هيبة الصمت والكآبة والوسامة وتؤدة السير فوق رصيفِ تلِّ أبيبَ، صوتٌ مدوٍّ، أيُّ صوتٍ مفاجئٍ قد يتسبَّب الآن بإصابتي بنوبة ذعرٍ حادَّة. فمن أنا بالنهاية، أو حتى الآن على الأقلِّ، سوى رجلٍ يبلغ من العمر سبعةً وثلاثين عامًا، مصابٍ بآثار ما بعد

الصدمة التي من أهمِّ أعراضها غياب أيِّ طعمٍ من أطعام الحياة. إذ لا يوجد فرح. لا يوجد شغف. لا يوجد صبر ونوم وتعب وأمان وحب ورقص. لا يوجد طعم لأيِّ شيء. فيما يتعلَّق بي، سأضيف ما أشاء لهذه الأعراض حتى أصير «بوست تراوما» تسير على قدمَيْن. بلى. لا طعم للحياة، للشارع، للبيت، للروائح، للبحر، للزمن. أنا لا أُعاني من آثار ما بعد الصدمة فحسب، بل أنا الصدمة بحدِّ ذاتها. أنا الصدمة والمصدوم. صدمني قطارٌ سريعٌ لم يبلغ محطَّته الأخيرة بعد، قطارٌ مُحمَّلٌ بكلِّ أعباء التاريخ والجغرافيا والآلهة والوصايا والذاكرة. كلا، لم يصدمني القطار فحسب، بل أحالني إلى سكَّته التي لا نهاية لها حتى الآن.

أبلغ مفترق شارع جابوتنسكي، الذي يصل غرب تلِّ أبيب بأبنائها الضالِّين الذين كانوا ذات يوم ضواحيها الشرقيَّة الصغيرة والوديعة، مثل رمات جان وجفعتايم. أنتقل إلى رصيف شارعي الجديد متوغِّلاً غربًا، حيث ربِّ تلِّ أبيب الحيّ، بحرها الهادر الذي لم أسبح به يومًا منذ حلولي في هذه المدينة برفقة أسرتي التي تُشرف على الانقراض، قادمين من كيبوتس مجدال المُقام على الشاطئ الغربي للكنيرت(١). أحبُّ البحيرة وأكره البحر، وأحبُّ مجدال وأكره تلَّ أبيب. أذكر أنَّ أمِّي كانت قد قالت لي، أو بالأحرى ليست هي التي قالت لي، بل محرِّك البحث «جوجل» هو من أفادني بأصل اسم مجدال، وهو مجدل أو مجدلة، مسقط رأس مريم المجدليَّة التي آمنت بيسوع النصارى وأحبَّته، لدرجةٍ

أدَّتْ إلى بعث شياطينها في قلب الروائيِّ دان براون، الذي كتب عنها روايته الشهيرة «شيفرة دافنشي».

أحبُّ مجدال لأنَّ أمّي كانت حيَّةً حيويَّةً بها، وأكره تلَّ أبيب لأنَّ أمّي ماتت فيها وبها. أحبَّت أمّي تلَّ أبيب لدرجة أنَّها هي التي أقنعت أبي قبل ثلاثين عامًا بضرورة الانتقال إليها، لأنَّ الولدَيْن كبرا وأريد لهما حاضرةً أبهى وأجمل من مجدال. فكبرنا في تلّ أبيب لأُحصي أنا خساراتي وأحملها الواحدة تلو الأخرى، مبتدئًا بمقتل أخي الأكبر جدعون أثناء تأديته خدمته العسكريَّة على أيدي مخرّبين في رام الله، مرورًا بوفاة أجدادي وأمّي تباعًا متأثّرين بإصابتهم بفيروس كورونا، الذي اتّهمته أمّي قبيل لفظها أنفاسها الأخيرة بأنّه معاد للساميَّة، وليس انتهاءً بأبي المُلقى في لُجَّة غيبوبة عميقة منذ عام، في مستشفى «إيخلوف» الذي لا يبعد كثيرًا عن شارعي هذا، الذي سأنتقل منه بعد لحظات قاطعًا مفترق شارع سوكولوف نحو شارعي المفضَّل، شارع ديزنكوف المتمدّد بين شمال تلّ أبيب وأطراف جنوبها، والذي تقع فيه عيادة طبيبتي النفسيَّة هداس ستورنبرغ.

أتنقل بحذرٍ كما لو أنّني أنتقل فوق جثامين أحبَّتي، فما هي حياتي بالنهاية سوى جثث ومشاريع جثث؟ ولهذا سأدَّعي الآن قبل الجلوس على المقعد الذي يبعد عنّي بضعة أمتار، لآخذ قسطًا من الراحة والطعام والكآبة، بأنّنا لا نشرع بالكآبة عمَّا يعتري أنفسنا من مشاعر وصدمات إلّا عندما يشرع الموت بالتسلُّل خفيةً أو علانيَّةً إلى أرجائنا. نكتب إمَّا لنرثي ما يسلبنا إيَّاه

الموت، أو نكتب لنموت موتًا جيِّدًا. بالنسبة لي أنا، فمنذ أن أحببتُ الكآبة بضمير الغائب أردتُ أن أكتب لأحيا بلا صدمات، لا أقلَّ ولا أكثر.

[منذ عامَيْن ازدادت الأمور تعقيدًا واختلالاً بخصوص ذلك الرجل الغارق الآن في مقعده الخشبيّ لأخذ قسطٍ من الراحة، والتهام شطيرة سمك التونة التي أخرجها من حقيبته الجلديَّة السوداء، التي قصَّ حزامها الطويل لكي لا يتمنطقها كما كان يتمنطق بندقيَّته، عندما كان ضابطًا مغوارًا لا يُشَقُّ له غبارٌ في وحدة النخبة التابعة للواء المظليِّين، فخر جيش الدفاع الإسرائيليّ، هو الهارب والمصدوم من أيَّامه في الجيش. لا، ليس مصدومًا من الجيش بحدِّ ذاته، بل من لحظاتِ الجيش. تلك اللحظات التي سلبته الحلاوة، ومنحته المرارة. ولكن لا وقت لديه الآن لهزيمة أخرى أمام ذكريات الجيش. إنَّه وقت شطيرة التونة والتهامها بشهيَّة نادرة تسبَّب بها نجاحه في كآبة بعض الذكريات. بلى، منذ عامَيْن ازدادت الأمور تعقيدًا، عندما فقد ظلَّه وشرع يحلم أحلامًا غريبةً وغامضة، منذ أن انتقل من تلِّ أبيب وبيت ذويه الواقع في جادَّة روتشيلد، لكي يسكن في جفعات شاؤول نزولاً عند رغبة جدَّيْه نير وسوزانا، اللذَيْن هجرا بيتَهما هناك منذ عدَّة سنوات وقصدا بيتًا للمسنِّين كتوطئة لموت هادئ وأنيق. اعتقد في البداية أنَّ بيت جدَّيْه سيناى به عن صخب تلِّ أبيب النهاريّ ورعبها الليليّ، الذي كان يتخلَّله في بعض الأحيان دويّ صفَّارات الإنذار، التي كانت تصاحب مضادَّات منظومة الدفاع الجوِّيّ التابعة للقبَّة الحديديَّة،

أثناء تصدّيها لبعض الصواريخ التي كانت تُطلَق من قطاع غزّة، ما كان يؤدّي إلى إصابته في تلك اللحظات بكلّ أهوال ماضيه العسكريّ في الجيش، والإطاحة به عن متن الاستقرار ليهوي في هاوية نوبة ذعرٍ شديدة. ولذلك وجد في رغبة جدّيه فرصةً للانسحاب من صخب تلّ أبيب إلى جفعات شاؤول الوديعة والهادئة، معتقدًا أنّ هذه البلدة ستُقصيه عن مسرح الذكريات ومنابع الصدمة. غير أنّ الأحلام التي راودته هناك كانت أشدّ وقعًا وتأثيرًا من آثار ما بعد الصدمة. أحلامٌ لا تتعلّق بالأموات فحسب، بل بالأحياء أيضًا.

قد يكون أصل الحلم الحيّ موت، ولكن أن لا يحلم باللغة العبريّة فتلك الطامّة الكبرى، وذلك الرعب المقيم. منذ عامَيْن وهذا الذي أشرف على إنهاء شطيرة التونة يحلم بلغة غريبة، لغة قريبة، لغة تُشبه لغته. ذلك ما صارح به طبيبته النفسيّة حينذاك:

«- أحلم بما لا أفهمه.

- ماذا تقصد؟

- أحلم... أهذي بلغةٍ غريبة، لغةٍ تشبه لغتنا.

- ألا تذكر بعض حروفها أو كلماتها؟

- تشبه حروفي وكلماتي.

- قل لي ما هي هذه اللغة. أنتَ تعرفها، وسمعتَ من يتحدّثون بها.

- لا أعلم. قد تكون العربيّة.

- هل أنت خائفٌ لأنّكَ تحلم بالعربيّة؟

- خائفٌ جدًا».

بلى، إنَّه يحلم باللغة العربيَّة منذ عامَيْن، هو الذي لم يكن حضور العرب في حياته سوى ظلال خرساء باهتة لا وجوه لها. مجرَّد أهداف ومخرِّبين وإرهابيِّين. كان قد اكتشف هذه المصيبة منذ الحلم الأوَّل، هو الجنديّ ابن الجنديّ ابن الجنديَّة شقيق الجنديّ حفيد الجنديّ والجنديَّة الناجيَيْن من المحرقة. لطالما سمع هذه اللغة منذ عهد خدمته العسكريَّة الإجباريَّة، والفتية في أوْج الانتفاضة الثانية في الضفَّة الغربيَّة، داخل شخيم (٢) تحديدًا. هناك سمع أولى كلماته العربيَّة وتفوَّه بها، عندما علَّمه رفاقه الجنود بعض الكلمات برطانة وركاكة عبريَّة أشكنازيَّة، كانوا يستعملونها أثناء مخاطبتهم العرب، مثل: هات هويَّة. وقِف. اقعد. ارفع إيدك.

ويحه! إنَّه يحلم بالعربيَّة، ويكتب بالعبريَّة، ويتجوَّل هائمًا في شوارع المدينة الصهيونيَّة الأولى].

إنَّ الحلم الذي انتابني بالعربيَّة منذ عامَيْن، وما زال يراودني حتى ليلة أمس، جعلني، وبدعمٍ من طبيبتي هداس، أسعى إلى تعلُّم اللغة العربيَّة، لكي أفهم مقاصد الحلم ونواياه ولماذا يخاطبني بالعربيَّة. لقد تعلَّمتُ العربيَّة وما زلتُ أتعلَّمها، وقد بلغتُ مرحلةً متقدِّمة، وذلك على يدِ معلِّمةٍ عربيَّة اسمها مريم فاطم. هي التي لم تعلِّمني النبر والحرف والكلمة وسحر إيقاع هذه اللغة الجميلة رغمًا عنِّي فحسب، بل علَّمتني أيضًا، وبخبثٍ عربيٍّ شديد بعثَ في داخلي شياطين أشدَّ هولاً من شياطين مريم المجدليَّة، أنَّ جفعات شاؤول التي أقيم فيها هي اسم

عبريٌّ محرَّفٌ لقرية دير ياسين العربيَّة. دير ياسين التي وقعت بها المجزرة الشهيرة، إبَّان حرب الاستقلال في نيسان من عام 1948.

أتجنَّب، بل عليَّ أن أتجنَّب الآن، حواراتي الحانقة مع مريم في هذا الصباح الذي لا أُفَضِّله برفقتها، لكي أجهز على ما تبقَّى من الشطيرة. إذ أُنهيها، ثم ألتفت حولي لأتساءل بكلِّ سرور، قبل الشروع بتدخين ما تبقَّى من لفافة الماريجوانا الطبِّيَّة بكلِّ راحة: لماذا الشارع خالٍ من المارَّة إلى هذه الدرجة؟ أين ذهب أهل تلِّ أبيبَ؟

ومن شدَّة التجلِّي أغفلِ عن أنَّني أتساءل بالعربيَّة الفصحى، أثناء مجيِ لنفسيْن من هذا المخدِّر الطبِّيّ، الذي أشدِّدُ على أنَّه طبِّيّ، فمن أنا بالنهاية سوى معاقٍ من معاقيِ جيشِ الدفاع الإسرائيليّ؟ أنا ضابطٌ سابقٌ معاقٌ لأنَّني مُصابٌ بآثار ما بعد الصدمة الحادَّة، ومصرَّحٌ لي بناءً على وصفةٍ طبِّيَّةٍ نفسيَّةٍ بتدخين الماريجوانا الطبِّيَّة. ولكن هلْ مصرَّحٌ لي بأن أحلم بالعربيَّة؟ أسأل نفسي بهمسٍ شديدٍ وأنا على وشك ضحكة ساخرة، ثم أتَّكئ برأسي على ظهر المقعد الخشبيّ، وأغمض عينيَّ للحظات مستمتعًا بإعادة الاستماع مرَّةً أخرى لأغنية فرقة الستونز Paint it black.

***

كلُّ شيءٍ هادئٌ في تلِّ أبيب في هذا النهار الآذاريِّ المستعار من زمهرير الشتاء. أسير في شارع ديزنكوف، أشهر شوارع المدينة وأكثرها حيويَّةً وإثارة، بمتاجره

وأحيائه ومقرّات السفارات الأجنبيّة، وأشجاره الوارفة التي لطالما أحببتُ الجلوس في ظلّها على المقاعد الخشبيّة. أشعر لشدّة مروري بهذا الشارع بأنّه هو من برتادني، وليس أنا الذي أرتاده في طريقي إلى هداس، أو الطبيبة هداس ستورنبرغ، كما تطلب منّي مخاطبتها دومًا:

«- اسمي دكتورة هداس.

- وما الفرق؟

- الفرق أنّكَ في جلسة علاجٍ نفسيٍّ مع طبيبة، لا مع صديقتك.

- ألسنا صديقَيْن؟

- أرجوك... العلاقة ما بيننا علاقةٌ مهنيّةٌ بسيطةٌ وحياديّة».

رغم كياستها وتحفُّظها ومهنيّتها المقيتة، إلاّ أنّني لا أسهب بالبوح إلاّ في حضرتها. لمَ لا؟ فهي طبيبتي، وأفق علاجي الذي لا أعلم حتى هذه اللحظة متى سينتهي. يبدو أنّني اعتدتُ على ما بي من أوجاع وصدمات. ربّما أمسي هذا جزءًا من هويّتي، لا أعلم. كلّ ما أعلمه الآن هو أنّني سعيدٌ بعد أن شارفت على بلوغ عيادتها، الواقعة في الطابق السابع من هذا المبنى الشاهق الذي أقف أمام مصعده الآن.

أنظر إلى ساعتي فأجدها الثانية عشرة ظهرًا وعشرين دقيقة. ثمّة عشر دقائق متبقّيةٌ على موعد جلستي. ثلاثون ثانيةً للمصعد الذي أركبه وحدي. أصل الطابق

السابع. أطفئ الموسيقى، ثم أدخل العيادة حيث موظّف الاستقبال البغيض عومر، الذي أكرهه وأكره ابتسامته المصطنعة وآليّته في العمل، ملتزمًا بكافّة التعليمات والمواصفات التي تشدّد عليها ربّة عمله هداس. أحيّيه بكلّ ما أوتيت من كبتٍ لكرهي له، فيبادلني التحيّة الاصطناعيّة معقّبًا بقرب حلول موعدي. تسع دقائق. أجلس في زاوية قاعة الانتظار الخالية لأجهّز نفسي وأتمدد استرخائي قبل الدخول إلى الجلسة، مستمتعًا بموسيقى الساكسفون الهادئة التي تخترق أجواء العيادة، مرفقةً برائحة زكيّة مصدرها جهازٌ معلّقٌ في السقف بين الفينة والأخرى رائحةً تشبه رائحة الصنوبر كما أعتقد.

ثماني دقائق وعشر ثوان. فلأكتب إذن ما سأُتحفها به بعد قليل:

[رمقته بهدوءٍ وصفاءٍ بعينيّها الزرقاوَيْن، قبل أن تعود إلى تسجيل بعض رؤوس الأقلام في دفتر ملاحظاتها الصغير، بالإضافة إلى سُبُل علاج مريضها هذا، هو الذي لطالما تحاشى الوميض الساطع من احتكاك فخذَيْها وهي تضع ساقًا على ساق، وتضعه هو تحت قدميها مشتّتًا حائرًا متسائلاً في سرّه: كيف أشفى من آثار صدمتي وأنا في حضرة فينوس العاجيّة هذه؟!

طبيبته النفسيّة التي لا تكبره إلاّ بخمس سنوات، شقراء نضرة بقوامها الممشوق وفخذَيْها اللذيْن لم يرَ لهما مثيلاً إلاّ لدى طبيبة رجل العصابات توني سوبرانو، بطل مسلسل «سوبرانوس»، الذي قام بتأدية بطولته

الممثّل الراحل جيمس غاندلفيني.

ألم تكن تشعر طبيبته بأنّها تؤذيه ببديهيّة جسدها العامر بالفتنة والطبّ النفسيّ؟ ألم تلاحظ ولو لمرّة واحدة نظرة هربت منه خلسةً لتداعب ركبتيها؟ اللعنة! فهو في النهاية ليس سوى مريضٍ من أشدّ المرضى غرابةً في أطوار صدمته، وما بعدها، وما قبلها...].

- تفضّل سيّدي... الطبيبة بانتظارك.

قطع عومر حبل أفكاري وترّهاتي، مضيفًا سببًا جديدًا يعزّز من كرهي له. أغلق الدفتر وأودعهُ الحقيبة، ثم أنتعش بشهيقٍ عميقٍ يتلوه زفيرٌ حادّ، وأدلف من الباب نحو مكتبها ذي الأثاث الهادئ، الذي أضفى اللون الأزرق السماوي المزيد من الرحابة على رونقه المرصّع بهداس الجالسة في أريكتها البيضاء الوثيرة، وقد وضعت دفتر ملاحظاتها الصغير على فخذها الأيمن، لتُخيّب أملي ببنطال رماديّ فضفاض، أخمد عُريًا أُحيّده دومًا متأجّجًا في استيهاماتي. أقف أمامها. يحتلّني الارتباك الذي لم يكن ليفارقني أثناء التقاء عينيّ بعينيْها، فيسترعيها أمري وتسعفني بابتسامة رقيقة مرفقة بتحيّة تدعوني بها إلى الجلوس قبالتها، على أريكة لا تقلّ فخامةً وراحةً عن أريكتها. أردُّ التحيّة مدّعيًا الهدوء، ثم ألتفت حولي متأمّلاً بعض اللوحات من أعمال بيكاسو إبّان المرحلة الزرقاء، لأصل بالنهاية للاصطدام بلوحة أزهار عبّاد الشمس لفان غوخ، المعلّقة على الحائط الواقع وراء أريكة هداس، إذ كنت قد علّقت ذات لقاءٍ بأنّ لوحة فان غوخ مناقضةٌ تمامًا لآمال بيكاسو الزرقاء. كما لو أنّ

هداس توحي لمرضاها النفسيِّين بأنَّ مصيرهم في حال فشلها في علاجهم سيكون حتمًا كمصير رسَّام اللوحة الخالدة المعلَّقة وراءها، الذي انتحر انتحارًا سرياليًّا وطَّأ له بقطع أذنه.

تسألني بصوتها الأخَّاذ:

- أين أنت؟ يبدو أنَّك منتشٍ!

أُجيبها بخجل:

- لا... أبدًا.

- حسنًا... هل تريد أن نتحدَّث في البداية، أم تقرأ لي ما كتبته مؤخَّرًا؟

أُعيد التأمُّل بلوحة أزهار عبَّاد الشمس للحظات، ثم أنتقل إليها، إلى وجهها الزاخر بالنمش، ثم أتذكَّر ما كتبته قبل قليلٍ عن محاسن فخذَيْها. أرتبك طاردًا من رأسي فكرة قراءة فخذَيْها عليها لثمًا وعضًّا. أُخرج الدفتر من الحقيبة، وأُقلِّب في صفحاته مبتعدًا عن تلك الحماقة التي كتبتها، حتى أقع على بعض الشذرات التي كتبتها منذ أيَّامٍ عن دوريت، آخر صديقاتي وأجملهنَّ وأشدهنَّ جنونًا. وما أن أوشك على البوح، حتى تأمرني هي بإشارةٍ من يدها بالتخلِّي عن القراءة، لتقول:

- توقَّف... دعنا نبحث في شأن آخر اليوم. لقد قمت بالأمس بمراجعة معظم ما زوَّدتني به في مذكَّراتك. وعليه، دعني أطلعك على موجزٍ متسلسلٍ لنقاط التعيين التي اخترتها أنت، بالإضافة إلى ما يدور في فلك هذه النقاط، على أن تقوم أنت بدون أدنى توجيهٍ منِّي بإعادة

ترتيبها من حيث شدَّة وقعها عليك. هل أنت موافقٌ على هذه المقاربة؟

أرمقها للحظاتٍ بنظراتٍ تائهة، أهرِّب من خلالها أكبر قدرٍ ممكنٍ من الالتباس، لأنَّها ستحاصرني الآن بحشدٍ من الذكريات والأوقات التي لا تفتأ تقضمني ببطءٍ مخيف. غير أنَّني أشعر بالأمان فقط لأنَّني في حضرة طبيبةٍ نفسيَّةٍ بارعةٍ في ملاحظة أيَّة بادرةٍ منِّي قد تشي بحلول نوبة ذعرٍ شديدة، ولهذا سأوافق.

تقف هداس. تجلب من جوار مكتبها سبُّورةً بيضاء مُسيَّرةً على منصبٍ متحرِّك، ثم تركنها بجانب الكنبة. تُمسك دفتر ملاحظاتها بيد، وباليد الأخرى قلمًا غليظًا أسود اللون. يجول تأمّلها بين الدفتر وبيني، كما لو أنَّها تريد التأكُّد من صحَّة بقائي على قيد الحياة بعد أن أتحفتها بذاكرتي، ثم تشرع بالقراءة والكتابة:

- حسنًا... سأبدأ كما قلتُ لكَ بحسب التسلسل الزمنيِّ للوقائع:

- حرب لبنان الثانية، تمُّوز 2006:

نجاتك من الموت بأعجوبةٍ في قرية بنت جبيل، بعد أن قُتِلَ تسعة جنودٍ من أفراد كتيبتك، من بينهم صديقك المقرَّب نفتالي، في كمينٍ محكمٍ نفَّذه مخرِّبو حزب الله الذين استهدفوا مخبأكم داخل أحد البيوت، ما أدَّى إلى بقائك بين الجثث لأكثر من خمسة أيَّام.

- حرب غزَّة في شتاء 2008 - 2009:

أثناء أحد الاشتباكات في حيِّ الشجاعيَّة، تمَّ قصف

أحد البيوت لاشتباه قائد كتيبتك بتحصّن بعض المخرّبين فيه. وعندما اقتحمتم ذلك البيت فوجئتَ بأشلاء من جثث ثلاث فتيات، يسعى أبيهنّ للملمتهنّ في حضنه وهو يصرخ ويبكي مناديًا عليهنّ بأسمائهنّ.

- بعد عودتك من حرب غزّة، صارحتك صديقتك المقرّبة شير، بعد نفورها منك في أكثر من لقاءٍ حميميّ جمعكما، بأنّها مثليّة الجنس.

- مقتل أخيك الكبير جدعون على أيدي مخرّبين في عام 2010، خلال عمليّةٍ عسكريّةٍ لجيش الدفاع في منطقة رام الله.

- في صيف عام 2012، اعتقدت بلا دليلٍ قاطعٍ أنّ أمّك تخون أباك مع طبيبٍ شابٍّ يُدعى مودي، كان شريكها في عيادتها الخاصّة.

- في خريف 2019 انفصلت عنك صديقتك المقرّبة دوريت، بعد إعلانها المفاجئ عن نيّتها التدين والاعتزال في مدرسةٍ توراتيّةٍ في صفد.

- عام 2020، فيروس كورونا يحصد أرواح جدّك نير، وجدّتك سوزانا وروت، وأمّك.

- عام 2021، دخول أبيك في غيبوبةٍ عميقةٍ بعد إصابته بجلطةٍ دماغيّة.

نتوقّف هداس عن الكتابة، لتراقب ما قد يشفُّ منّي من تفاعلٍ مع ما رمتني به من وقائع وذكرياتٍ مُريعة. أبادلها النظر. أرمقها بحدّة وأنا أنشب أظافري في جلد الأريكة، ساعيًا إلى ضبط إيقاع مشاعري وأنفاسي،

بعد أن كتبت هي على السبُّورة ما تُطلِق عليه نقاط التعيين، من دون أن تعلم أنَّها قد أطلقت عليَّ رصاصًا حيًّا أصابني في صميم روحي. كم أنتِ قاسيةً اليوم هداس! كم أنتِ طبيبة! هل سئمْتِ منّي ومن ذكرياتي؟ هل آن أوان الانفصال عنكِ وعن عيادتكِ؟ هكذا أسألها في داخلي، لتجيبني هي بدفء خبيرٍ في مسّ قشعريرتي:

- أعلم أنّني أقسو عليكَ قليلاً في هذا الاستعراض المؤلم... صدِّقني ما أفعله هو لصالحك، وبعد قليلٍ سأعلمكَ بالهدف من وراء هذا كلِّه. والآن دعنا ننتقل إلى ما يدور في فلك نقاط التعيين هذه... هل أنت جاهز؟

- أجل.

- حسنًا... ما يدور في فلك نقاط التعيين قد يمثِّل نقاط تعيينٍ جانبيَّة، قد تتحوَّل في اللحظات العصيبة إلى أسبابٍ مؤسِّسة لأعراض ما بعض الصدمة، ومنها:

- زيارتكَ لمخيَّم الإبادة النازيّ أوشفيتز في بولندا خلال دراستكَ في المدرسة الثانويّة، وتخيُّلكَ لأجدادك أثناء معاناتهم هناك في الماضي.

- موت كلبتكَ سامو دهسًا، وتجنُّبك اقتناء كلبةٍ جديدة.

- مشاجرات أبيك وأمِّك.

- فشلكَ في ممارسة المحاماة، بعد تخرُّجكَ من كلِّيَّة الحقوق في جامعة تلّ أبيب.

- خوفكَ من جدَّتكَ سوزانا، التي كانت تلتبس عليها الأمور معتقدةً أنَّكَ ولدها الذي قُتِلَ في جبهة سيناء في حرب الغفران عام 1973.

- تخيُّلكَ لأخيكَ المرحوم جدعون وهو يمارس الجنس مع صديقتك دوريت، أثناء ممارستكَ العادة السرِّيَّة.

- إقامتك في جفعات شاؤول أدَّت إلى تزايد حدَّة الأرق لديك، متخيِّلاً سماعكَ أصوات عويلٍ وصراخ تنبعث من جدران البيت.

- الحلم باللغة العربيَّة.

تتوقَّف عن قتلي لتغرق في أريكتها. ترتشف من كأس الماء ما يتكفَّل بترطيب حلقها، ثم تترك للصمت حرِّيَّته بالتسلُّل في أرجاء العيادة لكي تمنحني هنيهةَ راحة، ربَّما من أعباء حياتي التي ألقتها لتوِّها عليَّ. صمتٌ أحتار خلاله بكيفيَّة اقتناص نقطة تعيينٍ تكفل منح هداس إمكانيَّة تفكيك أصل البلاء والصدمة.

لا تخلِّفني كثيرًا في رحاب الصمت، إذ تستعيدني بسؤالٍ أَشتمّ فيه رائحةً خفيفةً لملِّها منِّي:

- ها... أيّ نقطة ستختار في البداية؟

أبتسم بمرارةٍ وأنكِّس رأسي. أعضُّ على شفتي السفلى، ثم أرفع رأسي وأتنهَّد بحرارة. وما أن أهمّ بالإجابة حتى تستوقفني بإشارةٍ من يدها كما لو أنَّها شرطيَّة مرور. هذه هي المرة الثانية التي تخرسني بها. يبدو أنَّني لن أهدي اليوم بأيَّة ترَّهةٍ أمامها. يبدو أنَّها تجرِّب عليَّ إحدى تقنيَّات العلاج النفسيِّ، وهذا هو التوقُّع الأدقّ، حيث

تحطُّ عليَّ بحميميَّة صوتها وهي تقول:

- لا أريد منك الآن أن تحدِّد نقطة التعيين المؤسِّسة لحالتك النفسيَّة. ودعني أُعلِمك بأهمِّ نتائج الكتاب الجديد للعالمة النفسيَّة جاليت أطلس، «الميراث العاطفيّ»، والذي تتحدَّث فيه عن إمكانيَّة انتقال الصدمات والتجارب القاسية من جيلٍ إلى جيلٍ آخر عبر الوراثة، مثل تجارب الناجين من المحرقة النازيَّة. ولكي أكون واضحةً أكثر فإنَّه جرى الكشف عن أنَّ ورثة وأحفاد العديد من الناجين يعانون من نقصٍ في هرمون الكورتزول، الذي يخفِّف من حدَّة تعرض الإنسان للصدمة أو التجربة القاسية(3). ما رأيك أنت؟ هل تعتقد أنَّ ما تعرَّضتْ له جدَّتك سوزانا في أوشفيتز قد انتقل إليك؟

أقول بصراحة إنَّها فاجأتني بأمر وراثة الصدمة، ولكنَّني لا أعتقد بأنَّه يمكنني إعطاؤها جوابًا شافيًا الآن، يشفيني منها ويشفيها منِّي، جوابًا أربط من خلاله تجربتَي جدَّتَيّ سوزانا وروت في معسكرات الإبادة الجماعيَّة النازيَّة بتجربتي وصدماتي أنا. بلى، تجربة جدَّتي سوزانا تحديدًا ذبحتني. منذ تلك اللحظة من طفولتي البعيدة، حين تعرَّفتُ على رقم الموت المتسلسل الموشوم على ساعدها المترهِّل، إذ سألتها لماذا ليس لديَّ مثل هذا الوشم يا جدَّتي؟ فقامت باحتضاني بلوعة بكائها المرير.

أفرك وجهي بكفّيْ، وأنا أفكّر بتوريةٍ أهرب من خلالها من الإجابة، ثم أفتح في فتغلقه هي للمرَّة الثالثة:

- حسنًا... لا أريد منك إجابةً الآن، فقد أرهقتك بما كتبته على السبُّورة. على أيّة حال، وقت الجلسة انتهى.

تقف منتصبةً بأبَّهتها المثيرة فأقف معها. لا أقف معها. يقع شيءٌ منّي. أشياء. أشلاء. قصص. أحداث. ذكريات. وحدها الصدمات تقف معي، تحتضنني. تمدُّ يدها لتصافحني بانتعاشٍ وحرارة:

- موعدنا القادم بعد أسبوعَيْن. وإلى أن نلتقي، أرجو ألاَّ تتردَّد في طلبي على الأون لاين في أيِّ وقت.

- حسنًا، إلى اللقاء.

***

أبلغ نهاية شارع ديزنكوف، لأقطع ميدانه سالكًا شارع فايتسمان المؤدّي إلى مستشفى ايخلوف، في هذا النهار الذي أخذ يتجلّى بدفء شمسٍ تسلّلت من بين ثنايا الغيم في سماء ما بعد ظهيرة تلّ أبيب، التي ينعم معظم قاطنيها الآن بغدائهم الذي ستعقبه شذرات قيلولة. أسير على رصيف الشارع مُخلِّفًا ورائي عيادة هداس المكتظَّة بذاكرتي، لألحق بغيبوبة أبي الراقد في المستشفى منذ ما يقارب العام. أرفع صوت الموسيقى وأغرز السمَّاعتَيْن مرَّةً أخرى في أذنيَّ حتى تبلغا دماغي، الذي أراقصه الآن بأغنية بيت مجانين لران دنكنر. نصف ساعة تفصلني عن موعدٍ من طرفٍ واحدٍ مع أبي، فما الذي يتوجَّب عليَّ فعله الآن؟ هل أرثُ صدمة جدَّتي سوزانا حقًّا؟ أم هل تتدفَّق تلك الصدمة في شرايين ذاكرتي من دون أن أعلم؟ لا أعلم. أجلس على مقعدٍ آخر من مقاعد تلّ أبيب لأكتب، أو لأجهِّز

نفسي للقاءٍ آخر مع أبي الغائب.

[في بدايات حلوله بالبيت الذي أورثه إيّاه جدّته سوزانا في جفعات شاؤول، استيقظ ذات ليلة ماطرة هَلِعًا مذعورًا على أصوات عويلٍ اختلط بها أنين كنجة. قفز من سريره ودفئه، متخبِّطًا مترددًا بالانقياد وراء مصدر الأصوات المريعة. تمالك نفسه وخرج من حجرته نحو صالة البيت، حيث لمح أطيافًا متشحةً بالسواد، مُتحلِّقةً حول طاولة الطعام الخشبيَّة المستديرة، وأيديها على رؤوسها. وأمَّا على المائدة فلم يكن ثمَّة عشاء، بل كانت جدّته سوزانا متربِّعةً بكامل عريها المترهِّل، تمسك بعصا الكنجة وتعزف بها على رقم الموت الموشوم على ساعدها. كانت تعزف بشدَّة لدرجة أنَّها مزَّقت ساعدها، فنزف دمها بغزارة متدفِّقًا في أطباق الطعام، وكانت تتوسَّل الأطياف كيْ تذوق طعم الدم المُرِّ الذي ذاقته هي وذووها الذين قضوا في أوشفيتز. غير أنَّ الأطياف شرعت برفع وتيرة العويل والندب، رافضةً تذوُّق الدم هامسةً بلغةٍ غريبة. أطياف سوداء بلا ملامح، بلا وجوه. هالَه المشهد، فصرخ ببضع كلماتٍ اكتشف أنَّها ليست عبريَّةً لأنَّه لم يفهم معناها. هزَّ رأسه بعنفٍ لكي ينفض عنه هذا الكابوس المرعب، فلم ينجح.

عاد إلى الوراء متقهقرًا مفزوعًا، فاصطدم بحائط حجرته. ثم لمح أحد الأطياف يلتفت نحوه بقوَّة، فرآه بكامل ملامحه. كان وجه صبيٍّ. وجهٌ أبيض به شامات، وعينَان سوداوَان وشفتان شهيَّتان ووجنتَان

مُشربتّان بحُمرةٍ طفيفةٍ مِن غير سوء. وجه طفلةٍ بهيّة. حدّقت به بقسوة، ثم تحدّثت إليه بصوتٍ مبحوحٍ باللغة الغريبة ذاتها. التصق بالجدار بشدّة فاصطدم رأسه به، وتهاوى على الأرض مغمى عليه. صحا في صباح اليوم التالي، وكان قد بلّل سريره بعرقه وبوله].

***

أدلُفُ إلى حجرته المجهّزة بكامل الأجهزة الطبِيّة، التي تكفل حقّه بإصراره على الحياة حتى هذه اللحظة، التي يغيب فيها عن الواقع ومجرياته.

أقف بجانب السرير أُحدِق به. كم أنتَ عجوزٌ يا أبي! كم أنتَ ضئيلٌ وضعيفٌ الآن! أجلس على الكرسيّ قبالته مؤمنًا بوميضٍ خافتٍ لجدوى إبقائه في حالة الحياة الاصطناعيّة هذه منذ عام، أو ببقائي أنا على عهد زيارته مرّةً في الأسبوع، بعد أن قال لي الأطبّاء إنّ الزيارة مهمّةٌ لأنّ المريض يشعر بمن حوله ويقدر على الاستماع لهم، ولكن من دون أدنى تفاعلٍ يشي بعودته إلى الواقع. ولهذا لطالما كنتُ حذرًا ومتفانيًا في الحديث إليه، والبوح بكلّ ما يعتلج في داخلي.

لا أشاء أن أؤذيه الآن بزفراتي الحارّة وذكرياتي وأيّامي برفقته. بل أشاء أن أؤذيه. أريد أن أصرخ بكلّ آلامي في وجهه المطفأ. أن أعاتبه. أصارحه. أجرحه. أداويه. أحبّه. أكرهه. أعانقه. أبكي في حضنه. أرثي جدعون وأمّي وأجدادي. أبي، الذي تجاوز السبعين بعامٍ أو عامَين، متى أدركَ أنّه مُقبلٌ على الغياب التامّ والانكسار المهين؟ أمُنذ مقتل جدعون، نحره ومصدر

عزّته؟ أم منذ خسارته التاريخيّة لأمّي، التي أشعر للحظة بأنّها لم تحبّه يومًا؟ أم منذ وفاتها متأثّرة بإصابتها بفيروس كورونا، لتلتحق بموكب ذوينا الذين هزموا المحرقة النازيّة نجاةً وعجزوا عن هزيمة هذا الفيروس المبيد؟

أتنهّد بمرارة. أميل عليه. أضع كفّي على جبينه. حرارته كحرارة طفلٍ صغير. ثم تومض في ذاكرتي تلك اللحظات التي عزمتْ فيها أمّي على الرحيل من مجدال إلى تلّ أبيب، إثر تقاعده من الجيش قبل أكثر من ثلاثين عامًا. حينذاك سعى لإقناعها بأنّ حياة الكيبوتس أفضل من حياة تلّ أبيب، وأنّني وجدعون سننشأ على مثاليّات الكيبوتس بمنأى عن إغواءات المدينة الكبيرة ومتاهاتها. أبي، الذي كان عقيدًا في الوحدة الخاصّة التابعة لهيئة الأركان العامّة، نخبة النخبة، بأوسمته وشهادات التقدير على دوره المحوريّ في عمليّات الجيش السرّيّة ومهمّاته خلف خطوط العدوّ، كان ينسحب من أمام عتوّ أمّي خاسرًا خائبًا، ليقنع في النهاية بأنّها هي سيّدة الأمر، ولكن ليس في كلّ شيء. كان الأمر بحاجة إلى تسوية ما، تسوية تقضي بأنّ جدعون له وأنا لها. سأذهب إلى تلّ أبيب، موافق. هكذا قلتَ لها يا أبي. سأذهب بشرط أن ينضمّ الولدان في سنّ التجنيد الإجباريّ إلى وحدات النخبة في جيش الدفاع. فعقّبت أمّي قائلةً موافقة، بشرط أن يكون القرار لهما من دون أيّ تأثير منك.

هكذا كانا يفرضان الشروط والمحدّدات لصراعهما الكبريائيّ على أسرتنا الصغيرة، التي ما إنْ كبرتْ

حتى التحقنا أنا وجدعون بالجيش. بلى، لم يؤثِّر أبي علينا علانيةً بل كسرٍ من أسراره العسكرية، وذلك عندما انضمَّ جدعون إلى لواء النخبة القتالي جفعاتي، وأنا إلى لواء المظليين الأسطوري، الذي تخرَّج منه عظماء الدولة. لواء المظليين الذي له الحق وحده بالتفاخر والهتاف بأعلى صوت حين أعاد تحرير أورشليم معلنًا: جبل الهيكل بأيدينا. كم كنتَ فخورًا بنا يا أبي! كم كنتَ تستعيد مجدكَ العسكري من خلالنا! ولكن أرجوك دعني أقول لك الآن، بما أنني أهمُّ وأعقد حالة مرضية نفسية لدى طبيبتي هداس ستورنبرغ، إنني بتُّ أرى الأمور والماضي من زوايا مختلفة. دعني أقول إنكَ بالتحاقكَ بوحدة النخبة بالجيش كنتَ تريد أن تعوِّض خيبة ذويك، جدِّي يوسف هندل الناجي الوحيد لأسرةٍ قضت في أوشفيتز، وجدَّتي روت برينر التي لم تنجُ سوى هي وأخيها يوري، مخلِّفين وراءهما رماد أسرتهما في المحرقة النازية. جدِّي يوسف الذي مات في حرب يوم الغفران كما قلتَ لي أنت، لأنه لم يكن قادرًا على تحمُّل محرقة أخرى قد تحرق دولتنا الفتيَّة. مات لأنه كان معطوبًا. قلتَ لي أنتَ إنَّ جدِّي عاد ولم يعد من ألمانيا المحرقة. عاد ظلاً، شبحًا، شبه إنسان. ولكي يعوِّض خساراته وعدم قدرته على الإسهام في المجهود الحربي الصهيوني إبَّان حرب الاستقلال، قرر الزواج وإنجاب سوبر مان صغير قادرٍ على تعويضه عن الأعطاب التي أصابته، فأنجبكَ أنتَ. وكبرتَ لتحقِّق الخيبة، خيبة الذين وشموا وأحرقوا في معسكرات الإبادة النازية. أردتَ أن تعوِّض أباكَ الملاحَقَ بلعنات محاربي

صهيون وروَّادها الأوائل، الذين نبذوه وعيَّروه بألقاب مشينة، مثل صابون معسكرات الإبادة، والشاة التي سيقت إلى الذبح، والناجي الذي داس على الجثث. والمعطوب العاجز أنجبكَ أنتَ لتلتحق بخبة الجيش المقاتل. ومن ثم أردتَ التأكيد على حقِّكَ بهذه الدولة، وتبديد خيبة أبيك بشكلٍ نهائيٍّ من خلال إلحاقنا أنا وجدعون بوحدات الجيش القتاليَّة البارزة. إنَّها سُنَّة إبراهيم وولده إسحاق، التضحية بقربانٍ على مذبح الربّ ليرضى الربّ، وتسبّح أنت بحمده ونعمته. ولكن ربّ إبراهيم لم يكن رحيمًا رؤوفًا هذه المرَّة، بل كان فظًّا أنانيًّا متغطرسًا، لدرجة أنَّك حين قدَّمتنا أنا وجدعون على مذبح الوطن استحال الفداء حقيقيًّا دمويًّا، فقُتِلَ جدعون وانكسرتَ أنت.

حسنًا، يبدو أنَّني قسوتُ عليكَ قليلاً، لا بل كثيرًا. لا تغضب مني أرجوك ولا تعاتبني، فأنا متعب يا أبي، ومصدوم وأعاني. أعاني من كلِّ شيء، حتى منكَ أعاني. ولكن لكي ترضى سأتلو عليك ومضةً من ومضات الذاكرة جمعتني أنا وجدعون بك، لكي أثبت لك أنَّني ما زلت أحبُّك.

[أجمل أعياد البوريم(١)، في حياته المختلَّة هذه، حلَّ عندما كان في العاشرة من عمره، وذلك حين ذهب هو وأخوه جدعون برفقة أبيهما إلى أحد الحوانيت المختصَّة ببيع الملابس التنكريَّة الخاصَّة بذلك العيد. كان عيده الأوَّل الذي يعيشه كما يليق بطفلٍ يسعى إلى استثمار كلِّ مساخر العيد، حيث اختار زيَّ سوبر مان، وحين

ارتداه شعر بحقّ بأنّه يطير، يحلّق. سوبر مان حقيقيّ، أو خياليٌّ للغاية. إلى أن كبر ليتذكّر أنّ أخاه جدعون كان قد اقتنى حينذاك زيّ باتمان. وعندما كبر أكثر اكتشف أنّ معظم الأبطال الخارقين في الرسوم الكرتونيّة هم ابتكارات واستيهامات من إبداع رسّامين وكتّاب يهود، هالهم وأرهبهم ما ألمّ بأبناء جلدتهم إبّان المحرقة النازيّة. جميع الأبطال الخارقين خُلقوا على أيدي اليهود، منذ شمشون البطل الخارق، وصولاً إلى سوبر مان وباتمان وسبايدر مان وكابتن أميركا وإكس مِن. جميعهم شخصيّات ابتُكِرَتْ لتعويض الذين طُهِروا وحُرقوا على يد مخيّلة سوبر مان آخر].

حسنًا يا أبي... يبدو أنّني أحترف إفساد اللحظات والأشياء الجميلة. قل لي، هل تعتقد حقًّا بأنّني غاوي تعاسة وإفساد وضياع وصدمات وويلات؟ لا أعلم يا أبي... ربّما. حسنًا... هل تعلم أنّني أصبحتُ أتحدّث اللغة العربيّة بطلاقة؟ بلى، أنا أتحدّثها جيّدًا. لقد قلتُ لكَ هذا من قبل، وشعرتُ بأنّ الأمر لم يعجبك. أمر عربيّتي وتفوهي بلغة الأعداء لم يرضك. ويحكَ يا رجل! أتلقيني في وجه الأعداء الذين لم يكن لهم وجه حين كنتُ أواجههم في حروب ومناوشات وطننا الغالي أرض إسرائيل، وتغضب عليّ لأنّني تعلّمتُ لغتهم وصرتُ ألمح وجوهًا لهم؟! ويحك! كيف جنّبتني الحديث معهم سوى من خلال الرصاص والقذائف؟ كيف حرمتني أنتَ وأمّي من التحدّث لأيٍّ منهم كما لو أنّهم أشباح؟

حسنًا. دعكَ من هذا الآن. لا أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا، فأنا سأمضي الآن إلى درسٍ جديدٍ من دروس اللغة العربيّة للمتقدِّمين مع أستاذتي مريم. مريم فاطم. بالمناسبة، هل حدَّثتكَ من قبل عن مريم؟!

***

والطريق إلى يافا طويل، إلى معلِّمتي مريم فاطم التي علَّمتني العربيّة. طويلٌ وصعبٌ وشاقٌّ الطريق، وأنا متعبٌ الآن. مُنْهَكٌ منّي ومن طبيبتي النفسيَّة ومن أبي، كما سأنهك من مريم بعد خمسٍ وأربعين دقيقةً على الأقلّ، هي مدّة الوقت المتاح لقدَمَيَّ حتى توصلاني إلى المركز التعليميّ الذي تتطوَّع فيه مريم بتعليم اللغة العربيَّة لغير العرب.

قبل عامَيْنِ التقيتُها حين شرعتُ باجتياحي الأحلام باللغة العربيَّة. حينذاك، وبعد تشجيع هداس لي، قرَّرتُ تعلُّم هذه اللغة الملاصقة للغتي. التقيت مريم افتراضيًّا في البداية، بعد عثوري على إعلانٍ في موقع جامعة تلِّ أبيب الإلكترونيِّ عن إطلاق منحٍ دراسيةٍ للطلبة الذين يبادرون في تطوير برامج عملٍ تطوعيَّة، مثل مساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة، واستقبال الطلبة الأجانب، وتعليم اللغات ومنها العربيَّة. قرَّرتُ الانضمام إلى دورة اللغة العربيَّة، فإذا بي أتفاجأ برؤية فتاةٍ جامعيَّةٍ كانت عمرها حينذاك إحدى وعشرين سنة، على وشك التخرج من قسم علم الاجتماع، تبحث عن منحةٍ لاستكمال دراساتها العليا. لاحت لها فرصة تعليم العربيَّة لغير العرب، فاقتنصتها واقتنصتني.

كان اللقاء الأوّل إلكترونيًّا باردًا، وكانت دروسي الأولى على تطبيق «سكايب» بسبب الحصار الذي فرضه علينا فيروس كورونا. كان شعوري حينذاك إلكترونيًّا تجاهها، إذا صحّ التعبير. لم أشعر بأنّها عربيّة، بل معلّمةٌ للعربيّة، لا أقلّ ولا أكثر، أو طالبةٌ على وشك التخرّج وتسعى إلى تأمين ضمانات مستقبلها الأكاديميّ، كان شعوري حياديًّا في الحقيقة، في ظلّ سعادتي واستغرابي من إقبالي المتلهّف على تعلّم هذه اللغة، التي تُشبه نبرتها نبرتي ولغتي، إلى أن التقيتها. التقيتُ مريم للمرّة الأولى وجهًا لوجه في كافتيريا جامعة تلّ أبيب إثر انحسار موجة الوباء، من أجل ترتيب مواعيد ومكان الحصص التعليميّة. كانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أخاطب بها إنسانًا عربيًّا. بلى، مريم هي الأولى، وربّما الأخيرة.

ما أعنيه هنا هو أنّني كنتُ قد لمحتُ أثناء دراستي للحقوق في جامعة تلّ أبيب طلاّبًا وطالبات عربًا، ولكنّني لم أكن لأقترب منهم أو أحتكّ بهم. ليس بدافعٍ عنصريّ، أو لأنّني أشكازي للغاية، ومن خلفيّة عسكريّة باهرة وزاخرة بالمعارك والحروب مع العرب. لا أعلم، لمْ أكن أشعر بأنّني بحاجة للتعرّف إلى أيٍّ منهم، أو مخاطبته أو التعامل معه. ربّما لأنّني، أو لأنّنا جميعًا كلّا وما زلنا موسومين سلفًا بهوياتنا، التي تمثّل شيفرات المرور والتواصل في الحياة. فهل كنت حين ألمحهم في ساحات وطرقات ومروج الجامعة ألمح وجوههم وملامحهم أيضًا؟ لا أعلم.

وأمّا عنها هي، مريم، فلم يكن يهمّني كثيرًا رأيها بي، أو موقفها إزاء اليهود بصورةٍ عامّة، خاصّةً أنّني لم أكن لأبوح لها في بداية عهديّ اللغويّ العربيّ برفقتها بملامح خلفيّتي الأسريّة والنفسيّة والعسكريّة. الغريب في الأمر هو أنّني لم أتفاجأ من قبولها وإقبالها على تعليمي، رغم شيفراتنا وهويّاتنا المتعارضة والمتناقضة، كما لم أكن لأتفاجأ، مصابًا بأشدّ القشعريرات حدّةً وألمًا، من تسرّب هذه التناقضات إلى نقاشاتنا التي ستستعر في مستقبل الحصص التعليميّة. كلاّ، لم أتنازل عن أصلها العربيّ وهويّتها القوميّة، كما لم تتنازل هي عن أصلي وهويّتي القوميّة، رغم أنّني كنتُ قد أفضيت لها يومًا بانتمائي لأسرةٍ علمانيّة ذات طابعٍ يساريّ، والدليل على ذلك هو أنّ أمّي كادت تُصاب بانهيارٍ عصبيٍّ حادٍّ عندما سمعت نبأ اغتيال ايتسحاق رابين، رئيس وزرائنا، على يد متطرّفٍ يمينيّ هنا في قلب تلّ أبيب، عشيّة الاحتفاء بالسلام المنشود مع الفلسطينيّين. وقلت لها، لمريم، إنّ أمّي ندبت رابين كما لم تندب أخاها الذي قُتل في حرب يوم الغفران، وفي ذلك دليلٌ على شدّة إيمانها بالسلام ما بيننا وبين جيراننا العرب. يومذاك عقّبت مريم بخفوت، لا بل بلهجةٍ ثابتةٍ متماسكة، بأنّها لم تكن قد وُلدت بعد يوم اغتيال رابين، ولذلك لم تحزن على مقتله ومقتل السلام. ولكنّها حين كبرت مسّها حزنٌ وقهرٌ جارفان عندما علمت أنّ رابين نفسه هو الذي أشرف على عمليّة طرد سكّان البدّ العرب، وتطهيرها منهم إبّان حرب الاستقلال، هو نفسه الذي طبّق سياسة تكسير عظام الأطفال الفلسطينيّين

إبَّان الانتفاضة الأولى. طالبتها حينذاك بأن تكفَّ عمَّا تقول، وقلت لها أغلقي الثقوب التي يتسرَّب منها اللاتسامح والحقد إلى قلبك، ودعينا نحتفي بدرسٍ جديدٍ باللغة العربيَّة، فعقَّبت قائلةً بل بدرسٍ جديدٍ في تاريخ الضحايا.

لا... لا... الحديث عن مريم هكذا ببديهيَّة ضمير المتكلِّم تزعجني، وتجعل الأمر، أيَّ أمر، يبدو طبيعيًّا على هذه الأرض التي فقدت طبيعيَّتها منذ الأسفار الأولى، منذ أن تكوَّنت.

لمريم ضمير الغائب. لمريم تلك المسافة اللامرئيَّة التي تفصلني عنها. هناك في تلك المسافة يترعرع ضمير الغائب، لأكتب في وقفة من وقفات درب الآلام الخاصِّ بي في شوارع تلِّ أبيب وطرقاتها:

[وَمَضَتْ شاشة الحاسوب بوجهها الدائريِّ الأبيض المفعم بالعافية واللطافة، وجه طفلةٍ فاجأته بإطلالتها الصغيرة السنّ. كان يتوقَّع معلِّمةً تستحقُّ هذا اللقب، كأن تكون كبيرةً بالسنّ، ترتدي نظَّارات طبِّيَّة، بشعرٍ شابه شيبٌ يوحي برتابتها وممارستها لهذه المهنة منذ أجيال. معلِّمته الصغيرة تلك كانت زاخرةً بعنفوان الشباب، بشعرها الأسود الكثيف والأجعد، وصوتها الناعم، وادِّعائها الجدِّيَّة والحياد، وانتحال دور المعلِّمة على أكمل وجه. ثم سرى التعارف ما بينهما ببعض الارتباك. وحين سألته عن السبب الذي يدفعه لتعلُّم اللغة العربيَّة، احتار بالإجابة، فهو لم يكن يودُّ أن يصدمها بسببٍ قد يدفعها للاعتقاد بأنَّه مجرَّد أشكنازيٍّ يسعى وراء اللهو

والتسلية في عزلة كورونا الخانقة. لم يشأ البوح بأحلام تراوده باللغة العربيَّة منذ البداية، فأجابها بصورةٍ عامَّة بأنَّه يطمح إلى تطوير معرفته بالثقافات الأخرى. لمْ تعقِّب على إجابته الضبابيَّة، وشرعت توضح له آليَّة التدريس التي ابتدعتها، إذ قالت له سنبدأ بالتعلُّم من خلال لعبةٍ اسمها: حقًّا؟!

ومبدأ اللعبة بسيطٌ وواضح، يتمثَّل بالبحث عن الكلمات المشتركة باللفظ والمعنى في اللغتَين العربيَّة والعبريَّة. لم يشأ إتحافها ببعض الكلمات العربيَّة المشخنة بمواجهاته ومعاركه أثناء خدمته العسكريَّة الغابرة، فسلَّم دفَّة توجيه الأمور إليها:

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

روح: روح

موت: مافت

حياة: حاييم

سماء: شمايم

بيت: بيت

رأس: روش

مخ: موخ

حلم: حلوم

حقًّا؟!

حقًّا للغاية. هكذا قالت له بعد أن لمست دهشته ونجاحه في هذه اللعبة، بعد أن كلَّفته بتجميع أكبر قدرٍ ممكنٍ من الكلمات المطابقة لمواصفات اللعبة.

كان ذلك درسه الأوّل، إلى أن أخذت الدروس تسلك دروبًا أشدَّ تعقيدًا وعمقًا ودلالات، حين اكتشفت مريم أنّه سريع الإدراك والتعلُّم بالعربيّة الفصحى المطعّمة بالعاميّة، عاميّتها هي، تلك اللهجة الخفيفة المتخفّفة من الخاء والشين والقاف، لهجة أهل الجليل، كما وضّحت له هي ابنة الجليل القادمة من أقصى شمال البلاد لتلتحق بجامعة تلّ أبيب لكي تتخرّج منها باحثة اجتماعيّة. آمن بأنّها ستغدو عالمة اجتماع بارزة، إثر ما لمسه من إمكانيّاتها الثقافيّة والفكريّة أثناء حواراته معها، خلال الدروس التعليميّة وبعدها.

زال البرد الإلكترونيّ، وحلّ محلّه دفء اللقاء الوجاهيّ الأوّل بعد أكثر من ستّة شهور من التعليم الافتراضيّ، وذلك في مركز تعليميّ في يافا. كان ارتباكه أشدَّ من ارتباكها، فقد كانت أوّل عربيّة يجالسها ويحاورها. سألته بعربيّة دعّمتها بكلمات عبريّة توضيحيّة:

- ألن تُعلِمني بالسبب الحقيقيّ لدراستك اللغة العربيّة بهذه اللهفة والمثابرة؟

تأمّلها بصمت وهما جالسان في شرفة تُطلّ على البحر وعلى شاطئ حيّ العجمي. كانت قصيرة القامة ممتلئة القوام. لفتته الخريطة التي زيّنت بها جيدها. خريطةٌ ذهبيّة. هي الخريطة ذاتها التي لقّنه إيّاها أبوه في طفولته، خريطة أرض إسرائيل. فكانت تلك أولى الصدمات أو الشيفرات التي أخذت تبرز لتحدّد شكل العلاقة التي ستربطه بمريم. قرّر أن يكون صريحًا وواضحًا بإجابته، ورغم ذلك تساءل بحذرٍ في البداية:

- وهل ستصدّقين ما سأبوح به إليك؟

أجابت بلا تردُّد:

- سأصدّق كلَّ ما ستقوله.

- منذ فترة وأنا أحلم أحلامًا غامضةً وعجيبة. الغريب في الأمر أنّني في هذه الأحلام أتحدَّث وأستمع للغة غريبةٍ عنّي، اكتشفت لاحقًا أنّها اللغة العربيَّة.

أقلع عن البوح ليرمق مريم بتركيز، فاكتشف نجاحها بكبت ضحكةٍ ساخرةٍ بابتسامةٍ باهتة. سألها:

- هل تعتقدين بأنّني أسخر منك، أو بأنّني مجنونٌ أو عابث؟!

- كلاَّ، على الإطلاق. أكمل أرجوك.

- ليس ثمَّة ما أكمله. هذه هي الحكاية كلُّها.

لم يشعر بالراحة لأنَّه باح لها بالسرِّ وراء إقباله على تعلُّم العربيَّة. لاحظت هي ذلك على محيّاه، لتعقِّب قائلة بثقةٍ وهدوء:

- قبل عدَّة أيَّامٍ كنت أطالع تقريرًا في إحدى الصحف عن الحياة الاجتماعية لسكَّان تلِّ أبيب الأوائل، ذوي الأصول واللغات المختلفة، التي كانوا يتخاطبون بها فيما بينهم بسبب صعوبة تعلُّم اللغة العبريَّة. وعندما لاحظ ذلك الأمر شاعركم القوميُّ الأوَّل حاييم نحمان بياليك القادم من أوكرانيا، احتجَّ بشدَّةٍ لدى رئيس بلديَّة تلِّ أبيب الأوَّل ديزنكوف على عدم اهتمام البلديَّة بتعليم السكَّان العبريَّة. وعندما شرعت البلديَّة في تنفيذ برامج لتعليم اللغة القوميَّة، طالبت

السكّان بألاّ يتعلّموا العبريّة فحسب، بل أن يحلموا بها أيضًا. الطريف في الأمر أنّ بياليك الغيور على العبريّة واجه موقفًا محرجًا، وذلك عندما حاصره أحد الفتية متلبّسًا بمحاورة أحد أصدقائه بالإيديش على شاطئ تلّ أبيب، إذ طالبه الفتى بالتحدّث بالعبريّة فشتمه الشاعر بالإيديشيّة.

رمقها بوجه حائر للحظات، من دون أدنى تعقيب، ثم أطلق ضحكة ساخرة هزّت أركان الشرفة البحريّة، قبل أن يقول متهكّمًا:

- كان الله في عون بياليك إذا ما علم بأنّني أحلم بالعبريّة. كان الله في عونه].

***

أصل المركز التعليميّ. أجدها وقد حجزت لنا طاولة في زاوية القاعة الفسيحة، الزاخرة بالروّاد والأنشطة الثقافيّة. ألمح خطّاطًا يعلّم امرأتين أصول الخطّ العربيّ وأنواعه، منهمكًا بالتخطيط على سبّورة كبيرة، ومعلّمة أخرى لا تبعد عنه كثيرًا منشغلة في شرح لغويّ فرنسيّ ثقيل اللهجة لبعض الفتية. وأمّا معلّمتي أنا فقد كانت منهمكة، وقد اكتستها الجدّيّة، بتقليب بعض الأوراق، لأزيل عنها جدّيّتها بتحيّة منعشة أرفقتها بتأكيدي التامّ على احترام المواعيد ودقّة الالتزام بها. أجلس قبالتها. تعزّز الجدّيّة بالحياد الممزوج بشيء من وداعة المعلّمة، لتقول بالعبريّة:

- ها... هل أنتَ جاهزٌ لمفاجأتي بما كلّفتك به في المرّة السابقة؟

أومئ برأسي علامة الإيجاب وأنا أفتح حقيبتي، لأُخرج منها نسختَيْن من روايةٍ اسمها باب الشمس لكاتبٍ عربيٍّ لبنانيٍّ اسمه الياس خوري. نسخةً بالعربيَّة وأخرى بالعبريَّة، مترجمةً على يد موشيه حاخام. كانت قد كلَّفتني باختيار بعض الفقرات من النسختَيْن، والمقارنة بينهما من حيث الترجمة ووقع الكلمات عليّ. سررتُ بهذه الوظيفة في البداية، إلى أن اكتشفتُ وأنا ألتهم النسختَيْن فداحة الألم الذي أحاطتني به مريم من خلال تعريضي لشمس باب الشمس الحارقة. فما الذي كانت تقصده من خلال تكليفي بقراءة هذه الرواية تحديدًا؟

أكرهها. لا أكرهها. لا أعلم. فلألتزم الآن بما كلَّفتني به. فلأتحفها. أُقلِّب أوراق النسخة العربيَّة، إلى أن أعثر على الفقرات التي قمت بتظهيرها:

- حسنًا... دعيني أقول لك منذ البداية إنَّ المقارنة مجحفة. لا يمكن مقارنة نصِّ اللغة الأمّ بنصِّ اللغة المترجَم إليها. إنَّ في هذا لظلمٌ كبيرٌ بحقّ موشيه حاخام، الذي لا أنكر براعته واجتهاده في نقل المعاني العربيَّة إلى العبريَّة.

تهتف بسرور:

- أحسنت! تعقيبٌ موفَّق.

يشجِّعني دعمها لي على التحدُّث بالعربيَّة أكثر:

- ومن هنا فإنَّني اخترتُ بعض الفقرات من النسخة العربيَّة أثَّرت بي كثيرًا، ولم أشعر بحرارتها أثناء قراءتها

بالعبريَّة.

- هات ما عندك.

- «الموقَّت أفضل من الدائم، أو الموقَّت هو الدائم. حين ينتهي الموقَّت ينتهي كلُّ شيءٍ وأنا الآن في موقَّتك، أزور بلادك، وأعيش حياتك، وأسافر في الوهم».

أتوقَّف لألمس تأثُّرها الشديد بما قرأتُه بلهجةٍ سعيتُ قدر الإمكان للتخفيف من حدَّة رطانتها الأشكنازيَّة. في أتمِّ التأثُّر مريم. تريد أن تُعقِّب، فأستوقفها بقراءة فقرةٍ أخرى:

- «الوطن هو أن تسقط في الهاوية، تشعر بأنَّك جزءٌ من كلّ، وتموت لأنَّه مات».

ثم أقول لها إنَّني اخترتُ فقراتٍ أخرى بالعامِّيَّة، لم تنجح الترجمة العبريَّة بالتعبير عنها كما يجب، ومنها:

- «العبري زيّ العربي. عربي بالفرنجي بدّك تقول، بس لازم نحطّ خاء وشين كثير. أنا هيك تعلَّمتها».

تعقِّب مريم بانشراح:

- وأنا أيضًا هيك تعلَّمتها!

- ألهذه الدرجة العبريَّة سهلة؟!

- هي سهلةٌ بعض الشيء للذين يتحدَّثون العربيَّة، لأنَّ العديد من الكلمات ذات جذرٍ واحدٍ باللفظ والمعنى.

- لا أعلم... أشعر بأنَّ الكاتب خوري هذا يستخفُّ بنا وبلغتنا.

تكتسي ملامحها بالجدّيّة هذه المرّة، وتتحوّل كما هو عهدي بها في هذين العامَين من معلّمةٍ للعربيّة إلى عالمة اجتماعٍ عربيةٍ جدًا:

- أنت تحكم عليه هكذا لأنّك تعلم أنّه عربيّ، وموقعه الثقافيّ عربيّ. لو كان يهوديًا لما حكمت عليه بهذه الصورة، أليس كذلك؟

- ربّما.

ثم تشرع بالعودة السريعة إلى درس اليوم، لكي لا تدخل معي في حوارٍ صاخبٍ لن تثبت فيه سوى مجازاتنا وتورياتنا وخزعبلاتنا فوق تلك الخريطة التي تتقلّدها:

- حسنًا... كنت موفّقًا باختيار هذه الفقرات. هل تريد أن تطلعني على فقراتٍ أخرى؟

أجزع من درس اليوم، ليس بسببها هي فحسب، وإنّما بسبب تلك اللعينة هداس أيضًا، التي قضت عليّ في عيادتها منذ سُوَيعات. اللعنة عليها، وعلى نقاط التعيين، وعلى هذه اللحظة التي تجمعني بهذه العربيّة اللعينة، التي تبثّ سمّها الزعاف بكلّ خبثٍ في دمي. اللعنة على شمس، وعلى باب الشمس، وعلى هذه الحياة! لماذا منحتني مريم هذه الرواية؟ لماذا؟! ألا تعلمين أنّني تعثّرت فيها ببطلٍ يشبه أبي؟! بلى، يونس الغارق في غيبوبة تامّة يُشبه أبي. أبي ويونس توأم. اللعنة! لحظة... يبدو أنّني مقبلٌ على نوبة غضب. فلأهدأ. اهدأ يا رجل... اهدأ ولا تؤذِ هذه الصبيّة الوديعة بالبوست تراوما خاصّتك. شهيق، زفير... شهيق، زفير... ثم ألتفتُ

حولي وهي تسألني:

- هل أنت بخير؟ هل ثمّة خطبٌ ما؟

لا أُجيب. يسترعي انتباهي خطّاطٌ يخطُّ كلماتٍ وجملاً بخطٍّ عربيٍّ أخّاذ. تنتبه مريم، فتوضح قائلة:

- هذا هو الخطُّ الكوفيّ، وهو من أجمل الخطوط العربيّة.

أقف. أسير منجذبًا إلى السبُّورة الكبيرة ترافقني مريم. نقف على مقربةٍ من أستاذ الخطِّ من دون أن نؤثّر على مسار الحصّة التعليميّة. تميل مريم نحوي وتسألني بهمس:

- هل تستطيع قراءة الخطِّ الكوفيّ؟ هيّا، اقرأ لي العبارة التي خطّها الأستاذ.

أحدّق بالعبارة للحظات. أُهجّئ الكلمات في رأسي. أدرّب شفتيَّ على النطق. أداعب الحروف، ثم أقرأ بهمس:

«حين عرَّيتُ جرحي وضمَّدتُ جُرحًا سواه... حُطِّم السور بيني وبين الإله»(5).

- أحسنتَ يا تلميذي النجيب.

أدنو من الأستاذ الذي أنهى الكتابة. أسأله بالعربيّة بأدبٍ على وشك التوسّل:

- هل يمكنكَ أن تسديني خدمةً يا أستاذ؟

يتفاجأ من اقتحامي حصّته، غير أنّه لا يلبث أن يُلبّي رجائي بتخطيط اسمي على السبُّورة، ومن ثم على ورقةٍ في

دفتري. يسألني بمرح:

- حسنًا... قل لي ما اسمك؟

- شايبرا... أور شايبرا.

***

الفصل الثاني

[Show must go on. على إيقاعها الحماسيّ الهائج رقّص رأسه الملفوف بدخان لفافة الماريجوانا. لم يملّ بعد من الاستمرار في عرض ذاكرته داخل هذا الدفتر. دفترٌ قد يستحيل تذكرة عبورٍ إلى الراحة والنسيان، أو قبرًا ورقيًّا يواري فيه حاضره واندثار مستقبلٍ عاقرٍ لن يلد له بارقة أملٍ وحياة، حتى هذه اللحظة التي يتراقص فيها على أنغام أغنية فرقة Queen ونجمها الأسطوريّ فريدي ميركوري.

أخذته الماريجوانا وأخذته الأغنية إلى الماضي، إلى دويّ المدافع والرصاص والعويل والدماء. كان كل شيءٍ هادئًا في تلك الليلة من ليالي تموز المستلقي على صيف عام 2006.

ليلةً حين سامرت نجومها وصفاء سمائها حلّت غلالةً شفيفةً على بلدة بنت جبيل، الواقعة في جنوب لبنان. هي البلدة ذاتها التي هتف فيها زعيم حزب الله الإرهابيّ، حسن نصر الله، بالنصر، وبأنّ إسرائيل أوْهن من بيت العنكبوت، إثر انسحاب جيش الدفاع في أيّار من عام 2000 من جنوب لبنان، من أهواله وكمائنه وأشلائه. إلى أن حانت اللحظة لإعادة الكرّة والاحتفاء بالمزيد من القتل، حين تسلّل الجنود، جنود النخبة التابعون للواء المظليّين ولواء جولاني، مدفوعين بحماسة الجيش، معبّئين بأنفاس قائدهم الذي زوّدهم باسم العمليّة، «بيت الفولاذ»، يا بواسل جيش الدفاع. بيت الفولاذ هو الردّ الحاسم على بيت العنكبوت. سنحتلّ

بنت جبيل. سنحيلها ركامًا، لنثبت للعدوِّ بأنَّ إسرائيل وُلدت من رحم الفولاذ. إنَّ صورة النصر الذي سننتزعه سنأخذها في بنت جبيل.

وكان كلُّ شيءٍ هادئًا في بنت جبيل. كم صار يخاف الهدوء التامّ إثر تلك اللحظات الليليَّة المشوبة بهدوءٍ حذرٍ مختلّ، به شيءٌ من الشيطان.

إحساسه العسكريُّ المظليُّ ألحَّ عليه بأنَّ ثمَّة صخبًا سيندلع بعد قليلٍ من أعماق ذلك الهدوء. فضَّ الهدوء أزيز الرصاص، ودويُّ الصواريخ والألغام المتفجِّرة، وصراخ الجنود وعويلهم. أشلاء، بقايا جثث، صرخاتٌ معلَّقةٌ في أزقَّة البيوت، دماءٌ سوداء لطَّخت أرضيَّة البيت الذي اختبأ فيه هو وصديقه نفتالي وثلَّةٌ من الجنود. لم يسمع شيئًا سوى الطنين المدوِّي في أذنيه، ولم يشتمّ سوى رائحة اللحم المحترق المنبعث من أجساد تسعة جنودٍ وضبَّاطٍ من خيرة عناصر لواءَي المظليِّين وجولاني، أُطلِق بهم وبمكنهم صاروخٌ مضادٌّ للدروع أطلقه أحد المخرِّبين، قال بعدها بصرخة شماتة:

«أرسلوا تحيَّاتنا الحارقة إلى سبايدر مان وأنتم في طريقكم إلى جهنَّم».

فهم العبارة. إنَّها بالعربيَّة. انتفض وهو يُزيل عن جسده أشلاء صديقه نفتالي. الدماء الحارَّة اللزجة كست وجهه. فركه بكفَّيه. تأمَّل حوله برعب. كلُّ من حوله من الجنود قُتلوا. لم يخلِّف الصاروخ سواه. شرع بالتخفيف من حدَّة أنفاسه المتسارعة. التصق بالجدار.

سوادٌ موشًّى بما تبقَّى من لهب الصاروخ، وصورة

النصر المحترقة. فتح فمه. دلق بضع كلماتٍ منه ليتأكّد من كونه حيًّا.

نفتالي! نفتالي! هيَّا قم يا صديقي، فقد اقترب موعد عيد البوريم.

ثم أقلع عن الحديث بذعرٍ حين اكتشف أنّه كان يهذي بلغةٍ غريبة، لغةٍ قاتلة... العربيّة!

كان خائفًا من اقتحام البيت من قبل مخرّبي حزب الله لكي يجهزوا عليه، فأجهز هو على نفسه بالتواري أسفل الأشلاء، واستعادة توازنه ولغته العبريّة، ثم مات. هكذا قال لأمّه ليطال وأبيه نيتسان وأخيه جدعون عندما عاد من لبنان بعد الحرب.

«لقد متُّ هناك أنا وسبايدر مان»].

***

فلتحيا العزلة التي تستمدُّ عافيتها منّي. عزلةُ أصطادها أنا لكي لا تصطادني هي بإغفاءة قد تبتلعني في قهقهاتها الجحيميّة. أنا الذي لا أغفو. أنا عبد الأرق والنوم الصناعيّ. أتجنّب النوم العميق لأنّني أخشى مصيدة الحلم، غير أنّني أفشل في النهاية إثر أنفاسٍ عميقة من الماريجوانا الثقيلة، تجعلني أرتطم في قعر الحلم لأتهشّم هاذيًا بالعبريّة. بلى، لقد اختلطت الأشياء. اختلطت إلى حدّ الجنون، وإلى حدّ الدخول في عزلتي هذه التي رمتني بها طبيبتي هداس، لكي أتفرّغ من أجل تحديد نقطة التعيين، التي قد يكفل تحديدها العثور على الشريان المغذّي لأعراض البوست تراوما التي أعاني

منها.

اللعنة! عن أيّ نقطة تعيين تتحدّث هداس؟! أعابثةٌ هي؟ ألم تلحظ بعد أنّني أنا نقطة التعيين الحيّة؟! أنا الصدمة بحدّ ذاتها، أنا الذي أحتفي الآن بهذه العزلة وبمزايا البوست تراوما. أجل، للبوست تراوما مزايا لا تُقارن بآلامها ولكنّها تستحقّ الذكر، فأنا الآن لست عالةً على المجتمع فحسب، بل معاقًا من معاقي جيش الدفاع، وللمعاق مزايا وحقوق، راتب وإعفاءات ضريبيّة وأولويّاتٌ معيّنة، والأهمّ أنّه حشّاشٌ برخصة قانونيّة، بالإضافة إلى المواساة التي تصل إلى حدود الشفقة. هذه المواساة بالتحديد، المواساة المخدّرة بالحشيش، هي التي جعلتني أتعثّر بدوريت. يا اسم السماء! دوريت أخصّائيّة العلاج الطبيعيّ، الذي لم يكن طبيعيًّا البتّة.

ولدوريت ألف تحيّةٍ من ضمير المتكلّم، إذ يتلاشى ضمير الغائب لتلتحم بيَ هي بذكرياتها التي لم تتجاوز العام ونصف العام، حين تعرّفت إليها في ربيع عام 2018، عندما التحقت ببرنامج خاصّ يُسهم في علاج التشنّجات العضليّة الناتجة عن نوبات الهلع، التي تنتاب الأشخاص الذين يعانون من البوست تراوما.

شقراء طويلة القامة، بجسد ممشوق نحيل نحول جذع شجرةٍ تطرح ثمار المانجو. نهدان هائلان، وهذا ما كنت أستغربه أثناء تأمّلي لآيات جسدها الإعجازيّة. يا ربّة التناقض يا دوريت!

كان جسدي العجينة الخام المفضّلة لديها، تشكّله كما تشاء بأصابعها الخبيرة بإزالة أوجاعي، أصابعها التي

كانت تكبرني بخمسة أعوام. قبلها، قبل دوريت، لم أكن أعرف النساء. حتى مع شير، صديقة طفولتي التي انقلبت مثليةً بصورةٍ دراميةٍ عنيفة، لم أكن أشعر بأنني ذكرٌ متينٌ ومنتفخ. فقط مع دوريت، وبعد بضع جلسات تدليك، شرعت بالخروج من مضارب عزلتي وبعض أعراض البوست تراوما.

دوريت، وأغاني إيمي واينهاوس. يا إلهي كم كانت تحب تلك المغنّية المباركة الذكر، خاصةً عندما كنّا ننتشي ضائعَيْن أثناء تدخيننا للفافات الماريجوانا:

- جميلٌ أنت يا أور... جميل يا أوري... يا طفلي.

ثم تلعق جسدي عضوًا عضوًا، وتغفو عليَّ وأغفو عليها. ما بها دوريت؟! دوريت التي فتحتني ولم يفتحني أحدٌ سواها. دوريت تُقلّب. إنّها معي الآن، دوريت تهتاج. تتأوّه. ها هي تُثيرني. دوريت تقتحمني. تضاجعني. تبكيني. تضحكني. تعاقبني. تكافئني بنزواتٍ وألعابٍ جنسيةٍ مثيرة. كلاّ، لم تكن العلاقة مجرّد جنسٍ فحسب. كانت أسمى من ذلك. لا... لا... لا شيء أسمى من نهدَيْ دوريت، ومن بلاغة جسدها. هي المرأة اللبؤة. بلى، كان ثمّة استقرارٌ برفقتها، استقرارٌ موقّتٌ ربّما. إذ كنت على وشك الاتّحاد الأخير بها زواجًا بعد كلّ المغامرات التي خضناها معًا، هي التي كانت تكبرني بخمس سنوات.

دوريت التي أسكنتني معها في منزلها الواقع في شخونات فلورنتين، المطلّة على البحر وشمال يافا العتيقة، ومن ثم انتقلت للسكن معي هنا في هذا البيت الذي

أعمه فيه بعزلتي الآن. هنا في جفعات شاؤول خسرتُ دوريت للأبد، قبل عامٍ وبضعة شهورٍ وأيّام.

هنا بدأت دوريت الدخول في أطوارٍ غريبةٍ ومدهشة ومؤلمةٍ وصادمة، حينما أخذت تنسحب رويدًا رويدًا من سريرنا، مقلعةً عن الماريجوانا وإيمي واينهاوس معًا ومؤثرةً الصمت، وهذا ما أرعبني. يرعبني جدًا صمت دوريت عندما يشبه صمت بنت جبيل، فالصمت حجّة البوست تراوما للتسلّل من جديدٍ إلى ألحاني وآلامي. ثم شرعت تغيب عن البيت، خاصةً في عطل نهاية الأسبوع، إلى أن تعود شاحبةً مرهقةً بجسدٍ أقلّ إثارةً وأكثر سوادًا وهجرانًا، تحت ملابسها التي لم تعد أنيقةً ومثيرة. كما لم تعد تداعب عضلات جسدي وتدلّكها بعبقريّة أصابعها ونعومة شفتيّها. صارت تتحاشاني، هي التي كانت هائجةً مائجة. لبؤة الفراش كانت، ثم انطفأت فجأةً من دون أن أُدرك الأسباب، لأنّني لم أكن لأحاصرها مُلحًّا بالأسئلة والاستفسارات. لماذا؟ لأنّني كنت خائفًا من خسارتها وانسحابها من حياتي إذا ما قمت بخنقها احتجاجًا على غوامض ما ألَمّ بها، قاصدًا التخلّي عن حشريّتي الذكوريّة في ثنايا خصوصيّتها لحين الجلاء ليلها البائس ذاك. إلى أن جاء يومٌ من أيّام تعاستي، حين كنت جالسًا في صالة البيت، متشبّثًا بلحظات هدوءٍ وسكونٍ خالية من أيّ شكلٍ من أشكال التأمّل والمعنى. إذ ثارت هائجةً منبعثةً من حجرة النوم، لتلطم وجهي بدفتر مذكّراتي هذا، من دون أن تتفوّه بأدنى كلمة. وعادت أدراجها إلى الحجرة. وسمعتها، أعتقد أنّني سمعتها، تهمس بغضبٍ بذيءٍ للغاية:

- مختلٌ ابن زانية.

لم أحتر كثيرًا في أمرها وأمري، رغم ارتياعي من مباغتتها لي، حيث أدركت مباشرةً أنها كانت تتلصص على دفتري، على صفحةٍ منه.

[عندما نأت عنه في حذرٍ مفاجئٍ أصابه بالتصحُّر، من دون أدنى مدٍّ من موج جسدها، وخوفًا من هاجس ذكرى بعيدةٍ يفوح منها نفور صديقة طفولته شير منه، والتي خلَّفته وراءها مصدومًا بهجرها له بعد اكتشافها أمر مثليَّتها الطارئة، عزم على تعزيز ارتباطه بدوريت من خلال استيهام مكتظٍّ بالفانتازيا. حيث قام بإحداث ثقبٍ صغيرٍ في بابِ الحمَّام لكي يختلس منه النظر إلى دوريت أثناء استحمامها وملامستها لجسدها الذي حرمته منه. الغريب في الأمر أنَّ إثارته برؤيتها من ثقب الباب كانت أشدَّ وطأةً وشبقًا من مضاجعتهما الغابرة معًا. والغريب أكثر أنَّه كان عندما يستمني وصورتها في ذهنه، يقتحم استيهامه عنوةً أخوه المرحوم جدعون، ليستثار أكثر عندما كان يتخيَّل جدعون وهو يقتحم دوريت من الوراء، منقضًّا على مؤخّرتها بكلِّ ما أوتي من ضراوة ذكوريَّة، واجهتها هي بتأوُّهات لذَّةٍ استحثَّته بها على المزيد من الالتحام، قائلةً له بلغةٍ غريبة، اكتشف عندما تعلَّم العربيَّة أنَّها فصحى إباحيَّةٌ للغاية:

- هيت لك، ما أقسى غوايتك! هيت لك، غُلمتي ما زالت أسفلك!].

بلى... لقد لطمتني، ومعها كامل الحقّ، ولديها شرعيَّة التقيُّؤ عليَّ في أيِّ وقتٍ تشاء. غير أنَّها لم تسعفني كثيرًا،

فقد واجهتني بعد ما يقارب الأسبوعَين من تلك الواقعة المخزية بهاتفها المحمول الجديد، قائلةً لي:

- لا تتواصل معي على هاتفي القديم. كما أنّني لن أمنحك رقم هاتفي الجديد، فهذا هاتف كشير(١).

- ماذا؟! ماذا تقصدين بحلال؟

أجابت بكلِّ حزمٍ وثقة:

- هذا ليس هاتفًا ذكيًّا، ولا يوجد فيه تطبيقاتُ ومواقع التواصل الاجتماعيِّ الفاسقة. إنَّه حلال.

- وكلُّ شيءٍ سواه حرام؟!

- بلى، حرام.

يا ربَّ الحمقى والمعطوبين والمصدومين! ما الذي حدث؟ ماذا ألمَّ بدوريت؟! هل ارتبتُ أنا من تطوُّرات أطوارها الآخذة بالغرابة والانعزال؟ لا بل ذُعرت، ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أنّها تركت عملها وباعت بيتها القديم في شخونات فلورنتين، استعدادًا للرحيلِ والإقامة في صفد. بلى، صفد المزدحمة بالمدارس الدينيَّة اليهوديَّة. إلى أن جاء يوم القيامة الذي حلَّت فيه هي لمحاسبتي، حيث قامت بإيقاظي ذات صباحٍ مهترئٍ عفن، لتُعلِمني بنيَّتها الرحيل إلى صفد. كلّا، لم تكن دوريت من تقف بجانب السرير، بل ظلُّ امرأةٍ أخرى، شبح ما ممسوس بحنقٍ إبليسيّ. كانت متَّشحةً بملابس سوداء محتشمة. رداءٌ صوفيٌّ أسود كسا نصف جسدها العلويّ، وتنورةٌ طويلةٌ حجبت قوامها الفتَّان، مُكلَّلَةً بحجابٍ رماديٍّ ذهب بسبائك شعرها الذهبيّ،

من دون أيّ أثرٍ تجميليّ على وجهها القاسي والصارم الملامح. كانت ترتدي لباس التدين الخاصّ بالمتحققات بالمدارس الدينيّة التوراتيّة. رمقتني ببرودٍ وحياد، ثم قالت بخفوتٍ متماسك:

- جئت لأودّعك. ودّع دوريت القديمة يا أور، ورحّب بدوريت الجديدة التي اهتدت أخيرًا إلى نور الإجابة الكامنة في الدين القويم.

انتفضتُ عن السرير دفعةً واحدة، كما لو أنَّ ألف أفعى قد لدغتني. انتصبتُ قبالتها صارخًا:

- ماذا؟! ما الذي اعتراكِ دوريت؟ ماذا هناك؟

أجابت بكلّ هدوءٍ وهي تستعدُّ للانسحاب من حياتي:

- اعتراني نور الله وهدى التوراة، وهذا ما أتمنّاه لك.

تشبَّثتُ بكتفَيْها، فنهرتني مرتدَّةً عنّي:

- لا تلمسني أرجوك. أنت مُحرَّمٌ عليّ.

- أنا مُحرَّم؟! أنا أور يا دوريت، حبيبك وطفلك المدلَّل.

- إلى اللقاء أور... آمل أن تجد شفاءك ممَّا أنت فيه من صدماتٍ باللجوء إلى ربِّ السماوات.

ثم خرجت. انسحبت. هوت. اندثرت. ثم بُعِثَت هناك في صفد قدّيسةً على هدى الشريعة التوراتيّة، وخلّفتني وراءها أنا المحرَّم عليها. أنا الذي حُرِمتُ النساء منذ عرفتها ومنذ انفصلت عنّي، ليزداد عطبي وتلفي. أنا معطوبٌ وتالف، وهداس تطالبني بنقطة تعيينٍ محدَّدةٍ

لكي تفكّكني وتُعيد تجميعي مرَّةً أخرى، إنسانًا خاليًا من العيوب والصدمات.

***

البيت قوقعةٌ مُستحيَّة، ألجأ إليها سعيًا وراء عزلةٍ خالية من كلّ معاني التأمُّل والإنجاز، إنجاز أيّ شيءٍ قد يمنحني معنى ما، يُسهم بالتخفيف من حدَّة ويلاتي وما يعتمل في داخلي من نقاط تعيين.

ها أنا في هذا البيت الغريب عنّي، بيت جدَّيَّ نير وسوزانا. بل هو بالأحرى بيت جدَّتي سوزانا، التي طالبتني بعد اشتداد نوبات وأعراض البوست تراوما عليّ، باللجوء إليه والإقامة فيه، بعد أن عزمت هي وجدّي على العيش في بيتٍ للمسنّين. ومنذ أن حللتُ بهذا البيت، ما فتئت المصائب تحلّ متتاليةً عليّ. وفاة أجدادي وأمّي تباعًا، متأثّرين بإصابتهم بڤيروس كورونا، وموت كلبتي سامو، ودخول أبي في غيبوبةٍ أبديَّة، وهجر دوريت لي بعد أن اكتشفت أنّها مشروع نبيَّة. لم تحلّ المصائب لحسب، وإنّما هذه الأحلام المختلّة كذلك، التي يتردَّد في أرجائها أصداء الهمس المخيف للُّغة العربيَّة.

كان حلمه ربَّ هلع يسير على قدمَيْن. إذ حلم بأنّه كان قد اكتشف سردابًا سريًّا يؤدّي إلى قبوٍ أسفل البيت الحجريّ العتيق. وأمّا كيف اكتشف أمر السرداب فذلك مكمن الرعب. حيث تناهى إلى مسمعيه صوت ترانيم حزينة، أنشودةٍ ما سريعة الإيقاع وبالغة النعومة. فانجذب وراء مصدر الصوت، حتى

عثر على مدخل السرداب الواقع أسفل مطبخ البيت. توغّل فيه فازداد الصوت علوًا وصفاء. لمح نورًا ينبعث من آخر السرداب، فاندفع نحوه إلى أن بلغه، ليعثر على قبوٍ فسيحٍ مُشبعٍ بنورٍ شفيفٍ على وشك العتمة. التفت حوله، فإذا بعينيْه تقعان على هيئةٍ بشريّةٍ ضئيلةٍ واقفةٍ في زاوية القبو. دقّق النظر فيها، فتبدّت له هيئةً طفلةٍ صغيرة، أدارت ظهرها له بشعرها الحريريّ الطويل، وثيابها السوداء الممزّقة والمهترئة. كان الصوت ينبعث منها. صوتٌ رنّم أنشودةً بلغةٍ غريبة، كان لحنها صرير أظافرها التي نشبتها في حائط القبو، كما لو أنّها تخطُّ بها كلماتٍ معينة.

دنا منها قليلاً بقلبٍ استحال مفاعلاً نوويًّا من شدّة سرعة خفقانه، فتوقّفت عن الغناء والتفتت إليه لتحدّق فيه بوجهٍ لم يكن آدميًّا تمامًا، إذ كان عبارةً عن جمجمةٍ فارغةٍ من معالم الحياة والملامح. ارتعد مرعوبًا متقهقرًا إلى الوراء، فعاجلته بهمسٍ مبحوح، قائلةً بالعربيّة:

- لقد طلبتُ من جدّتكَ سوزانا الغناء معي، ولكنّها رفضتْ وهربت. تعال أنتَ إذن لتغنّي معي... تعال!].

مريم هي السبب. مريم هي التي رمتني بتعويذة الأسماء وربّ الأسماء، وكيف ينقضّ الاسم على اسمٍ آخر لنؤمن بأنّ هذا البيت مُشيّدٌ في جفعات شاؤول، هانئين بنومنا وحياتنا وكأنّ مجزرةً لم تُقترف هنا. تكفي بضع كلماتٍ أيضًا لتبديد هذا الإيمان. بعض التعاويذ التي رمتني بها مريم أثناء تلقيني دروس لغتها العربيّة، هي تعاويذ لاسم المكان العتيق:

- أنت تُقيم في المجزرة، في دير ياسين لا في جفعات شاؤول.

[هكذا قالت له إثر درسٍ لغويّ مُرهق، وكان يشعر في بعض الأحيان بذلك الكره الخفيّ المتبادل بينهما. هل كان يكرهها حقًّا؟ أم كان الأمر مجرَّد تسويةٍ تقضي بتعلّمه للعربيّة ونجاحها هي بنيل منحة الدراسات العليا؟

ولكن ما الذي دفعها إلى إحاطته بكلّ اللعنات التي كان يتوخّى تجنبها ومحاربتها والترعرع على نفيها؟ كيف تجرّأت على القول له إنّه يُقيم في المجزرة؟ كيف أشارت إليه بالاطّلاع على كتبٍ ودراساتٍ تسلّط الضوء على خفايا نكبةٍ ألمّت بشعبٍ لا ذنبَ له بمحرقةٍ أحدقت بشعبٍ آخر؟!

اللعنة عليها! اللعنة على مريم! هكذا كان يردّد في سرّه، بعد أن ألحمته بمكرٍ شديدٍ في دهاليز تاريخ جفعات شاؤول الحقيقيّ:

«سُمّيت جفعات شاؤول بهذا الاسم نسبةً إلى الحاخام الشرقيّ الأكبر لإسرائيل، شاؤول إلياشار، بعد احتلال دير ياسين وتطهيرها في التاسع من نيسان من عام 1948. وأمّا فيما يتعلّق بشواهد القرية وبقاياها، فإنّ مدرسة القرية الحجريّة البناء جرى إحالتها إلى مستشفى للأمراض النفسيّة في عام 1951، أُطلقَ عليه اسم مركز كفار شاؤول للأمراض النفسيّة. وأمّا فيما يتعلّق بالمجزرة، فقد قُتلَ في القرية أكثر من مئتَين وخمسين نسمة، بينهم أكثر من ثلاثين طفلاً وطفلة، كما تمّ اغتصاب بعض النساء والتشهير بجثثهنّ على أيدي رجال

العصابتَيْن الصهيونيَّتَيْن الإتسل والليحي. وفي السياق ذاته فشل مقترفو المجزرة في عمليَّة إحراق الجثث ودفنها، ما أدَّى إلى انتشار التفاصيل المريعة للمجزرة الفظيعة. غير أنَّه، وما أن استتبَّت الأمور بقيام دولة إسرائيل، حتى تمَّ إنشاء مستوطنة «كفار شاؤول بيت» في صيف عام 1949 على أنقاض دير ياسين، وجرت عمليَّة إسكان وتوظيف بعض الناجين من المحرقة النازيَّة فيها».

إنَّه الاسم إذن. سحره. آياته. طوطمه. الاسم أسطورةٌ تؤذن بذاكرةٍ حيَّة. الاسم إلٰه التشبُّث بالرواية. في البدء كان الاسم. والاسم وجهٌ وملامح وهويَّةٌ ومريم. مريم التي كانت على أتمِّ الاستنفار والتوتُّر في العام الماضي، إثر اندلاع حربٍ جديدةٍ بين جماعتنا وجماعتهم، كما كانت تصف موجة العنف العاتية في أيَّار من السنة الفائتة، عندما اندلعت النيران في شوارع البلاد واخترقت الصواريخ سماءها. لم نكن أنا وهي لنجرؤ على المطالبة بحصَّة تعليم للُّغة العربية. كيف لأشكازيٍّ أن يجالس فتاةً عربيَّةً في يافا لكي تعطيه درسًا في اللغة العربيَّة؟!

كانت الشوارع مكتظَّةً بكلِّ أشكال الاحتجاج والعنف والهويَّات التي تتنافس على مشروعيَّتها وحقِّها في هذه الأرض. حينذاك قالت خلال حديثنا عبر تطبيق الواتساب، وقد مسَّها لهب العنف، أو أصلها العربي التخريبي ربَّما:

- لا تخف أور... جيشكم أقوى جيشٍ في المنطقة، ولن يلبث أن يقضي على ما يهدِّد أمن وجودكم بكلِّ ما

أوتي من مدافع وطائرات تنفث جحيمها على غزّة.

- بل سأخاف، لأنّكم أنتم نصف هذا الجيش؟

- ماذا تقصد؟

- أنتم مثلنا، أو نحن مثلكم، لا نملك من أمرنا شيئًا سوى الهويّة. وأنتم أصبحتم تعرفوننا، وتُدركون مكامن قوّتنا وضعفنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- أجل نحن نعرفكم، ونعرف أكثر خوفكم منّا. أنتم تخشون على محرقتكم من نكبتنا.

- النكبة ليست مثل المحرقة يا مريم.

- لا أريد أن أقارن نكبتي بمحرقتك، فهذه مقارنةٌ مُجحفةٌ ومختلّة. لا تخف.

- من ماذا أخاف إذن؟

- أنتَ تخاف من اكتسابنا لوعي المحرقة، أن نمتلك وعيًا للنكبة يشبه وعي المحرقة، أن ننافسكم على تاريخ الضحايا.

- أنتِ ساذجةٌ للغاية مريم.

- ألن تتغيّروا يا أور؟ ألن تطردوا خوفكم من تفكيرنا بمنطقكم؟ هكذا أنتم دائمًا، بمجرّد أن تُميّزونا من خلال ملامحنا وهويّتنا العربيّة حتى تنهالوا علينا بمعاملة دونيّة، بمنبوذيّة عالية. كان كلّ شيءٍ يسير بكلّ إنسانيّة، وبديموقراطيّة تامّة، إلى أن يكتشف إحساسكم الصهيونيّ المرهف للغاية أصلي العربيّ الفلسطينيّ، فتنبذني وتخشى منّي وأخشى منك بدوري، ثم تعلّقني عارضًا جديدًا على

البوست تراوما الخاصَّة بك.

- على رسلك يا مريم... هدِّئي من روعك وعودي إلى مخاطبتي بالعربيَّة. بالعربيَّة أشعر معكِ بالأمان أكثر من مخاطبتكِ لي بالعبريَّة.

***

هل أعلن الآن أنَّني سأصحو من نومٍ ثقيلٍ أم أدَّعي هذا؟

أصحو طاردًا عنِّي أثر قرصٍ منوِّمٍ منحني بضع سُوَيْعات من الراحة، لأتجوَّل في البيت.

وللتجوُّل في البيت راحةٌ منقطعة النظير. كلاَّ... ليست منقطعة النظير ولا ما يحزنون. فأنا خائفٌ هنا... خائف حتى النخاع. فلأجرِّب حظِّي إذن بادِّعاء شهيَّتي للإفطار. أمضي إلى المطبخ. أفتح الثلاَّجة. أعثر على بقايا بيتزا صالحة للاستخدام الآدميّ. أضعها في المايكروويف. أشرِّع ستائر نافذة المطبخ لأستمتع بمشهديةٍ صباحيَّةٍ ندية، أشرف من خلالها على أحراش جفعات شاؤول التي تُطلُّ على شارع رقم واحد، الواصل بين أورشليم وتلِّ أبيب. ثم أنتقل بتأمُّلي ناحية كتف جبلٍ مشيَّدٍ عليه متحف يادفشيم، الذي لطالما زرته برفقة جدَّتي سوزانا لكي تلقِّنني أصول تاريخ المحرقة.

المتحف في الجبل، والجبل كلُّه متحفٌ للقرى العربيَّة المهجَّرة إبَّان حرب الاستقلال. اللعنة! هذا ما قالته لي مريم في إحدى الحصص التعليميَّة. بلى، مريم هي التي ادَّعت هذا الادِّعاء، وليس أنا حفيد الناجين من

المحرقة.

أطرد عينيَّ وذكرى مريم من ناحية المتحف، لألمح على التلّ المقابل لبيتي بعض الخيام وأناسًا يقومون بتحديد رقعة من الأرض ببعض العوارض الخشبيّة. يبدو أنّهم خبراء من سلطة الآثار، جاؤوا لتقصّي تاريخيّة قصّة أخرى من قصص التوراة. أعود من جولتي التفقّديّة على رنين منبّه المايكرويف الذي يعلن استعادة البيتزا لطزاجتها.

أجلس لتناول إفطار اضطراريّ، وأبحث عمّا يُسلّيني في هذا الصباح فلا أعثر إلاّ على هاتفي المحمول الذي يشاركني مائدتي. أبدأ عمليّة التجوّل الإلكترونيّ المعتادة. أدخل إلى موقع «ولاّ» الإخباريّ. أرى أنّ الحرب الروسيّة على أوكرانيا تأخذ الحيّز الأكبر من التغطية الإخباريّة، وحكومتنا مرتبكة في حسم موقفها من أيّ من الطرفيْن: هل نحن مع بوتين أم زيلينسكي؟ وإذا كنّا مع أوكرانيا، فلماذا نستغرب من وقوف روسيا إلى جانب الفلسطينيّين؟! أليس الفلسطينيون أوكرانيّين في مواجهتنا نحن الصهاينة الروس؟ هذا ما يسأله أحد الصحافيّين المحسوبين على اليسار الإسرائيليّ، لا ما أسأله أنا في هذا الصباح.

أنتقل إلى عنوانٍ آخر يتحدّث عن تصاعد حدّة التوتّر في حيّ شمعون هتصديق ( )، وكأنّ الدماء التي أُهرِقَت في العام الماضي في سبيل هذا الحيّ ليست كافيةً لسدّ ظمأ الأرض، وهذا تعليقي الشخصيّ المتواضع، لا رأيي أيّ أحدٍ آخر. ثم أقرأ العنوان المعتاد: توتّر وصراعات

داخل الائتلاف الحكوميّ، ومصادر تتحدَّث عن قرب الإعلان عن حلّ الكنيست والدعوة إلى انتخاباتٍ مبكّرة.

لا جديد تحت الشمس الإلكترونيَّة هذه. أختتم جولتي بقراءة خبرٍ مفاده: مؤشّراتٌ تُشير إلى احتمال اندلاع موجة إرهابٍ جديدةٍ داخل إسرائيل، بعد العمليّتين التخريبيّتين اللتين وقعتا في بئر السبع والخضيرة على أيدي عناصر إرهابيَّة داعشيَّة، فأحمد العزلة على بقائي فيها وعدم تجوّلي وتسكّعي في شوارع تلّ أبيب الآن.

أُنهي إفطاري المتواضع وجولتي الإلكترونيَّة بتأفُّفٍ وملل، وأمضي للاستحمام الذي سيتلوه لفافة ماريجوانا تُعيدني إلى أحضان النوم من جديد. فما الحاجة إلى اليقظة في هذا العالم المختلّ، وهذا البيت الذي يرتجف من شدَّة الهمس والأحلام العربيَّة؟

***

[نصحته طبيبته بتغيير موقع سكنه، مقترحةً عليه العودة إلى تلّ أبيب إذا بقيت الأحلام تراوده على هذه الشاكلة المريعة. طمأنته أكثر عندما أكّدت له أنَّ ألعابًا ناريَّةً بمناسبة ذكرى عيد الاستقلال هذا العام لن تُطلَق في سماء تلّ أبيب، نزولاً عند رجاء ورغبة ثُلّةٍ من ضبّاط وجنود الجيش السابقين الذين يعانون من البوست تراوما، وعليه فبإمكانه العودة إلى السكن في بيت ذويه في شديروت روتشيلد. نال رضاه طرحها المطمئن، فوعدها بحسم الأمر خلال الأيّام القادمة.

أنبته قائلةً بلوعة، بعد أن أمسكت بكفِّه ووضعتها على خدها الوضّاءة:

- لا تعدني أنا، بل عِدْ نفسك بنفسك].

***

[الأجواء نقيَّةٌ وصافيةٌ في جفعات شاؤول، ولكنَّ الأحلام فيها بركانيَّةٌ مرعبة].

***

[«من الجميل أن تخاطب الحلم، ولكنَّ الأجمل هو الإصغاء إليه... إلى شجنه»، هذا ما قالته مريم. فعقَّب بهياج قائلاً:

«قولي لي ما الجميل في ذلك عندما تحلمين أنت بالعبريّة!»].

***

[همست له الطفلة المهشَّمة في أعماق القبو أسفل البيت، والتي سيطلق عليها لقب طفلة القبو:

[«هل جرَّبتَ الميتافيرس؟ الميتافيرس مثل الأفاتار. هل تعرف الأفاتار؟ لا تقل لي إنَّك لم تشاهد فيلم أفاتار؟! حسنًا... الميتافيرس مثل الأفاتار، عالم افتراضي. أرجوك، إذا أحببْتَ الميتافيرس خذني معك إلى هناك لكي أبدِّد وحشة القبو»].

***

[أستيقظ مفزوعًا على نباح كلبٍ من فصيلة الراعي الألماني. أعتقد للحظةٍ أنه نباح كلبته سامو، فهرع

منتفضًا ملهوفًا نحو النافذة، ولمح سامو حيَّةً تُرزق وقد انتصبت على قائمتيها الخلفيَّتَيْن مقابل موقد لحم ملتهب ضخم نُصِبَت عليه جثَّة كلبٍ مسلوخ مشوي. كانت تنفث في الموقد ليتَّقد الفحم جمرًا، ثم التفتت ناحيته قائلة بالعربيَّة:

[«اصبر قليلاً يا صديقي، فبعد قليلٍ سأطعمك أشهى قطعةٍ من لحمي المشويّ»].

***

ثم... كفى. أقع عن سريري. أهوي من حالق الكوابيس والأحلام إلى هاوية هذا البيت.

منذ عدَّة أيَّامٍ وأنا في هذه العزلة، التي ليست اضطراريَّةً ولا أيَّ هراءٍ آخر. إنَّني منعزلٌ عن العالم لأنَّني خاوٍ ومهجور ومعطوبٌ ومصدوم، لا أقلَّ ولا أكثر. أغادر حجرة النوم وأمضي نحو المطبخ. أمارس مهامَّ صباحٍ ملٍّ من انتظاري، فأجبره على لقائي عند موعد الظهيرة. أعدُّ القهوة. أتَّجه نحو النافذة. أطرد نباح سامو. أُشرِعها. ألمح التلّ. نشاطُ آثاريٍّ محموم. لقد صدق توقّعي. عمَّاذا ينقِّبون؟ أدقِّق النظر. ثمَّة مربَّعان جرى تحديدهما فوق التلّ. يبدو أنَّهم يبحثون عن إلهٍ ما، مهجورٍ في جوفِ الأرض، أو نبيٍّ نسي نعله أثناء تجواله في بريَّة أورشليم، كأنَّه سندريلاَّ توراتيَّةً قديمة. أضحك منجدلاً بجدائل هبلي النهاريِّ هذا. أتوقَّف عن مراقبة البعثة الآثاريَّة وأنسحب من المطبخ. أجلس على أريكتي المفضَّلة. تنتابني رغبة الاستماع إلى أغنية أوراق الخريف لمارك لانغين(٨)، وأتذكَّر أنَّ مريم كانت قد

قالت لي ذات مرّةٍ إنَّ ثمّة مغنّيةً عربيّةً لبنانيّةً مشهورةً اسمها فيروز، قامتْ بتأدية هذه الأغنية بالعربيّة منذ زمنٍ، لنكتشف سويًّا فيما بعد أنَّ الأغنية هي بالأصل لمغنٍّ فرنسيّ. غير أنَّ صوت مارك لانغين يأسرني أكثر، صوت الأموات يُحييني.

أنسجم للحظات مع الأغنية والصوت الجبّار لهذا المغنّي الأسطوريّ المبارك الذكر، من دون أن تنجح الأنفاس المعدودة في لفافة الماريجوانا بإحراز استرخائي. ما السبب يا ترى؟ ما سبب هذه الطاقة الزائدة في هذا النهار؟

أنتزع نفسي من راحة الأريكة، وأعود من جديدٍ إلى المطبخ. أقف أمام النافذة. أُشرِّعها. أرمي نظري ناحية التلّ والورشة الآثاريّة مرّةً أخرى، ثم ألتفت نحو آلة تحضير القهوة وأقول لنفسي: لطالما طالبتني هداس بالمبادرة والأعمال التطوّعيّة، فلماذا لا أنخرط متطوّعًا بتقديم القهوة لأولئك المساكين المرتجفين من شدّة البرد الأورشليميّ؟

تُعجبني الفكرة. أعدُّ أكبر قدرٍ ممكنٍ من القهوة، ثم أُهيِّئ نفسي وهنداي وأمضي نحو التلّ الذي لا يبعد عن بيتي سوى بضع خطوات.

أخطو ببطء. أتسلّق التلّ بحذر. أوشك أن أعود أدراجي وأتخلّى عن هذا السعي التطوّعيّ الذي حلَّ عليَّ فجأة. ثم أشدُّ من عزيمة نيتي كسر إيقاع العزلة، والتشبّث بأمل تحسين مزاجي وتعديل مسارات أيّامي الحالية من قيمة ارتكاب الأشياء الجميلة.

بردٌ خالٍ من المطر يعلن نيَّته عدم مراوحة التلّ، سائدًا في أرجاء البعثة الأثاريَّة التي أنتبه إلى أنَّها مكوَّنةٌ من رجالٍ ونساءٍ يفوق عددهم عدد الفناجين الكرتونيَّة التي خزَّنتها في حافظ الحرارة. أرتبك قليلاً لهذا الإحراج، ولكنَّني أحسم أمري بالتوجُّه نحوهم، نحو باب خيمتهم الكبيرة، لألقي تحيَّةً مشبعةً بانتعاش مُدَّعى. يردون التحيَّة بحماسٍ صافٍ يرحِّبون من خلاله بدعوتي العابقة برائحة القهوة الساخنة. تختلط التحيَّة بين الإنجليزيَّة والعبريَّة، ثم أرتبك مرَّةً أخرى لعجزي عن حسم مخاطبتي لهم بأيٍّ من اللغتَيْن. إلى أن ينتشلني من حيرتي صوت أنثوي يصدح بالعبريَّة من ورائي:

- أهلاً بكَ في بعثتنا الآثاريَّة.

ألتفت لأرى امرأةً يافعةً في ريعان الشباب، متوسِّطة الطول بشعرٍ أسود قصير، عبثت به بضع خصلات شقراء تُرِكَتْ فوق وجهها الدائريِّ الأبيض الممتلئ قليلاً، ذي العينَيْن السوداوَيْن الواسعتَيْن، والأنف الذي لا يجافي بحجمه غلاظة شفتَيْها المكتنزتَيْن والمنسجمتَيْن مع جسد مسَّته عافية الجاذبيَّة، رغم إحباط نواياه بمعطفها المطريِّ الثقيل.

أُقدِّر عمرها بأربعة وعشرين عامًا، تزيد أو تنقص قليلاً. أنفض عنِّي الارتباك والتوتُّر الناتجَيْن من حلولي المباغت وسط هذا الحشد الصغير، وأقول:

- شكرًا... أنا... أنا جاركم، وذاك بيتي الواقع بجانب التلّ. لقد لمحتكم منذ عدَّة أيَّام، فقلتُ لنفسي لماذا لا أشجِّعكم بالقهوة الساخنة في هذه الأجواء الباردة؟

تُعقِّب، وهي تساعدني في سكب القهوة وتوزيعها على المتواجدين حولها من أعضاء البعثة الآثارية:

- مبادرةٌ رائعة! فتابوت العهد بحاجةٍ إلى جهدٍ هائلٍ مشبع بالكافيين.

- إذن... أنتم تبحثون عن تابوت العهد؟

- نحن بعثةٌ آثاريَّةٌ مكوَّنةٌ من علماء آثاريِّين من جامعة برنستون الأميركيَّة وسلطة الآثار الإسرائيليَّة، ونحن في مشروعٍ بحثيٍّ نسعى من خلاله إلى إثبات فرضيَّة وجود آثارٍ تدلُّ على إخفاء تابوت العهد في هذا المكان، بعد خراب الهيكل الأوَّل.

أُعقِّب بشيءٍ من التهكُّم، وأنا أمنحها فنجان القهوة:

- ولماذا تبحثون عنه هنا؟ فالبلاد كلُّها باتت تابوت عهد!

تردُّ التهكُّم بجدِّيَّة الباحثة الآثاريَّة:

- يبدو أنَّكَ لستَ من هواة الآثار والتاريخ. بالمناسبة، أنا أيالا شرعابي، وأعمل باحثةً في سلطة الآثار.

ألتقط بروتوكولات طقوس التعارف وتبادل الأسماء:

- وأنا أور شابيرا... تلُّ أبيبيّ سابقًا، وجفعات شاؤوليّ حاليًّا.

تنتفض الفتاة، لدرجة أنَّ رجفتها دلقت بعض القهوة على كفِّها، لأعاجلها بأخذ الفنجان الساخن منها وإعطائها منديلاً ورقيًّا تمسح به كفَّها، في ظلِّ استغرابي شدَّة وقع اسمي عليها. تقول بصوتٍ متهدِّجٍ مرتعِش:

- حقًّا؟! اسمك أور شابيرا حقًّا؟! هل هذا مقلبٌ ساخرٌ دبَّره أور مكيدةً لي من خلالكَ أنت؟!

يساورني شكٌّ طارئٌ بأنَّني أمام مختلَّةٍ تُشبهني. أسألها بحذرٍ ساعيًا إلى تهدئتها:

- هدِّئي من روعكِ آنسة أيالا. من أور هذا؟! لا يوجد أور سواي هنا.

تُحدِّق بي للحظاتٍ بنظراتٍ ثاقبةٍ صارمة، ثم تسألني سؤالاً تحقيقيًّا:

- وماذا تعمل سيِّد أور؟ وأين قلت إنَّك تسكن؟

أندم على ربِّ اللحظة التي قرَّرتُ بها التحلِّي بقيم التطوُّع والمبادرة، ثم أُجيبها مدَّعيًا الهدوء والثقة:

- أنا عاطلٌ عن العمل حاليًّا. كنتُ أعمل في شركة محاماةٍ منذ زمن. وكما قلتُ لكِ أنا أسكن هنا، وذاك بيتي.

تبدأ باستعادة السيطرة على نفسها باعتذار، ثم تحفني بالتوضيح بأنَّها كانت قد تعرَّفت إلى رجلٍ مختصٍ بعلم الآثار في معهد أولبرايت للدراسات الشرقيَّة، الواقع في أورشليم. كانا قد عملا معًا العام الماضي في تلِّ مجدو الآثاري، وأقاما في كيبوتس مشمار هعيمق. ذلك الرجل يدعى أور شابيرا، لا بل إنَّه يُشبهني قليلاً أيضًا، ولكنَّه اختفى فجأةً عشيَّة الحلال عقد البعثة الآثاريَّة بسبب تصاعد موجة العنف التي أدَّت إلى اندلاع حرب أيَّار في العام المنصرم، ولم يتواصلا أو يلتقيا أبدًا منذ تلك الأيَّام. لأعقِّب أنا بعد انتهائها من تبرير ردَّة فعلها

إزائي بضحكةٍ قصيرة، وأقول:

- قد ألتقي ذات يومٍ بفتاةٍ جميلةٍ مثلكِ اسمها أيالا شرعابي. ألا تعلمين أنَّ ثمَّة الكثير من الأسماء المتشابهة والمتطابقة في بلادنا هذه؟!

ترد متفاعلةً مع ضحكتي وإطرائي على جمالها:

- بالفعل... بالفعل أور، إنَّ الأسماء في بلادنا تتشابه. على أيَّة حال شكرًا على القهوة مرَّةً أخرى.

يقطع عليها شكرها تدخُّلُ أميركيٍّ طارئٍ بدر من أحد المشاركين في البعثة الآثاريَّة، يثني على مبادرتي التي بعثت رائحة القهوة الساخنة في الموقع. أشرع بعد ذلك بانسحابٍ تدريجيٍّ، إذ بدا أنَّ حضوري سيعطِّل أعمال البعثة. أقول لأيالا، لأيالا شرعابي:

- كما قلتُ لكِ، هذا هو بيتي قريبٌ منكم. إذا أردتِ أيَّة خدمةٍ أو مساعدةٍ فلا تترددي، أنت أو أور شابيرا المفقود.

نضحك معًا إثر حسِّ الفكاهة المباغت لديَّ في هذا النهار، ثم أصافحها بحرارةٍ وأعود إلى البيت، البيت الكئيب.

***

أور شابيرا؟!

هل ثمَّة أور شابيرا سواي؟! هل ثمَّة أور مثلي؟! أنا المنقطع النظير والأنفاس والآمال، باسمي الشاسع بالتاريخ العريق، والعابق بروائح المحرقة والحروب والصدمات والآلام، لا مثيل لي.

فاجأتني تلك الأيالا، لن أنكر هذا، غير أنّني لم أنسحق تحت وطأة المفاجأة بصورة فيها مبالغة بالدهشة والاستغراب، إذ إنّه وكما قلت لها مؤكّدًا ثمّة العديد من الأسماء المتشابهة في بلادنا، مثل اسم ديفيد ليفي مثلاً، أو إيلي كوهين، أو ميري حسون، أو حن ليبرمان.

على أيّة حال، لا أعتقد أنّني سأُعيد الكرّة الطالخة بالقهوة الساخنة لأسكبها على ذلك التلّ، رغم جاذبيّة الفتاة وشفتيّها المثيرتين. لن أعود إلى هناك لأنّني اكتشفتُ فشلي الذريع بالسيطرة على مخاوفي من الاختلاط بالآخرين، والانخراط بأنشطة ومبادرات جماعيّة. هكذا أنا، بوست تراوما لا أريدُ التفاعل مع محيطي، أو أخشى ذلك، خاصّةً عندما يكون الحشد مكوّنًا من اليهود والأجانب. كلاّ، لن أُعيد الكرّة، خاصّةً أنّ أيالا... اسمها أيالا أليس كذلك؟! بلى أيالا، بها ملامح من شير.

شير صديقة طفولتي البعيدة ومراهقتي الشقيّة، التي تخلّت عنّي منذ ثلاثة عشر عامًا لأنّها اكتشفت أثناء تأمّلها في هويّتها الجنسيّة أنّها لم تعد تنجذب إليّ. ليس إليّ أنا فحسب، بل إلى كلّ أنواع وأصناف الكائنات ذات القضيب الواحد المنتصب.

[كان في تلك المرّة قد عاد من حربه الأخيرة، حرب غزّة التي اندلعت في أواخر عام 2008 واستمرّت حتى مطلع عام 2009. عاد لتتّضح بعد ذلك أعراض البوست تراوما الحادّة، فتمّ إعفاؤه من الخدمة العسكريّة وتسريحه من الجيش، ومنحه لقب الكآبة والتعاسة معاقًا

من معاقي جيش الدفاع الإسرائيليّ.

هو المعطوب الذي احتضنته أسرته، لا بل إنَّ من احتضنه وحنَّ عليه هي أُمّه ليطال فقط، في ظلّ تململ وصدمة أبيه نيتسان وأخيه جدعون، اللذين كانا يعتقدان أنّه يبالغ في أعراض البوست تراوما، فهما كانا قد خاضا حروبًا ومعاركَ دمويّةً عديدة، ولم يصبهما ما أصابه وأدّى به إلى غياهب الصدمة وويلاتها.

ذلك الجفاء ولّد فجوةً هائلةً بينه وبين أبيه وأخيه. فجوةٌ كان من المفترض أن تسدَّها أُمّه بعطف جارف، تساعدها في ذلك شير البيبيَّة. إلى أن أخذت هذه الأخيرة بالتلاشي التدريجيّ من حياته ودمه وسريره، لتظهر أكثر فأكثر في حياة امرأةٍ أخرى تكبرها بعدَّة أعوام.

حدث ذلك حين لمحهما معًا في منتجع كفار هماكابيا، الواقع بين تلّ أبيب ورمات جان. لمحهما وهما جالستان على ربوةٍ خضراء، ملتصقتان كما كان هو يلتصق بها، هائمتان كما كان هو هائمًا بها.

دغدغت المرأة أذن شير الطريَّة الشهيَّة ببضع كلمات، ثم قبضت على رأسها وجذبتها نحوها لتدلق لسانها في فمها، فم شير الشهد والرياحين، فانتفض مذعورًا ممّا رأى. إلى أن سمع من فمها في زيارةٍ له ترجمةً لما رآه بعينَيه:

- يجب أن أُعلمكَ بشأنٍ هامّ يا أور.

- تفضّلي يا شير، أعلميني.

- أنا مثليَّة.

- وما الذي يتوجَّب عليَّ فعله الآن؟ هل أصير مثليًّا مثلكِ؟!].

***

يومٌ آذاريٌّ أخَّاذ، به دفء أمومة ضائعة. أسير على رصيف الشارع المحاذي للمقبرة العلمانيَّة الواقعة في رمات جان، وأستمتع بحسن شمسٍ صباحيَّة تدرك أنَّ اليوم هو يوم مميَّز، يجمع على مائدته الحنان والقسوة والمحبَّة والكراهية والحياة والموت والأمومة ويُتْم الأمومة والوفاء والخيانة. إنَّه عيد الأمِّ الربيعيّ. اليوم عيد الحياة، وأنا مقبلٌ على المقبرة. اليوم هو الاثنين، وأنا ثاني اثنَيْن لأمٍّ جثمانها موارى في هذه المقبرة منذ عامَيْن.

أرفع صوت الموسيقى حتى تبلغ أعماق دماغي، مؤذيًا تواصلي مع محيطي بصوت أفيف جيفن الخشن، ثم أدخل المقبرة قاصدًا قبر أمِّي.

مرحبًا أمِّي!

ليطال... ليطالي. هل هزمك فيروس كورونا حقًّا؟ أنت الطبيبة التي لم يهدأ لكِ بالٌ وأنت تواجهين أعراض هذا الوباء في عيادتك، وخلال مناوباتك الليليَّة في مشفى قبلان. لقد عربد الوباء يا أمِّي وقضى عليك. عربد عليَّ وقضى عليكم جميعًا، أنتِ وأجدادي نير وروت وسوزانا. سوزانا أمُّك التي تمنَّت عليكِ تسميتي باسم أخيكِ الشهيد أور، الذي سقط على جبهة سيناء في حرب يوم الغفران، لحقَّقتِ رغبتها لأغدو أنا

أورًا لك تارة، ولها تارةً أخرى.

أتحسَّس قبرك. أضع فوقه باقة أزهارٍ ملوَّنة. أليس هذا ما كنت تفضِّلينه دومًا، التعدد والاختلاف، ولهذا طالبتِ في وصيَّتكِ الأخيرة بأن تُدفني في مقبرةٍ قادرةٍ على مواراة جميع الأجناس والألوان والديانات واللاديانات في ثراها، رافضةً مبدأ سور المقبرة الذي يحرس الموت اليهوديَّ من موت الأغيار؟ فهل كنتِ رافضةً لهذا التمييز المميت حقًّا، أم أنَّك كنت تهربين من حياةٍ مشتركةٍ مع أبي إلى مماتٍ ولحدٍ لا يشاركك فيه؟

أشتاق إليك... لا أشتاق... أحبُّك كأمٍّ وأكرهك كامرأة. أعبدك، أكفر بك، وألعن تلك اللحظة التي تسبَّبت بتحطُّمي في ذلك المكان الخاطئ، في ذلك النهار الأسود. لا، لا يا أمِّي، يا حُجَّة ضمير الغائب ومناجاتي له فوق هذه الصفحات. لا أقوى عليكِ هكذا بضميري الأوَّل، واسمي الأوَّل، وصدمتي الأعتى:

[كان في طريقه إليها في عيادتها، لكي يزفَّ لها نبأ قبول طلب توظيفه لدى شركة محاماة كبيرة في تلّ أبيب. كان يريد أن يخفِّف عن قلبها أعباء فقدانها لابنها البكر جدعون، وافتقادها لحيويته ونضارته هو.

أراد إزالة وحشة البيت، ومشاجراتها المتصاعدة مع أبيه. كان ذلك منذ عشرة أعوامٍ عجاف، في ظهيرة صيفٍ حارق، حرق ما تبقَّى من خضرة قلبه وسعيه الواهن للعودة إلى الحياة الطبيعيَّة. من شدَّة حماسه لم يصعد بالمصعد، بل ارتقى السلالم الحجريَّة المؤدِّية إلى

عيادتها، الواقعة في الطابق الرابع من برج كبير يقع في شارع بن يهودا. دلف إلى غرفة الانتظار لاهثاً معروقاً. كانت خاليةً من المرضى.

حتى نيتع، موظَّفة الاستقبال، لم تكن موجودة. استغرب ذلك الهدوء، إلى أن استرعاه صوت لهاث وأنّات مكتومةٍ منبعثةٍ من مكتب أمّه. تردَّد بالدنوّ من باب المكتب. اعتراه ذعرٌ ذكَّره بذعر معاركه الغابرة في الجيش. جمد في مكانه، ثم عزم على الدنوّ بحذرٍ وبطء. دنا تدريجيًّا فازداد صوت التأوُّه أنينًا ونشوة. اعتقد للحظة أنَّ أمّه ليست في العيادة، وأنَّ نيتع استغلَّت الفرصة لمضاجعة عاجلة مع الدكتور مودي برودسكي، شريك أمّه بالعيادة، والذي لا يكبره إلاَّ بستَّة أعوام.

لم يشأ اقتحام خلوتهما الحميمة، وانسحب من العيادة بوجهٍ باسمٍ وهو يتخيَّل نيتع مستلقيةً على سرير الفحص الطبّيّ، والدكتور مودي بخبرته الطبّيّة الفتيّة وممارسته الحكيمة يزيل عنها أوجاع الرغبة والنشوة. هبط بالمصعد هذه المرَّة، وما إن وصل الطابق الأرضيَّ وفتح المصعد بابَيه حتى تفاجأ بنيتع أمامه. سألها بحيرة وجزع:

- أين أمّي يا نيتع؟ لم أجدها في العيادة!

- بلى، إنَّها في الأعلى مع الدكتور مودي. لقد أرسلتني لشراء بعض اللوازم الطبّيّة للعيادة].

***

ترمقني بلطفها المعهود في أجواء عيادتها الزرقاء الرحبة، ثم تسألني بوداعة:

- ما بك أور؟ تبدو متعبًا.

أُجيبها بصوتٍ حرقه جمر المرارة:

- زرتُ قبر أُمّي. اليوم هو يومها. عيد الأمّ، أليس كذلك؟

- بلى، أعلم هذا. هل تلوتَ عليها شيئًا من دفتر ذكرياتك؟

أُشيح بنظري عنها لأتعلّق بلوحة فان غوخ. ماذا أقول لهداس الآن؟ بماذا أُجيبها بعد أن كنتُ قد تقيّأتُ عليها ذلك اليوم الصيفيّ الحارق الذي تلوته على أُمّي قبل ساعة ونصف الساعة في مقبرة رمات جان؟ أجل، لقد كان بوحًا ملتبسًا لا حسم فيه، إذ لم أرها... لم ألمحها... لم ألقِ القبض عليها أثناء هتكها لأمومتها. أجل، لقد كنت أحمقَ بصراحتي عندما أفضيتُ لهداس بتلك الواقعة. لم يكن يتوجّب عليّ فضح أُمّي على رؤوس الأشهاد والأقلام الخاصّة بهداس، التي واستني عندما قرأتُ عليها عن عيادة أُمّي المتراقصة ما بين الوهم والحقيقة، قائلةً إنّ الإنسان الذي يتعرّض للضغط الهائل، الناتج من حدثٍ معيّنٍ أو مصيبةٍ فادحة، قد يقع في مأزقٍ لا تُحمدُ عواقبها، كأن يستعير شخصيّةً ليست له لكي يُفرغ توتّره وغضبه وخيبته من خلالها. أتكون أُمّي إذن قد استعارت شخصيّةً صبيّةً لعوب؟ اللعنة! أم هل أُصيبت بانفصامٍ من دون أن تشعر بذلك؟

تلحظ هداس تخبُّطي الصامت، فتسألني من جديد:

- حسنًا، لا أريد أن أضغط عليك في هذا الجانب... لكن قُل لي هل قمتَ بترتيب نقاط التعيين التي استعرضتها أمامكَ قبل أسبوعَيْن؟ هل اخترتَ نقطةً بعَيْنها؟

أُنزِلُ عينَيَّ من لوحة فان غوخ إلى عينَيها الزرقاوَيْن. أرمقها للحظاتٍ بنظراتٍ خاويةٍ من معاني هذا اللقاء، ثم أقول:

- أنا عاجزٌ حتى الآن عن تحديد هذه النقطة اللعينة، رغم أنّني أكتب كثيرًا في هذه الأيّام، مُسجّلاً ما يعتمل في داخلي من نقاط تعيين.

- أور... إنّني أنظر بحذرٍ شديدٍ إلى أسلوبكَ في الكتابة.

- لماذا؟

- أن تكتب عن نفسكَ بضمير الغائب، يعني أن تخلق مسافةً بينكَ وبين الواقع من جهة، وبينك وبين الخيال من جهةٍ أخرى.

- هل تقصدين أنّني لم أعد أميّز الخيال من الحقيقة؟!

- ليس إلى هذه الدرجة. أقصد أنَّ ما تمارسه يحمل بعض المؤشّرات التي لا تتعارض مع بعض أعراض انفصام الشخصيّة.

أفرقع ضحكةً مدوّيةً في وجهها، ثم أقول بتهكُّم:

- هذا ما كان ينقصني، بوست تراوما بنكهة انفصام الشخصيّة.

تفرض جدّيّتها عليّ:

- أرجوكَ خذ الأمور على محمل الجدّ. إنَّ في الأمر شيئًا من المنطق، ولهذا سأعرض عليكَ في الجلسة القادمة أعراض مرض الفصام ومحدِّداته. هل أنت موافق؟

أزفر بحرارة، ثم أقول بخفوت:

- موافق... موافقٌ تمامًا.

- قد أعرِضك للتنويم المغناطيسيّ في الجلسة القادمة.

أقطع عليها تحليلها النفسيّ، مستعيدًا تهكُّمي:

- صدِّقيني... لا أنصحكِ بذلك، فقد تصابين بانهيارٍ عصبيٍّ من هول ما سأقذفه في وجهكِ من دماءٍ ونيرانٍ وأشلاءٍ وجنون. دعينا من التنويم المغناطيسيّ، ودعيني الآن أتلو عليكِ شيئًا من ذاكرتي الحالمة والهاذية. هل أنتِ موافقة؟

- موافقة... موافقةٌ تمامًا.

[قالت له جدَّته سوزانا في ذكرى يوم المحرقة، التي حلَّت بعد عودته من حربه الأخيرة في غزَّة:

أور، يا ولدي... إنَّ الخيال ملجأ الضعفاء. حسبهم هذا. في المحرقة، في أوشفيتز، كنَّا نتخيَّل أنَّنا سنحيا وسننجو من ذلك الجحيم. كنت أتخيَّل نفسي عروسًا بهيَّةً بكلِّ ما أوتيتُ من ضعفٍ وخوفٍ واحتضار. التخيُّل تحرر، وأمَّا اليوم فلم يعد أحدٌ يتخيَّل. اليوم نحن أقوياء، ولدينا وطنٌ وجيش قوي يحمينا ويقينا من شرور محرقةٍ أخرى].

***

هل اشتقتَ إليَّ يا أبي خلال هذَيْن الأسبوعَيْن المنصرمَيْن؟

حسنًا... ها أنا أزورك في عيد الأمّ. في الصباح زرتُ أمّي، وفي الظهيرة طبيبتي النفسيّة، وها أنا عند العصر أزورك. فكيف أنت؟ وإلى أين وصلت في غيبتك هذه؟

أتعلم شيئًا؟ أحسدك أحيانًا على هذا الغياب المتخفِّف من الحياة وقرفها وظلالها ومنطقها.

أبي... نيتسان... نيتساني.

هل أنت في اللمبو أم في الجحيم أم في الفردوس؟ أين أنت الآن؟ هل تلمح هشيم قلبك بلقاءٍ يجمعك ركامًا بحبيبك وابنك البكر جدعون؟ قل لي هل ما زلت تسعى إلى إقناع جدَّتي سوزانا بأنّك لم تلتقِ خالي أور قبل أن يُقتل في جبهة سيناء؟ هل ما زالت تُلقي اللوم على نفسك لأنّك لم تنقذه ولم تلمّ أشلاءه من داخل الدبّابة التي فجَّرها الأعداء بصاروخٍ مضادٍّ للدروع؟

أنت الذي لطالما سكَّنت قلبها باسمي الحيّ، قائلاً لها هذا هو أور يا سوزانا. انظري، هذا حبيبك أور. خذيه، ها هو الغائب قد عاد. عاد الاسم ساطعًا يا سوزانا.

أور، اسمي النور المبهر. ولكن هل كنت تعلم يا أبي أنّ النور يرى ولا يَرى. النور يمنح سطوعًا باهرًا، ولكنّه لا يأخذ إلاّ الظلام. ظلامٌ حلّ عليك منذ مقتل جدعون، لتكسر سيفك وتلقي ترسك في بحر تلّ أبيب، وتشرع بالموت البطيء منذ تلك اللحظة. جدعون كان حياتك، وأنا كنتُ مماتك. جدعون كان الصهيونيَّ الزاخر بآيات

يوشع بن نون وداود، وأنا كنتُ الأشكازيَّ المصدوم المرهف القلب.

تقطع عليَّ مناجاتي لأبي نغمة وصول رسالة إلى هاتفي عبر تطبيق الواتساب، فإذا هي رسالة صوتيَّة من مريم.

أقوم بالاستماع إليها عبر مكبِّر الصوت أمام أبي:

- مرحبًا أور... أعتذر عن حضور حصَّة اليوم بسبب ارتباطي بالتزامٍ متعلِّقٍ برسالة الماستر خاصَّتي. اعذرني أرجوك.

هل سمعت يا أبي؟ إنَّها تتحدَّث العربيَّة، وأنا كذلك. هذه هي مريم يا أبي، معلِّمتي العربيَّة. لقد حدَّثتك عنها من قبل، أليس كذلك؟!

مكتبة ياسمين

أجب ما بك؟!

t.me/yasmeenbook

***

أعود إلى جفعات شاؤول أجرُّ أذيال الخيبة ورائي، كما يقولون بالعربيَّة، لألتحم بعزلتي أشدَّ التحام، أستحثُّ كلَّ ما يعتمل في داخلي من ذكريات كان وأخواتها، اللواتي استحلن عاهراتٍ يضاجعن أحلامي ليلدن لي هذه العزلة الحرام.

أعود إلى بيتٍ ليس بيتي، وإلى قبوٍ ينبض بنكبة ليست نكبتي، ونشيجٍ وغناءٍ وطفلة محشورة في زاوية القبو، تأبى التخلِّي عن حقِّها بمراودتي بأغانيها وبكائيَّاتها وآلامها، لأجنَّ أكثر وأحلِّق أعلى في سماء الحلم، ثم أهوي لمحو هاوية هذا الواقع الكابوس.

إهمست له طفلة القبو في عتمة الحلم، من دون أن

تلتفت نحوه:

«نحن نتكوَّن عندما نتوه... عندما نضيع... وعندما ستغدو أنت أقاتار ستُدرك كلَّ شيء، بل ستكتشف لماذا كانت جدَّتك سوزانا تستمع بالسرِ لموسيقى فاغنر».

ثم قذفته بضحكةٍ هستيريَّةٍ أطاحت به عن متن الحلم، ليصحو على رنين جرس البيت].

يصدح رنين الجرس بأنينٍ ينجح عن عدم إطلاقه منذ سنين. من الذي يقصدني الآن في هذه العصيرة؟

أهرع صوب الباب منتزعًا نفسي من كسل سريري. ألمح من العَيْن السحريَّة تلك الفتاة الباحثة الآثاريَّة أيالا. بلى، أيالا شرعابي. ألتفت قبل أن أشرِّع لها بابي لإزالة آثار الكابوس عن وجهي، وترتيب هندامي أمام المرآة الكبيرة المعلَّقة بجانب الباب، ثم أفتحه:

- أهلاً أيالا.

تردُّ التحيَّة بحرج، ينجح عن ملاحظتها لفشلي في إزالة آثار كسلي ونومي المصطنع:

- يبدو أنَّني أيقظتك من النوم. اعذرني.

- على العكس تمامًا، فأنا نادرًا ما أنام... أقصد أنَّني لم أكن نائمًا.

نتبادل النظرات المرتبكة للحظاتٍ من دون أن نتفوَّه بكلمة، إلى أن ألاحظ وقوفي بوجهها في عُرض الباب. أدعوها بارتباكٍ إلى الدخول، وأفسح لها ولهيئتها الفاتنة مجالاً للعبور.

أُجلسها في صالة البيت على أريكة جدَّتي سوزانا تحديدًا، وأجلس قبالتها مؤكِّدًا ترحيبي الحارَّ بها. تقول:

- لقد افتقدنا قهوتك يا رجل. أين أنت؟ لم نرك منذ أيَّام!

- اعذريني، كنت أقضي بعض الأمور في تلّ أبيب. هل تقبلين بكوب شوكولاته ساخنةٍ تطرد عنك برد الأيَّام السابقة؟

- بكلِّ سرور.

أمضي نحو المطبخ على عَجَل، متابعًا حديثي إليها بصوتٍ مرتفع:

- ها... هل عثرتم على تابوت العهد؟

- كلاَّ لم نعثر على أيِّ دليلٍ حتى اللحظة. يبدو أنَّ الفرضيَّة غير دقيقة.

- هذا يعني أنَّكم على وشك الانتهاء من نبش واستخراج أحشاء هذا التلِّ المسكين.

- وهل مللتَ منَّا بهذه السرعة؟

- أبدًا، فأنا لديَّ الكثير من القهوة. قولي لي، هل أضيف لك بعض الكريما إلى الشوكولاته؟

لا تجيب. أسألها مرَّةً أخرى فتردُّ عليَّ بالصمت ذاته، ما يسترعي انتباهي لأعود من المطبخ نحو الصالة ويدَيَّ كوبان من الشوكولاته الساخنة من دون كريما، فإذا بي أراها وهي تقف محدِّقةً باندهاشٍ وذهولٍ بصورة أخي المرحوم جدعون وهو في زيِّه العسكريّ. أقول لها

بصوتٍ اكتسته نبرة حزنٍ اضطراريَّة:

- هذا أخي الشهيد جدعون. قُتِلَ في رام الله قبل اثني عشر عامًا.

لا تعلّق، كما لو أنّها لم تسمعني. أضعُ الكوبَيْن على الطاولة، وأسألها هذه المرّة بحذرٍ وضيق:

- هل ثمَّة خطبٌ ما أيالا؟ هل تعرفين أخي؟

تلتفت نحوي لتقول بصوتٍ يشرف على الهمس والوجل:

- يا إلهي كم يشبه أورا!!

- أور مَنْ؟

- أور شابيرا الذي حدَّثتك عنه من قبل أيَّام. هل نسيت؟

يعتريني عارضٌ من أعراض نوبة الذعر، إذ يقشعرُّ بدني، فأجلس على الأريكة وأفرك كفَّيَّ بمسندَيْها المخمليَّيْن كما علَّمتني طبيبتي هداس، لكي أعيد صلتي بالواقع وأشعر بالأمان. ثم تُقبل هي وتجلس بجانبي، قائلة بلوعة:

- اعذرني، لم أقصد نكأ جراحاتك بذكر أخيك المبارك الذكر... ولكن لحظةً واحدة.

تقف على حين غرَّةٍ لتنتشل من الجيب الخلفيّ لبنطالها الجينز هاتفها، وتشرع بالعبث به إلى أن تعثر على مرادها الذي تُشهره بوجهي:

- انظر... هذه صورةٌ جماعيَّةٌ من موقع البعثة الآثاريَّة

في تلّ مجدو، وهذا هو أور شابيرا.

ألتقط الهاتف بلهفة وأدقّق بالصورة. وجهه ليس واضح الملامح. بدا كما لو أنّه أراد أن يخفي وجهه فنجح في مسعاه. أضيّق عينيّ أثناء تدقيقي بالصورة، فلا أعثر على أيّ شبهٍ قد يشي بوجه أخي جدعون، ربّما لأنّ الصورة ليست واضحة بما فيه الكفاية.

أعيد الهاتف إليها، وأسألها بضيق:

- ألا توجد لديكِ صورةٌ أوضح؟

- كلاّ، للأسف. اعذرني أرجوك، يا لي من غبيّة!

- لا تلومي نفسكِ فأنت لم تقصدي مضايقتي... هيّا احتسي الشوكولاته قبل أن تبرد.

- حسنًا... دعني في هذه المناسبة أُعلمك بقرب رحيلنا الأسبوع القادم، في حال عدم عثورنا على دلائل تثبت صحّة فرضيّتنا.

- إذا لم تعثروا على أيّ أثرٍ في أحشاء التلّ، فتعالوا إلى بيتي وانبشوا قلبه، فقد تعثرون على تابوت العهد فيه.

تضحك فأدّعي الضحك مثلها، ثم نخرط سويًّا في الشوكولاته وعالم الآثار، على مرأى من صورة جدعون المعلّقة على حائط جدّتي سوزانا.

***

[قال له أخوه:

- خذه لا تخف.

- ماذا آخذ؟

- خذ وجهي وارتدِه، فدوريت تنتظرك بلهفةٍ في ذلك الزقاق الذي قُتِلتُ فيه داخل مخيَّم اللاجئين.

- ما الذي تهذي به يا جدعون؟

- أنا لا أهذي، بل أتحدَّث عن خيانتك يا أور، فأنا كنتُ قد رأيتك بأمِّ عيني في عيادة أمِّك ليطال وأنت تضاجع نيتع. نيتع سكرتيرة أبي التي كنت سأتزوَّجها أنا، قبل أن يزفني أبي عروسًا لحسناوات أورشليم المستلقيات على ربوات نشيد الأنشاد.

- أيُّ نيتع يا جدعون؟ ما بك؟!

- نيتع التي لطالما عاملتَها بفوقيَّتكَ الأشكازيَّة. كنت تقول لي دومًا إنَّها شرقيَّة، شرقيَّةٌ يا جدعون، لا تصلح لك. لا تليق بكَ سوى أشكازيَّةٍ حفيدةُ ناجين من المحرقة، جميلةٍ كجمال جدَّتي سوزانا البائد.

- جدعون أنتَ تخيفني الآن... هل جُننت يا أخي؟

- خذ وجهي قلتُ لك... خذه، فقد يصحو أبي نيتسان من غيبوبته حين يعتقد أنَّني أُقبِّل جبينه حيًّا. هيَّا خذه.

- لا أريد.

- لماذا لا تريده؟

- لأنَّني أبحث عن وجهٍ آخر.

- خذ وجه شير إذن، التي بصقت على ذكوريَّتك.

- جدعون... اهدأ أرجوك!

- لا، لن أهدأ. أنتَ تكره شير لأنَّها تخلَّت عنكَ من

أجل امرأةٍ مثلها. لو أنّها هجرتكَ مقابل رجلٍ لواسيتَ الذكر فيك، وقلتَ هذه هي الحياة، لقاءٌ وفراق، أيّها الذكر الأشكازيّ المنتفخ أوداج طحالب.

- يا إلهي خلِّصني من هذا الكابوس!

- هذا ليس كابوسًا يا أخي، فأنا أتحدَّث إليكَ بالعبريَّة لا بالعربيَّة].

***

ما بين جولاتي في البيت وجولاتي الإلكترونيَّة أعمه في العزلة، في هذا البيت الذي بتّ أشعر مع مرور أيّامي فيه بأنّه يلفظني قطعةً قطعةً من جوفه. حسنًا، لن يتبقّى لي الكثير من اللحظات هنا. لن أبقى. سأعود إلى تلّ أبيب الأسبوع القادم سرًّا، ولتذهب طفلة القبو إلى الجحيم، إذ سأغلق حقائبي جيِّدًا لكي لا تتسلَّل إليها وتحاصرني هناك، مُقحِمَةً إيّاي في دهاليز أحلامٍ تصهر الواقع بالخيال.

ولكن لِمَ لا آخذها معي إلى تلّ أبيب؟ فهناك سأستحيل أفاتار كما تلحُّ هي عليّ، وسأجعلها ترافقني في دروب الميتافيرس والهروب من هذا الواقع القاسي. أو سأنجو منها بارتكاب حماقةٍ أخرى نزولاً عند رغبة طبيبتي هداس، وبتشجيعٍ من معلِّمتي العربيَّة مريم، من خلال كتابة رواية. لماذا لا أكتب روايةً أجمع فيها أشلاء حياتي المفقودة؟ ربَّما أفعل ذلك. غير أنّي كنت قد قلت يومًا لهداس إنّني لا أؤمن برواية الحقيقة، وإنَّما بحقيقة الرواية. قد أكتب الرواية لا لأصبح روائيًّا أشكازيًّا مشهورًا، بل لأشيِّد بيتًا، لأخلق رحمًا أولد

منه من جديدٍ في روايةٍ. حقيقة الرواية كذبٌ مرصّعٌ بأماني الصدق، صدقٍ يراقص وهمًا أمام حشدٍ من الاستعارات والتوريات.

حسنًا... إنّه وقت العصر، فماذا سألتهم اليوم؟ هيًا، فلأدعو الشهيّة التي ستساندني حتمًا في إعداد طبقٍ من الطعام. أيّ صنفٍ من أصناف الطعام سأزدرد؟ أفتح باب الثلاجة. فارغةٌ وباردةٌ كقلبي. أغلقه. أفتح أبواب خزائن المطبخ، فلا أعثر إلاّ على معلّباتٍ من اللحم المدخّن والتونة والسردين. معلّباتٌ فقط، مثل مشاعري وعواطفي. دراما أنا في هذا النهار. دراما تراقص تراوما على أنغام أغنية The man in me لبوب ديلن. أفتّش في سلّة الخضار عن حبّة طماطم، فأجد الخضار قد تعفّنت كآمالي في هذه الحياة. أبحث عن حبّة ليمونٍ لإزالة زنخة السردين، فأجدها حامضةً كحموضة ذاكرتي. ثم ألتهم وجبتي المتواضعة وأنا أدندن كلمات الأغنية مع بوب ديلن، إلى أن يكسر إيقاع نهاري هذا رنينٍ جرسٍ البيت للمرّة الثانية خلال ثلاثة أيّام، وهذا رقمٌ قياسيٌ في هذا النهار العظيم، نهار يوم الأحد الذي يقع في أواخر آذار.

أتأفّف حين ألمح أيالا منتصبةً وراء الباب. ماذا تريد هذه الشرقيّة؟ لحظةً واحدة... هل أفضت لي هي من قبل بأصلها الشرقيّ؟! كلاّ، على الإطلاق، فأنا من ألقى القبض على أصولها من خلال اسمها وملامحها ومحاولات تسلّقها الورع لفوقيّتي الأشكنازيّة. حسنًا، فلأرى بماذا ستتحفني هذه المرّة:

- هل ما زلتم هنا؟ ألم ترحلوا بعد عن تلّي المسكين هذا؟

تُجيبني بانشراح:

- لا تقلق، لن نزعجكَ أكثر. غدًا سنرحل خائبين.

- تفضَّلي أيالا... تفضَّلي.

- بشرط أن تمنحني القهوة هذه المرَّة، وليس الشوكولاتة الساخنة.

- كلّ المشروبات الساخنة سأعدُّها الآن لطرد البرد عنك.

تجلس في الصالة كالمرَّة السابقة، مع الأخذ بعَيْن الاعتبار حضور صورة أخي جدعون، التي كانت تختلس النظر إليها ما بين الفينة والأخرى. وما أن أهُمَّ بالذهاب إلى المطبخ من أجل إعداد القهوة حتى تستوقفني بنبرةٍ اكتستها جدِّيَّة حادَّة:

- أور... أريد أن أُطلعكَ على شيء.

أحتار في أمر جدِّيَّتها قليلاً، ثم أُجيبها:

- ماذا هناك أيالا؟ قولي.

- إنَّ طبعي البحثيَّ الصارم كعالمة آثار، جعلني لا أتردَّد بإعادة البحث عن أيّ خَيْط قد يدلُّني على أور الآخر، أور شابيرا... منذ أن التقيتُ بكَ وبصورة أخيك المرحوم...

أقطع عليها حديثها بضيق:

- أرجوك أيالا... لا تعودي إلى هذه القصَّة. لقد

بدأت تزعجني، أرجوك.

تردُّ بتهدُّجٍ وتوسُّل:

- صدِّقني أنا لا أقصد تأجيج لوعتك على فقدان أخيك، ولكن أعنِّي على البحث عن أور.

تصمت وتواري وجهها بكفَّيْها، ثم تقول بصوتٍ خافت:

- أحبُّه يا أور... أحبُّ أور الآخر رغم أنَّني لم ألتقِ به سوى لبضعة أيَّام. ولكنَّني أحببته وأفتقده دومًا، وأكاد أجن حتى أعثر عليه. لقد بحثتُ عنه في كلِّ مكانٍ جمعنا معًا في أورشليم، في معهد أولبرايت، في شركة موريا للسياحة التي كان يعمل فيها دليلاً. بحثتُ ولم أعثر إلاَّ على الغموض والفقدان.

- وما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟ هل تريدين منِّي أن أصبح أور الآخر؟

تبتسم هذه المرَّة، منقلبةً من حالة الحزن إلى حالة الانتعاش:

- كلاَّ... ولكنَّني...

تُقلع عن الكلام، لتقف أمامي منتصبةً يملؤها الحماس، ثم تردف:

- حسنًا... أريد أن أريك صورةً أخرى لأور، صورةً من بطاقة هويَّته التي أودعها لدى مكتب ضابط أمن كيبوتس مشمار هعيمق، كإجراءٍ أمنيٍّ احترازيٍّ طُبِّق على جميع المشاركين في البعثة الآثاريَّة العام الماضي.

- وكيف عثرتِ على صورة الهويَّة؟!

- لقد نشأتْ صداقةٌ عميقةٌ بيني وبين ضابط أمن الكيبوتس.

تقطع الحماسة المفرطة أنفاس كلامها، ثم تتنشل للمرَّة الثانية، الثانية يا ربَّ السخرية، هاتفها من جيب بنطالها الخلفيّ، الذي سأعقِّب الآن أنَّه بدأ يُثيرني بسبب ضيقه على مؤخِّرتها الضخمة. تعبث به للحظة، ثم تشهره في وجهي.

- انظر... هذه هي صورة الهويَّة.

أنظر. أقف. صورته تشبه صورة جدعون. وجهه يشبه وجه جدعون بالفعل.

اسمه: أور.

اسم الأمّ: ليطال.

اسم الأب: نيتسان.

تاريخ الميلاد: 15 - 8 - 1985.

مكان الإقامة: تلُّ أبيب.

ثم أهوي فوق الأريكة. أتهاوى فوقها. ما هذا؟! هل أنا في لجَّة الحلم الآن؟ أنهش الأريكة بأظافري. اللعنة! إنَّه الواقع وليس الحلم. ليس الخيال. أنظر إلى أيالا الواقفة أمامي، وقد احتلَّتها الدهشة لما يلمُّ بي من دوَّامة الصدمة. ويحي! هذه صورة لهويَّتي، ولكن وجه الرجل فيها ليس وجهي. من هذا؟! من انتحلني؟ تلفَ بي الدنيا. الدوَّامة تفتق رأسي. تكاد تبتلعني. ثم أهدأ.

أستكين مرّةً واحدة، وأتمالك أمري عندما تومض في رأسي الفكرة، فكرة تخلّصي من أيالا، وإنكاري أيّة صلة تربطني بهذه الهويّة المزوّرة، هويّتي التي أضعتها منذ عدّة أعوام، واكتشفتُ فيما بعد أنّني نسيتها في معطفي الجلديّ، ذلك المعطف الذي كان لأخي جدعون وقامت دوريت ببيعه هو ومقتنيات أخرى قديمة في سوق العاديّات والملابس المستعملة في يافا، من دون أن أعلم.

دويٌّ عنيفٌ لوقع المفاجأة عليّ، يتلوه طنينٌ أستمع فيه إلى نداءات أيالا آتيةً من بعيد:

- أور... أور... هل أنت بخير؟

أُحدّق بها وأنا أُمرّر الهاتف لها، ثم أقول بكلّ ما أوتيتُ من ثقةٍ وهدوءٍ وتحكّمٍ مطعّمين بالكذب:

- أيالا... أنا اسمي أور شابيرا بالفعل، ولكنّ اسم أمّي كرميلا وليس ليطال، واسم أبي إيتان وليس نيتسان، وأنا من مواليد العاشر من نيسان من عام 1984. ها! ماذا قلتِ؟ هل أجلب بطاقة هويّتي لتصدّقي أمري، أم تُلقي هذه القصّة العجيبة وراء ظهرك؟!

- ألم تميّزه؟! لقد اعتقدتُ للحظةٍ أنّ الهويّة لك.

- أيالا... هذه الهويّة مثلها كمثل تابوت العهد خاصّتك، لا أمل بالعثور على صاحبها.

الفصل الثالث

[هزّت مؤخّرتها من شدّة التأثّر والإحراج اللذين تسببت بهما حشريّتها، أثناء مراودتها له باسم أور الآخر وأوصافه وصفاته وحسن معشره وطيبة قلبه الأشكازيّة. وأعربت في الاهتزاز ذاته عن عميق أسفها لأنّها باغتته بصورة عن بطاقة هويّة ادّعى هو إنكار معرفته بصاحبها بشدّة. وأكّدت في اعتذارها أنّها كانت تحتفظ بهذه الصورة منذ البداية، ولكنّها لم ترغب بإطلاعه عليها لشدّة الشبه بين أور الآخر وبين أخيه المرحوم جدعون. إلى أن ألحّت عليها حاجتها البحثيّة العالية الدقّة بضرورة الكشف عنها أمامه، معتقدةً بسذاجة أنّ ثمّة صلةَ قرابة بعيدة ربّما تربطه بأور الآخر. ثم جلست بجانبه على الأريكة فنأى عنها قليلاً، بعد أن شعر بحرارة مغرية تنبعث منها. قالت له بصوت متهدّج، استنكر نبرته التي تحمل طابعًا أوميًّا مكسوًّا باللّغة العربيّة:

- أور... صدّقني، أنا لا أتوهّم. ثمّة أور آخر يتسكّع في أرجاء البلاد أو العالم، وسأعثر عليه حتمًا.

سألها وهو على عتبة الضياع والنزق:

- وما المميّز بهذا الأور؟

انشرح قلبها وصدرها، لتعود إلى تقليص المسافة مرّةً أخرى بينها وبينه بنهديها الشقيّين، من دون أن يبدي هو أيّ انزعاج أو ابتعاد عنها هذه المرّة:

- أوّلاً، هو بارع في تخصّصه الآثاريّ. ثانيًا، هادئ ومتّزن ووسيم وأشكازيّ جدًّا. ثالثًا، يتقن فنّ الحوار.

لديه حضور. إنَّه...

أقلعت عن الحديث، وحدجته بنظرةٍ مفعمةٍ بالإثارة والإغواء، ثم همست قائلة:

- إنَّه... إنَّه يشبهك، وهذا ما يخربشني الآن.

ثم انقضَّت بغتةً على شفتيّه، والتهمتهما بشفتيّها ولسانها البليغ. تفاعل هو للحظةٍ ومدَّها بلسانه كردٍّ جميل، ثم ردَّها عنه فجأةً بنفورٍ وعنف، قائلاً بحزم:

- هل تحبّين المارشميلو؟

حدجته بنظراتٍ حائرة، ثم قالت بصوتٍ مرتعش:

- بلى... أحبُّ المارشميلو.

وقف مُطلقًا قهقهةً حمقاء مجنونةً في وجهها:

- حسنًا... سأحرث غيمةً في السماء بقضيبي المنتصب هذا، لكي تمطر لكِ المارشميلو.

- ماذا؟!

انقضَّ عليها وجذبها من يدها عن الأريكة، وجرَّها بسرعةٍ وفجاجةٍ نحو الباب ليطردها من بيته. كان يلهث مرتجفًا بشدَّة، موقنًا بأنَّ نوبةَ غضبٍ ملتحمةً بذعرٍ خارقٍ قد انتابته.

احتجَّت متألِّمةً وصارخة:

- ماذا تفعل؟ ما الذي اعتراك؟

- هيَّا... لا أريد أن أرى وجهك هنا مرَّةً أخرى. ثمَّة الكثير من المارشميلو لتأكليه أثناء بحثك عن أورك اللعين ذاك.

كادت تقع متعثّرةً بحشونته وإلقائه لها خارج البيت، ثم صرخت بلوعةٍ وغضبٍ وهي تعيد ترتيب هندامها:

- أنت مختلّ... مجنون... مريضٌ نفسيّ.

عقّب وهو يصفق الباب في وجهها بعنف:

- بل أشدُّ خراءً من هذا].

***

أقبض على الوقت من خصيتيّه. أوهم نفسي وإيقاع دفتر ذكرياتي بأنّ هذه اللحظات لي، بأنّني حقيقيّ. أنا الواقف الآن في الشرفة الأماميّة لشقّة ذويّ المهجورة، في حيّ روتشيلد العتيق في تلّ أبيب. أقف بحيرة وضياع تامّين، متشبّثًا بموسيقى متينة، موسيقى Heavy metal، وغلاظة إيقاعها وعمق أنغامها لكي لا أهوي. فأنا القابض على الوقت من خصيتيّه أعود إلى تلّ أبيب بكلّ الخذلان والانكسار، بحقيبة أو حقيبتين وضّبتُ بهما آثاري ومقتنياتي، وأغلقتهما بحذرٍ ودقّة لكي لا تتسلّل إليهما طفلة القبو، التي نجحت أخيرًا بطردي من بيت جدّتي سوزانا في جفعات شاؤول. ما الذي سأفعله الآن في تلّ أبيب، التي قرّرتْ إقامة حفل استقبالٍ غزير المطر احتفاءً بعودتي إلى أحضانها الإسمنتيّة الباردة؟

شقّةٌ رحبةٌ في الطابق الخامس تُطلُّ على البحر بخجل. شقّة الطفولة وذكريات الحزن والفرح والتعاسة. شقّة الأنباء الجميلة تارة، والقبيحة تارةً أخرى.

هنا نشأتُ وهنا ربحت وهنا خسرت، ثم خسرتُ ثم

خسرتُ الأصوات، أصوات أحبَّتي الذين رحلوا مخلِّفين وراءهم أصداء خيباتهم الخافتة.

أتجوَّل في الشقَّة لا في البيت، فليس ثمَّة بيوتٌ في تلِّ أبيب. ثمَّة حشدٌ هائلٌ من الشقق المحشورة والمتراصَّة، متراكمةً فوق بعضها البعض في الأبراج والمباني السكنيَّة. تل أبيب غابةٌ إسمنتيَّة هائلة. تل أبيب ليست مدينة، إنَّها تسويةٌ ما. مدينةٌ عمرها مئة عامٍ وبضع سنين ليست مدينةً للحنين والروائح والعثرات، وليست امرأةً عاشقةً بل لعوبًا زانية. فأين مدينتي إذن؟ أين موطئ القلب، ومرتع الأحلام، والاستتار في زقاق حجريٍّ عابقٍ بالحميميَّة، لنسترق القبل أنا وامرأةٌ مجهولة الهويَّة لدغتها شهوةٌ مسمَّمةٌ بحبٍّ عاجل؟

موسيقى أشدُّ وأثقل لتسحقني في هذه الشقَّة، والموسيقى تفشل في طرد أصداء الذين رحلوا، أصداء جدعون وجدَّتي لأبي روت وأمِّي وأبي.

هنا وقع علينا نبأ جدعون الدامي. هنا ناحت جدَّتي روت، وانكسر أبي، وسقطت أمِّي في الهجران.

[انقضَّت على أبيه كلبؤة، ولطمته وشتمته:

- أنت السبب! لقد قتلتَ طفلي... قتلتَ جدعوني بحروبكَ ومجدكَ العسكريّ، وخلَّفتَ لي هذا الزومبي.

لم يُجبها أبوه. كجلمود ملح كان منتصبًا في صالة الشقَّة، يتلقَّى اللطمات والجراحات بصمتٍ مهيب. وأمَّا هو، هو الزومبي كما أطلقتْ عليه أمُّه، العائد من حربه الأخيرة في غزَّة مصدومًا خاويًا، فقد كان غارقًا في الكنبة، في

قعر أنفاسه الثقيلة، ليختلط ندب أمّه وعويلها بخفقان قلبه المتسارع والصاخب. ثم غاب كما لم يغب يوماً].

جدعون، يا أخي، هل يشبهك حقًّا ذلك الأور الذي باغتني به أيالا؟ ربَّما. وربَّما أرغب أنا الآن بلعب لعبة جديدة، بعد أن أنكرتُ على رؤوس الأشهاد صورة بطاقة هويّتي المُنتَحَلة من قِبَل شخصٍ مجهول الهويّة ادَّعى أنَّه أنا. ادَّعى أنَّه ابن نيتسان وليطال. فلماذا أنكرتُ صلتي بهويّتي؟ لماذا انفجرتُ بوجه تلك الفتاة الفاتنة وطردتها من اختلالاتي وحماقاتي؟

كانت قد همست لي طفلة القبو، التي أدعو ربَّ تلّ أبيب وأنحائها بعدم لحاقها بي إلى هنا، همست بأنّها تريد أن تلعب لعبة الأفاتار. بلى، فهل أنا أفاتار أور الآخر أم هو أفاتاري؟ مَنْ مِنَّا نَسَخَ الآخر وتجسَّد فيه؟ ثم لماذا لم أؤكِّد صلتي بهويّتي المزوّرة؟ لماذا لم أحتجَّ وأستنكر انتحال أحدهم لشخصيّتي منذ أن فقدتُ هويّتي داخل معطف أخي جدعون الجلديّ، بعد أن باعته دوريت على حين غفلة في سوق العاديّات في يافا؟

كان يتوجَّب عليَّ حين استخرجتُ بطاقة هويّة جديدة قبل ثلاثة أعوام أن أبلغ الشرطة وكلَّ المعنيّين بالهويّات بأنّني أضعتُ هويّتي. اللعنة! أيّ مأزقٍ هذا؟! فقبل عدّة شهور، أثارت قضيّة احتجاز أحد الإسرائيليّين في اليونان أزمةً دبلوماسيّةً بين البلدَيْن. حيث اتَّهمت السلطات اليونانيّة رجلاً إسرائيليًّا كان يقضي شهر عسله برفقة زوجته بتهمة الإتجار بالمخدّرات وتبييض الأموال. ورغم ادّعائه البراءة والنزاهة

والمصداقيَّة مع زوجته البهيَّة في شهر العسل الذي بات حنظلاً، إلاَّ أنَّه سُجِنَ وأُذِلَّ لبضعة أيَّام، إلى أن اقتنعت السلطات هناك بادِّعائه القاضي بأنَّه ليس هو المجرم الذي يبحثون عنه، بل ثمَّة إسرائيلي آخر كان قد انتحل هويَّة ذلك التعس، من دون أن يعلم أنَّه قد قضى على آماله هو وزوجته بشهر عسلٍ شهيّ.

هذا ما قد يحدث لي أنا. ربَّما قد حدث، ولكن بلا شهر عسل. ربَّما وقعتُ ضحيَّة انتحالٍ واحتيالٍ على يد أحد رجال الجريمة المنظَّمة. ويحيى! سأُسجن. سأُفضح وأُجنُّ أكثر إذا ما وقعتُ في مأزقٍ كهذا. فكيف أنكرتُ صلتي بالهويَّة وأنا الإنسان الذي نشأ وترعرع على احترام القانون حتى صرتُ رجلَ قانون؟ بلى، محامٍ ولكن من دون مكتبٍ ومدَّعٍ ومدَّعى عليه وشاهدٍ وقضيَّةٍ ومحكمةٍ وحُكمٍ وقاضٍ. أجل، لقد فشلتُ عن سابق إصرارٍ وترصُّدٍ بممارسة المحاماة، وقتُ بتخييب آمال أبي وأمّي. لم تكن البوست تراوما هي السبب فحسب، وإنَّما الانتقام ربَّما، أو الإسهام أكثر في خيبتهما معًا، خيبة أبي الذي لم يُوفَّق كثيرًا باحتضاني كما كان يحتضن جدعون، وخيبة أمّي. أمّي! يا لتلك اللحظة المهووسة بالوهم والحقيقة وأنين الشهوة التي اخترقت أذنيّ، حين هرعتُ إليها زافًّا نبأ قبول طلب توظيفي في شركة محاماة كبيرة. صعدتُ إليها محاميًا ثم هويتُ منها مصدومًا أكثر من قبل، من دون أن أتأكَّد حتى هذه اللحظة المكثَّفة بالذكريات في تلّ أبيب إذا ما كانت هي المتمدِّدة أسفل مودي الكلب أم لا.

أفاتار.

مارشميلو.

موسيقى صاخبةٌ وأمطارٌ وأنين ذكريات و...

[لمحها ساعة الفجر. عتمةٌ شفيفةٌ لفَّتها وهي تحدِّق ناحية حيّ العجميّ وبحر يافا، خلال وقوفها في الشرفة الزجاجيَّة. فرك عينَيه ليتأكَّد من أنَّها هي لا سواها. دنا منها بحذر، ووقف على بُعد خطوتَين. فهمست قائلة بالعربيَّة:

- هل اقتنعتَ أخيرًا بالأفاتار؟

ارتدَّ هلَعًا إلى الوراء، بعد أن ألقت في وجهه فحيح همسها. إنَّها هي ذاتها، طفلة القبو التي أعلنت بقهقهةٍ ساخرةٍ فشله بالهروب منها، ونجاحها باللحاق به إلى هنا:

- أنت أفاتار أحمق. هل تعلم لماذا؟!

عجز عن التفوُّه. تعثَّرت الكلمات في حلقه، محشورةً بغصَّات خوفه. سعل بشدَّة. كاد يتقيَّأ. اختنق بكلماته وتهاوى على أرض الشرفة، لتُجهِز عليه هي:

- أنت أحمق لأنَّك لم تنجح بالهروب والتخلُّص منِّي، فأنا لا أُقيم في القبو... أنا أُقيم فيك].

***

- لحظاتٌ وتكون الطبيبة معك... تفضَّل سيِّد شابيرا.

كم يخنقني بلهجته مُصطنعة اللطف والرقَّة. عومر هذا النحيل ككائنٍ طفيليّ، يُحيطني بمودَّة وحرارة لا تشذَّان عن مواصفات ومقاييس موظَّف استقبالٍ أكرهه لأنَّه

يبيعني هذه المشاعر نكدمات. أكرهه كما أكره عاهرةً تبيع جسدها سلعة شبقٍ رديئة الصنع.

أجلس في قاعة الانتظار. أحمد موسيقى Heavy metal وأسعى للاسترخاء في أجواء العيادة العطرة، والخالية إلاَّ منِّي ومن هذا الكائن الملاميِّ عومر. أشرع بمراجعة ما كتبته في دفتري بالأمس. أتفاجأ مِنِ أنَّني لم أكتب سوى خرابيش. أُقرِّب الدفتر من عينيَ لأدقِّق أكثر بالكلمات المكتوبة. أفشل في فكِّ ألغازها. ما هذا؟! ينتابني شعور خيبةٍ مرتجفةٍ بعد أن لاحظت بجهدٍ جهيدٍ أنَّ الكلمات عبارةٌ عن مزيجٍ مسخٍ للحروف العبريَّة والعربيَّة، ملتصقةٍ ببعضها البعض، من دون أن أنجح بفضِّ الاشتباك فيما بينهما حتى أخرج بشيءٍ من معانيها. لربَّما بالغتُ بالأمس بتدخين الماريجوانا. أكاد أمزِّق الصفحة، ثم أتراجع عن مسعاي هذا. فلأدعها مكانها، ماذا سأخسر؟ لا شيء، فالخاسر لن تزيده خسارةٌ أخرى سوى المزيد من الخسائر. يا للحكمة!

يجذبني عومر بصوته الذي لطالما بالغ في إضفاء الرقَّة على نبرته:

- الطبيبة بانتظارك. تفضَّل.

عليكَ اللعنة، أقول له في سرِّي، وألوك ابتسامته المصطنعة وأقذفها في وجهه، ثم أدلف من باب هداس التي تسألني:

- كيف أنت في هذه الظهيرة الماطرة؟

أُجيب انشراحها بحيادٍ وأنا أجلس قبالتها، بعد أن

خلعتُ معطفي المطريّ:

- يبدو أنَّ سماء تلِّ أبيب قد قرَّرت استقبال الربيع في حديقة الشتاء.

- مجازٌ رائع.

- بل أنتِ الرائعة.

تنحنح بحرج، لتؤكِّد على هيبة جلسة العلاج النفسيّ:

- حسنًا... هل تشعر بتحسُّن بعد عودتكَ للسكن في تلِّ أبيب؟

- عدتُ منذ أيَّامٍ قليلة... من المبكِّر الحكم على عودتي بالنجاح أو الفشل.

- معك حقّ... أنتَ بحاجةٍ لبعض الوقت من أجل التأقلم والبدء من جديد.

- لا يوجد جديدٌ أبدأ منه.

ترمقني بحيادٍ للحظات، أعتقد أنَّها تخفي بها حاجتها إلى صفعي بقسوة، ثم تقول:

- الجديد هو ما نصنعه نحن يا أور. ولكن ثمَّة فرقٌ بين أن نصنعه من القديم أو من الظروف والواقع المتجدِّد.

لا أُدرك مقاصدها، ما يدعوني إلى عدم التعقيب. تُردف مُكْمِلة:

- على أيَّة حالٍ دعنا ندخل في صُلب الجلسة، على أن نتعامل معها أنتَ كجلسةٍ استفساريَّة، لا أقلَّ ولا أكثر.

- وما طبيعة الاستفسارات؟

- عن بعض الجوانب والملامح من طفولتك ومراهقتك، قد يؤدّي تسليط الضوء عليها إلى فهم استعصاء ومقاومة أعراض البوست تراوما لأنماط العلاج النفسيّ. والآن قل لي، هل تعرّضتَ بعيدًا عن الصدمات التي ذكرتها لي في السابق إلى أيّ شكلٍ من أشكال الإقصاء... النبذ... اللفظ... الصدّ، من جانب أحدٍ من أسرتك أو محيطك الاجتماعيّ؟

أكاد أبصق في وجهها سؤالها المغلّف بروتينها المقيت، أو أنقضّ بضراوة كلبٍ برّيّ مفترسًا أذنها الشهيّة، فأقضمها وأقضم إحساسي باستخفافها بتناول سيرتي المصدومة والملعونة. أجيبها بتهكّمٍ خفيف:

- بحسب علمي، أنا أنتمي إلى شعبٍ لطالما عانى من النبذ. ألسنا شعب المنفى والشتات وأقسى أشكال المنبوذيّة؟

تعقّب بضيق:

- دعنا نركّز على حالتك الخاصّة.

- أن أصبح عامًّا يعني أنّني كنت خاصًّا أمس. أن يصبح جرحي الخاص جرح الأمّة ووجعها ونفرها. جرحي الصغير هو جرح الأمّة الكبير.

- شاعريٌّ أنت في هذا المطر.

تُعلّق بتململٍ على شاعريّتي، ثم تردف قائلة:

- حدّد الإجابة أور، أرجوك.

- إذا ما أجبتكِ بأنّني كنت قد تعرّضتُ بالفعل للنبذ الشديد، فماذا يعني هذا؟

- يعني أجواء خصبةً لترعرع أعراض انفصام الشخصيّة.

- إذن كلُّ الشعب اليهوديّ يعاني انفصام الشخصيّة.

- هل تشعر بأنّك تُعاني؟... أقصد هل تشعر بأنّك آخر... شخصٌ آخر تمارس ممارساتٍ لم تمارسها من قبل؟

تلوح في رأسي ناصعةً صورة هويّتي المنتحلة. أكاد أُجيبها بأنّني أشعر بأورٍ شايبرا آخر، ولكنّني لا أعرف عنه شيئًا. هل هو حيٌّ أم ميت؟ هل مَرَّ بجانبي قبل قليلٍ على رصيف الشارع المؤدّي إلى عيادتها أم لا؟ ثم أقول بخفوتٍ مرير:

- بلى... أشعر بأنّني أحدٌ آخر. أنا ضابطٌ في لواء المظليّين تارّة، وشخصٌ معطوبٌ تارّةً أخرى. أشكازي ومحامٍ فاشل. أحمق يسعى إلى تعلُّم اللغة العربيّة من لدن معلّمةٍ عربيّة تدسّ سُمَّ قوميّتها في عسل لغتها. عبري يحلم بالعربيّة. ألا يكفيكِ هذا كلّه؟

تتنهّد بهدوء، ثم تسألني:

- ألن تحدّد نقطة التعيين الحاسمة لكي ترتاح يا أور؟

- ثمّة نقطةٌ جديدةٌ ظهرت في الآونة الأخيرة، قد تكون هي علّة كلّ شيءٍ معلولٍ بي.

- حقًّا؟! هل دوّنتها؟

- ليس بعد. عندما أتمكّن منها تمامًا سأطلعك عليها. والآن، ألا ترغبين بالإصغاء لما دوّنته بالآونة الأخيرة؟

- بكلّ سرور... تفضّل.

[كانت طبيبته النفسيَّة جالسةً في حجره داخل العيادة السماويَّة الرحبة. كان نهدها الأيسر مكشوفًا، وكان يمصُّ حلمته، من دون أدنى إثارة أو تمنُّع أو أيِّ تفاعلٍ من قِبَلها مع لسانه الحارق، الذي فشل في جذب شهوتها إليه، إذ كانت تحدِّق باهتمامٍ شديدٍ ناحية السبورة البيضاء المركونة بجانب مكتبها، حيث كانت طفلة القبو ترسم بدقَّةٍ متناهيةٍ بطاقة هويَّته المنتحَلَة، من دون أن تلتفت ناحيتهما. وما إن أنهت تحديد ملامح الهويَّة حتى همست بصوتٍ لا يمتُّ إليها بصلة، إذ كان صوتًا ذكوريًّا يُشبه صوته هو أثناء تأمُّلها للوحة:

- لا تعجبني البتَّة معادلة الضحيَّة الجلاَّد، وتحوُّل اليهوديِّ الناجي من المحرقة من ضحيَّةٍ إلى جلاَّد. أو مثلاً وصم الفلسطينيِّ بأنَّه ضحيَّة الضحيَّة. الفلسطيني ليس ضحيَّة، وأنا لستُ جلاَّدًا. القضيَّة أبسط ممَّا تتوقَّع. اليهودي يرى في الفلسطينيِّ ذاته، يرى الضحيَّة. يرى تاريخ الاضطهاد والمنبوذيَّة الذي مورس بحقِّه. يرى الانكسار. وعندما يخشى من الفلسطينيِّ فإنَّه بالحقيقة يخشى من نفسه، ولهذا فهو يسعى نحو التخلُّص من مرآته، من الفلسطينيِّ.

وما إن أنهت خطبتها بصوتٍ يشبه صوت أور، حتى صفَّقت لها الطبيبة بحرارةٍ واهتزازٍ شديدٍ في حجر أور، الذي امتعض مسترجعًا لسانه من حلمة نهدها، قائلاً بضيق:

- ما بكِ أيالا؟! لماذا تصرِّين على وجود أور شابيرا آخر؟ ألا يكفيكِ لساني أنا؟

انتفضت الطبيبة قافزةً بفزعٍ من حجره، مُعيدةً نهدها إلى سابق هيبته الطبيّة، ثم شتمته باهتياج:

- من أيالا يا بن الزانية؟!].

***

لا يسعفني مطر تلّ أبيب بالاستمتاع متسكّعًا بشوارعها في هذه العصيرة العاصفة، فأضطرّ لأخذ سيّارة أجرة إلى جنوب تلّ أبيب، حيث تنتظرني مريم في يافا لكي تعطيني درسًا عربيًا جديدًا.

ينتبه السائق إلى أنّني شرعتُ بالانفصال عنه، وعن أغنية عوم آدم الشرقيّة الإيقاع المنبعثة من مذياع سيّارته، باعتمادي على موسيقى فرقة Metalica الصاخبة، فيدرك عدم رغبتي في خوضِ حديثٍ يلوك قصص تلّ أبيب وأزمة سيرها الخانقة.

توفّر لي الموسيقى فقاعة وقتٍ مقداره نصف ساعة على الأكثر، تنفجر إثرها بلقاء مريم. فقاعةٌ تحلّق بي من سماء تلّ أبيب إلى سماء بولندا، سماء معسكر الإبادة الجماعيّة أوشفيتز. ولكن لحظة! هل لرقعة جغرافيّة احتفت بالدماء والرماد مثل أوشفيتز سماء؟ هذه هي النتيجة التي عدت بها من هناك، عندما التحقتُ برفقة زملائي في المدرسة الثانويّة بالزيارة السنويّة التي تنظّمها وزارة التعليم للطلبة إلى مخيّمَي الإبادة أوشفيتز وبيركناو، لكي نتفقّد عن قربٍ ما عانى منه أجدادنا في تلك المحرقة اللئيمة والخالية من معالم الإنسانيّة. حينذاك - ولضمير المتكلّم الحقّ بالبوح بعيدًا عن ضمير الغائب - شعرتُ للمرّة الأولى في حياتي بالذعر. ليس ذعري

أنا، إذ تقمَّصت ذعر غيري من اليهود، ذعر جدَّتي سوزانا تحديدًا. هناك استحلتُ أفاتار للمرَّة الأولى كما أرى الأمر اليوم. كنتُ أفاتار جدَّتي. شعرتُ بألم الوشم على ساعدي، وشم رقم الموت المتسلسل، وشممتُ رائحة الموت. هناك شعرتُ بالجوع والبرد، وتلعثمتُ في لفظ تلك العبارة التي تُكلِّل قوس بوَّابة المعسكر: «العمل يُحرِّركم». لم يقل لي أحدٌ حين قرأتها إنَّ من اقترح كتابة هذه العبارة هم اليهود أنفسهم، حاخامات اليهود الذين أقنعوا التعساء من أمثال جدَّتي وذويها الضحايا بأنَّ عمل اليهود واجتهادهم بالكدِّ داخل ذلك المخيَّم الجحيميّ سيسهم بتحريرهم من الاحتجاز الطويل والموت المتربِّص بهم، لا بل قد يؤدِّي إلى صعودهم إلى أرض إسرائيل مهاجرين إليها.

اصنعوا أيُّها اليهود البؤساء أحذية جنود وضبَّاط الإس إس. حيكوا معاطف ضبَّاط الغيستابو. وسدُّوا أنوفكم وآذانكم وأغلقوا عيونكم أثناء العمل وصناعة مصائركم التي ستُحرق بعد قليل. كيف عدتَ من أوشفيتز؟ عدتَ مصدومًا لأرتمي بأحضان جدَّتَيَّ سوزانا وروت. قبَّلتهما بلهفة كما لم أُقبِّلهما من قبل. تشبَّثتُ بهما، وحدَّقتُ بوشمَيِّ الموت على ساعديهما، ثم وقفتُ في صالة الشقَّة وهتفتُ بأبي قائلاً:

«لن يحدث هذا مرَّةً أخرى. لن نُحرق مرَّةً أخرى. حسنًا يا أبي، سأنضمُّ إلى لواء النخبة، إلى المظلِّيين، وفاءً لتاريخ الضحايا».

ولكن لِمَ لا تغادرني الرائحة؟ لماذا كنت أفاتارًا شديد

الإخلاص لجدَّتي سوزانا؟ شواء... كلُّ ما حولي رائحة شواء. في طفولتي. في حرب لبنان. بين فخذَي شير. في الشجاعيَّة في غزَّة. بين نهدَي دوريت. شواء، وما الشواء إلاَّ في داخلي أنا الذي أحترق الآن.

يبلغ بي السائق برَّ الأمان. أشكره وأدفع له الأجرة. أخرج من سيَّارته إلى سماء يافا، التي أخذ الغيم ينقشع تدريجيًا منها كما لو أنَّه انزعج من زيارتي فآثر الرحيل.

أسير في الأزقَّة، أزقَّة حيّ العجميّ المعلَّق على شاطئ المتوسِّط، ولن أنكر رغم أنفي هذه الحميميَّة المنبعثة من عتقه وأصالته. بلى، أحبّ الحجارة الطبيعيَّة، وأكره الحديد والإسمنت والصدأ. أتوغَّل في الزقاق. أنعطف يمينًا. أندفع إلى الأمام، ثم أنعطف يسارًا. أتوغَّل أكثر ثم أصل المركز التعليميّ، مسرح دروس اللغة العربيَّة.

أدخل. قاعة التدريس هادئة، يتخلَّلها صوت موسيقى هي موسيقى أحاديَّة العود الشرقيّ، تصدح بهدوءٍ في أرجاء القاعة التي مسَّها دفءٌ طرد منها هذا البرد الربيعيّ. كلُّ الأشياء معرَّضةٌ للإصابة بالفصام، بما فيها البرد الربيعي الذي تظنّه شتائيًا، وحتى الحيوانات والنباتات. إذ كنت قد تعثَّرت بخبر غريب ذات عزلة تجوَّلتُ فيها إلكترونيًا، مفاده أنَّ آخر الأبحاث العلميَّة تُشير إلى إصابة بعض أنواع النباتات بالفصام، ما أثار سخريتي عندما تخيَّلتُ شجرة لوز تطرح صبرًا، أو مانجو.

أختار طاولةً مطلَّةً على شاطئ العجميّ. يبدو أنَّ مريم لن تصل في موعدها المحدَّد، ما يؤدِّي إلى مراجعتي لتفاصيل لقائي الأخير العاصف مع تلك الفتاة التي

قسوتُ عليها بنزقي وغضبي. من أين حلَّت عليَّ أيالا يا إلهي؟ هل كان يتقصني جنونٌ آخر؟ ولكن لحظةً واحدة. كيف حصلتْ على صورة بطاقة الهويَّة المزوَّرة؟ اللعنة! نسيت. فلأُقلِّب في دفتري لعلِّي كنت قد دوَّنتُ فيه حلول أيالا الأخير عليّ.

[هبَّت واقفةً من جديدٍ قبالته، مردفةً بتأثُّرٍ شديدٍ انتابها قبيل طرده لها من بيته بكلِّ ما أوتي من جنونٍ المارشميلو:

- أذكر أيضًا أنَّ ناتان كان قد طلب من أور استبدال بطاقة هويَّته القديمة بأخرى جديدةٍ بلاستيكيَّةٍ ممغنطة.

سألها ببلاهة:

- ومن ناتان هذا؟

- إنَّه ناتان خودروفسكي، ضابط أمن كيبوتس مشمار هعيمق، وهو الذي زوَّدني بصورة بطاقة الهويَّة كما قلتُ لك.

- ولكن قولي لي كيف بحقِّ السماء؟ كيف يمنحك ضابط أمنٍ صورةً عن بطاقة هويَّة شخصٍ آخر، مخاطرًا بسمعته وخسارة وظيفته الأمنيَّة الحسَّاسة؟

انشرح صدرها عامرًا بأسارير المتهلِّلة، معترفةً بأنَّها كانت قد استغلَّت علاقة الصداقة التي نشأت بينها وبين ناتان أثناء إقامتها بالكيبوتس، إبَّان البعثة الآثاريَّة في العام الماضي، وذلك حين لجأت إليه بكلِّ ما أوتيت من كذبٍ واحتيال، بعد عدَّة أيَّامٍ من اختفاء أور الآخر وعجزها التامِّ عن العثور عليه. ادَّعت أنَّ هذا

الأخير قد أضاع بطاقة هويّته، وأنّ أمر استخراج بطاقة جديدة سيأخذ منه الكثير من الوقت والجهد في ظلّ قرب موعد مشاركته في بعثة آثاريّة جديدة، وأنّ ملف سيرته الذاتيّة الذي سيقدّمه من أجل الالتحاق بالبعثة تنقصه صورة عن بطاقة الهويّة، علمًا أنّ ناتان كان قد حفظ في حاسوبه البيانات الشخصيّة والثبوتيّة لجميع المشاركين الذين أقاموا في الكيبوتس كإجراء أمنيّ روتينيّ.

نهض أور عن الأريكة ووقف بجانبها، مدّعيًا الاهتمام العميق باعترافها إليه بكيفيّة العثور على صورة الهويّة، ما زادها حماسة فهتفت قائلة بفخر:

- وهنا مكمن الكذب، فأنا وانطلاقًا من كوني الصديقة المقرّبة لأور الآخر، فقد كلّفني باللجوء إلى كيبوتس مشمار هعيمق للمطالبة بصورة بطاقة الهويّة المحفوظة في أرشيف حاسوب صديقي ضابط الأمن ناتان خودروفسكي.

اختتمت اعترافها المرصّع بالكذب بالتهام القليل من المارشميلّو الذي زرعه أور في سمائها. أور الذي صفّق لها ولدهائها الشرقيّ، ومن ثم صفق باب بيته في وجهها].

أعتقد أنّني لو كنت مكان ضابط الأمن الذي احتالت عليه أيالا، لما كنت سأحيد عمّا قام بفعله هو عندما زوّدها عن طيب خاطر وصداقة بصورة بطاقة الهويّة. لا أعلم! ربّما. اللعنة! لست متأكّدًا الآن من أيّ شيء. خيال واقع. واقع خيال. أيالا؟! من أيالا؟! هل هي حقيقة بالفعل؟ ألا لعنة السماء عليّ لأنّني طردتها

من حياتي البائسة بكلّ ما أوتيتُ من غضبٍ وذعرٍ ومارشميلو. اللعنة! كيف غفلتُ - وأنا في معمعان المارشميلو اللعين، الذي أنكرتُ خلاله صلتي ببطاقة هويّتي المنتحلة - عن أن أطلب منها إرسال صورة البطاقة إلى هاتفي؟!

هي التي منحتني مواساةً صادقةً على مقتل أخي جدعون بعد أن ادعت أنّه يشبه أور الآخر، وأمّا أنا فلم أمنحها سوى النكران المباغت، النكران الذي نزل عليّ بأقسى صواعق الاختلال والجنون. لقد أنكرتُ صلتي بهويّتي، فأيّ حماقةٍ ارتكبت؟ بل أيّ حماقةٍ سأقدم عليها؟!

تقطع بانتعاشها تداعي خيباتي عليّ، وهي تعلّق معطفها المطري على الكرسي، ثم تجلس قبالتي معتذرةً عن تأخّرها، فأردّ عليها بهدوء:

- لا عليكِ، فالوقت بالنسبة لي حديدٌ صدئٌ لا ذهب.

يسترعيها هدوئي المكتئب، فتسألني:

- كيف وجدتَ العودة إلى تلّ أبيب من دير ياسين؟

هل تعبث بي مدّعيةً البراءة؟ أم هي بريئةٌ بالفعل بإلقائها اسم القرية العربيّة المنكوبة في وجهي التائه؟ أرمقها بقسوة، ثم أُجيب مدّعيًا المزيد من الهدوء بأنّ العودة ماطرة من جفعات شاؤول. تنتبه لردّي الحازم القاضي بحسم مسألة اسم القرية، ثم تسعى إلى تجنّب نقاشٍ قد يشي بمشاجرةٍ سيّئةٍ لكلينا، لتقول وهي تتنشل

من حقيبتها ملفًّا ورقيًّا ضخمًا:

- لقد أرهقني مشروع رسالة الماستر. هل تعلم أنّني أصبحتُ كائنًا أرشيفيًّا؟

- وكيف هذا؟

- أنا أقضي معظم وقتي بقراءة ومراجعة بعض المجلاّت والوثائق القديمة المحفوظة في أرشيف الجامعة العبريَّة، وأرشيف متحف تلّ أبيب.

- وما حاجتكِ إلى القيام بذلك؟

- أبحث عن معلوماتٍ متعلّقة بالناجين من المحرقة، من الذين انخرطوا بالعصابات الصهيونيَّة إبان نكبة عام 1948.

أُعقِب بضيق:

- تقصدين قوَّات الدفاع الصهيونيَّة الهاغاناه، إبَّان حرب الاستقلال.

تردُّ مُسْتَفَزَّة:

- بإمكانكَ أن تقصد ما تشاء. دعنا الآن من هذا، فوقتي محدودٌ وأنا مشغولةٌ جدًّا.

ثم تقلع عن الحديث منشغلةً بهاتفها للحظات، قبل أن تردف قائلة:

- أرسلتُ إليكَ الآن على الواتسآب رابطَيْن لمقالتَيْن، الأولى بالعبريَّة والثانية ترجمتها العربيَّة.

أقاطعها بحنق:

- ألم تسأمي بعد من لعبة المقارنات المجحفة هذه؟

تتنهَّد بحرارة، ثم تُفيدني بأنَّها لا تطلب مِنِّي المقارنة بين المقالتَيْن من حيث اللغة، بل عبر كآبة انطباعي بعد أن أقرأ المقالة باللغتَيْن، فأسألها:

- وما حاجتكِ إلى انطباعي؟

- ألم أُعلِمكَ من قبل بأنَّني أُعِدُّ بحثًا عن دور الناجين من المحرقة في نكبة 1948؟

- كلاَّ. ولكن ما علاقتي أنا بهذا الأمر؟

- أنت نشأتَ كما قلتَ لي سابقًا في بيئة أجدادكَ الناجين من المحرقة، كما أنَّك كنت ضابطًا في الجيش، ومن هنا فإنَّني أريد أن أعرف انطباعكَ عن هذه المقالة التي تتحدَّث عن جريمة ارتكبتها مجموعةٌ من الجنود الناجين من المحرقة في صحراء النقب بعد النكبة بعام. وهذا ليس افتراءً مِنِّي كما ستعتقد أنت، وإنَّما هي معلوماتٌ جرى الكشف عنها مؤخَّرًا من أرشيفكم أنتم.

أقاطعها بحدَّة:

- مريم هل تكرهينني؟

تتخبَّط في مقعدها من شدَّة مباغتتي لها بهذا السؤال، لتردَّه لي بعد لحظاتٍ من الصمت:

- وهل تكرهني أنت؟

أسأل نفسي إنْ كنتُ أكرهها. بلى، أكرهها... كلاَّ، لا أكرهها. لا أعلم. أنا لا أحبُّها ولا أكرهها. أجيب بتهكُّم:

- يُقال إنَّه في الحياة الآخرة ليس ثمَّة حبٌّ أو كراهيةٌ

أو ذاكرة. ثمَّة عقلٌ سامٍ فقط.

نتساءل بحسن فطنتها وبلاغتها العربيَّة:

- أليس هذا هو ذاته العقل السامي الذي قضي على أجدادك في المحرقة النازيَّة؟

- كلاًّ. ما أقصده عقلٌ آخر... عقلٌ بلا ذاكرة.

- إذن علينا أن نشطب الذاكرة لأنَّها سبب الكراهية. أهذا ما تقصده؟

- الذاكرة هويَّة، والهويَّة قوميَّة، والقوميَّة تمنح الشرعيَّة.

- بل تمنحكَ شرعيَّة قتلي وإقصائي من قوميَّتك.

- أرأيتِ؟ أنتِ تكرهينني! أنتِ حاقدة!

ترميني بنظراتٍ ناريَّة، ثم تقول بغضب:

- أنا لست حاقدة، ولا أكرهك ولا أحبُّك.

- أنا مجرَّد شيءٍ إذن، ومن السهل إزالة الأشياء.

- تأمَّل نفسك بالمرآة، ربَّما تجد الإجابة. إلى اللقاء!

توضِّب أوراقها داخل حقيبتها على عَجَل، ثم تقف وترتدي معطفها بعصبيَّة، وتمضي مخلِّفةً وراءها تساؤلاتي وتهكُّمي القاسي عليها. يبدو أنَّها لا تحبُّ المارشميلُّو مثل أيالا.

***

إلا لجرٍ في غزَّة. لا لجر للشجاعيَّة وإنَّما الجحيم القاني، الذي تأجَّج رصاصًا مصبوبًا من السماء والبرِّ والبحر،

ومنه هو الذي كان هناك برفقة مجموعة النخبة التابعة للواء المظلّيين، داخل بيتٍ هجره أهله فارّين من أهوال القصف.

ثمّة كائن تعيق توغُّلهم. كان قائد المجموعة يشكُّ بتواجد ثلّةٍ من المخرِّبين داخل البيت المطلِّ على زقاقٍ آخر يوصلُ إلى الهدف الذي ألقي على عاتق المجموعة تصفيته. تعرضوا لوابلٍ كثيفٍ من النيران، فاعتقد القائد بغريزته العسكريّة الفذّة أنّ مصدر الإطلاق من ذاك البيت. تفكّر بالأمر، تأمّل في شؤون حربه الخاطفة، ثم أصدرِ الأمر لغرفة العمليّات المشتركة بقصف البيت فدوى انفجارٌ هائل. قذائف خارقةٌ حارقةٌ أحالت البيت ركامًا ودمارًا. أعطى القائد إشارة التوغّل واقتحام ما تبقّى من البيت تحت غطاءٍ ناريٍّ كثيفٍ. اقتحم هو البيت برفقة رفاقه الجنود. خفتَ الدويّ وتبدّد، لتحلَّ مكانه صرخاتٌ وحشرجاتٌ وهمهماتٌ مجروحةٌ مختنقة. إلى أن لمح إثر انقشاع الغبار ومعمعان الاقتحام رجلاً أشعث الهيئة، يلمُّ في حضنه أشلاء آدميَّة. وقع أور في حيرةٍ من أمره وبزّته الحربيّة أثناء تأمُّله المشهد الدامي. ثم شعر بكائنٍ ما يتعربش عليه إلى أن تسيَّد رأسه، فإذا هي طفلة القبو توضح له قائلة:

- إنّهنَّ بنات هذا الرجلِ المكلوم، بناته اللواتي قُتلن ممزَّقاتٍ بقذائفكم. انظرا حدّق! ألا تراني مُعلَّقة الأشلاء على حائط البيت؟! انظر... ألا ترى جدتك سوزانا وهي طفلةً تعزف أجمل المقطوعات الموسيقيَّة في أوركسترا فرانكفورت؟!!.

ألوذ بالشفَّة بعد اختناق مريم منّي واختناقي منها، ما تسبَّب بعدم ذهابي لزيارة أبي الغارق في لجَّة العدم في مشفى إيخلوف.

مريم الدقيقة جدًّا بالمقارنات اللغويَّة المترجَمَة، كنت قد سألتها يومًا في إحدى الحصص التعليميَّة عن الترجمة العربيَّة الدقيقة لكلمة «إيفرور» العبريَّة، وأجزم بأنَّها أجابت بقصدٍ خبيثٍ عندما قالت:

- الترجمة شبه الدقيقة لهذه الكلمة هي كلمة تهوية. ولكنَّها تُطلَق على الأشياء والجمادات.

- ألا تصلح للاستخدام الآدميّ؟

- تصلح إذا كنَّا نقصد تشييء الإنسان الذي نلصق به هذه الكلمة. وأمَّا الأدقُّ فهو استخدام كلمة «ريعنون»، أي انتعاش.

لم تكن مريم تعلم حينذاك أنَّني أُخضِعت لجلسات الإيفرور في جيش الدفاع بعد حرب لبنان في تمُّوز 2006. بلى، كان الجيش حريصًا على حالتي النفسيَّة، أنا وسواي من الجنود والضبَّاط من الذين ذاقوا ويلات الحرب وأهوالها. إيفرور من أجل ترخية الأعصاب، وانتزاع الراحة النفسيَّة من مخالب الصدمة، ومن براثن أيّ تأنيب ضميرٍ قد يستحوذ على قلب أيٍّ منَّا لمن الذين كنَّا هناك.

لم أكن أُدرك حينذاك أنَّ حفيد الناجين من المحرقة في داخلي هو من كان يدفعني بشجاعةٍ لخوض معارك الدفاع عن حقِّنا بالوجود في أرضٍ لنا. دولةٌ لا أعلم

إذا ما كانت نتاجًا للمحرقة أم هي المحرقة بحدّ ذاتها. بلى، كانت المحرقة وما زالت شريكة أيّامي منذ مائدة جدّتي سوزانا، وموجات الاكتئاب والضياع النفسيّ الخاصة بجدّتي روت، وحرص جدّي نير الدائم على تفحّص كمّيّة الكبرياء والعزّة، عزّة صهيون في دمه، وهو يستعرض أمامي بطولاته العسكريّة إبّان حرب الاستقلال. كلاًّ، وشم الموت ليس على سواعد أجدادي فحسب، فقد ورثته معنويًّا. الوشم يَشِم روحي. رقم الموت يرافقني أينما حللت.

الآن أدرك أنّني ورثتُ الأرقام والأسماء والصدمات والويلات كلّها. أنا؟! من أنا؟! أنا جدّي لأبي يوسف هندل، الذي صعد إلى أرض إسرائيل معطوبًا. أنا جدّي لأمي نير شاخت الذي استعاد مجد داود في حرب الاستقلال. أنا جدّتي روت، التي سكنها شبح جدّي يوسف، سكنها الموت. أنا جدّتي سوزانا، سوزي، عازفة الكمان البهيّة، التي تخلّت عن اسمها العبريّ الفاقع شوشنه لكي تنضم إلى أوركسترا فرانكفورت في مراهقتها الإبداعيّة، قُبيل الحرب العالميّة الثانية. أنا أبي نيتسان، ملك الحرب وملك الموت. أنا أمّي ليطال، المُهرة الجميلة التي أطفأها أبي بحروبه فاشتعلت في عيادتها. أنا أخي جدعون المكفّن بعلم الخلاص. أنا الإخلاص. أنا الخيانة. أنا الحطام، الهشيم، الدمار، فمن يلمني ويُعيدني إلى نفسي ويرحمني؟ وهل أنا مُقبل على مرض الفصام حقًّا؟ أنا الذي أجلس برفقة مريم لكي أتعلّم اللغة العربيّة، تلميذًا أشكازيًّا نجيبًا في الغداة، وفي العشيّة ضابطَ مظلّيّين سابقًا، معاقًا من معاقي جيش

الدفاع. أهي لعبة الأقنعة أم هو الفصام حقًّا؟ أأنا منفصم أم مفصوم؟ مفصوم عن واقع يعاني أشدَّ أطوار انفصام الشخصية. بلى، الواقع هو الانفصامي وليس أنا. واقعٌ يمارس كفاحًا عن الأسماء والأشياء والمنطق والطرقات والجبال والبلدات والمدن والقرى. جفعات شاؤول تارة، ودير ياسين تارةً أخرى. يافا تارة، ويافو تارةً أخرى. فتاةٌ عربيَّةٌ تدافع عن هويَّتها في وجهي، وتدرس علم الاجتماع في جامعة تلّ أبيب الصهيونية المرموقة، التي شُيِّدت فوق أنقاض قرية عربيَّةٍ أتحفتني مريم باسمها الموسيقيّ: الشيخ مونس. فما الذي يتوجَّب عليَّ فعله إذن، أنا الممدَّد الآن في شقَّة المحرقة هذه وسط تلّ أبيب، وانفصام شخصيَّة ربيعها الذي أحبَّ لعب دور الشتاء؟ أنسحب من تأمُّلي وسريري، في هذا الليل الذي يأبى الحلول عليَّ سديم نومٍ عميق. ساكن هذا الليل الذي يستحيل موسيقاي الخاصَّة، أمضي على إيقاعه نحو صالة الشقَّة الفسيحة. أقف في مركزها، أدور حول نفسي لتدور معي ذاكرتي المفعمة بأنفاس أهلي، ثم أتعثَّر وأتهاوى فوق السجَّادة الفارسيَّة التي لطالما تباهت واعتنت بها جدَّتي روت، مؤنِّبةً إيَّاي مرارًا لدوسي عليها بحذائي العسكريّ. أتحسَّس السجَّادة، أغرس أصابعي فيها. أستلقي على بطني، أدفن وجهي في نعومتها للحظات يمتنع فيها الأرق عن تحريري منه. أقف وأمضي نحو المطبخ. أتأمَّل محتوياته، الصحون، الملاعق، السكاكين، الشوك، الكؤوس. أفتح خزائنه، أعيد ترتيب محتوياتها، ثم أفتح البرَّاد لأتفقَّد مخلَّفات جولتي الشرائيَّة الأخيرة. أعثر على سَلَطة فواكه استوائيَّة

جاهزة، فأقضي عليها فوق الطاولة. أنتشل هاتفي من جيبي. أتذكّر أنّ مريم كانت قد أرسلت لي رابط مقالتها اللعينة. أقوم بتحميل المقالة مُرفقةً بترجمتها العربيّة في ملفٍّ خاصّ، وأعنونها «مقالة مريم». لا طاقة لي على قراءتها الآن، فأنا متعبٌ ومنتهكٌ مثل هذه السلطة التي التهمها الآن بشهيّة اصطناعيّة. أشرع بالتغلغل في الطرقات الافتراضيّة. أدخل مواقع إلكترونيّةً وأغادر أخرى، إلى أن أتذكّر فجأةً أيالا، تلك الفتاة التي ألقت عليَّ اسمي ومضت، بل أنا من طردتها من جنوني وبيتي في جفعات شاؤول. أهرع نحو محرّك البحث الإلهيّ جوجل، وأكتب عنوانًا محدّدًا هو عنوان معهد أولبرايت. تتدلّى بيانات المعهد المختصّ بالدراسات والأبحاث التاريخيّة والآثاريّة، من بينها عنوان مقرّه الرئيسيّ الواقع في أورشليم، في شارع صلاح الدين تحديدًا.

أتفحّص بعض التفاصيل الواردة في صفحة المعهد الرئيسيّة. ثمّة فصلٌ دراسيّ جديدٌ مخصّصٌ لهُواة الآثار والترميم، سيتمّ فتح باب الالتحاق به بعيد مواسم الأعياد، أي في أواخر نيسان. أتذكّر أنّ أيالا كانت قد أعلمتني بمشروعٍ تنقيبيّ في تلّ مجدو، شاركت به في العام المنصرم. أمضي نحو أرشيف المعهد لأعثر على تفاصيل ذلك المشروع، المتعلّق بكشف معالم موقع المعسكر الخاصّ بالفيلق الرومانيّ السادس، والذي تمّ استئناف العمل به في تموز الماضي بعد تعليقه لمدّة شهرين إثر حرب أيّار الأخيرة. أبحث عن مادّةٍ توثيقيّة تصويريّةٍ للمشروع، فلا أعثر إلاّ على بعض الصور التي لا

تزوّدني بأيّة تفاصيل أو ملامح لأور الآخر.

أتأفّف بضيق. أيُّ هراءٍ عبثيّ أمارسه الآن؟! ما الذي أريده؟!

أخرج من الموقع وألقي هاتفي بجانب صحن السلطة. ثم تلوح لي أيالا ومشهد طردي لها من حياتي. أبتسم بأسى، لا بل ابتسم بسخريةٍ وأنا أُشبّه مشهد طردها بكشّ دجاجةٍ سمينة مذعورة. ثم أقلع عن الابتسام لأحطّ في موضع شكّ جبّار، إذ أعود إلى مراودة نفسي المختلّة بالسؤال العاتي: هل أيالا حقيقيّة؟ هل قابلتها حقًّا في جفعات شاؤول؟ هل ألقت عليَّ هويّتي الضائعة المنتحَلة؟ قد تكون وهمًا، لمَ لا؟ وهمٌ مثل طعم هذه السَّلَطَة، التي فشلت بإقناعي بأنّها سَلَطَةٌ استوائيّة طازجة.

كلاَّ، لو كانت أيالا وهمًا لما دخلت نفسي إلى موقع ذلك المعهد منذ قليل. ما لي أنا ولمعهد آثارٍ وتاريخ؟!

كلاَّ، لحظة! لقد قالت لي شيئًا آخر قد يؤكّد حقيقة وجودها. لقد ذكرت أنَّ أور الآخر كان يعمل قبل التطوّع في موسم التنقيب في شركةٍ سياحيّة أورشليميّة. بلى شركة. ما اسمها؟ أعنّي يا ربَّ الأسماء التائهة أعنّي. شركة إيليا؟ كلاَّ! شركة مرمر؟ كلاَّ كلاَّ. شركة ميري لاند؟ كلاَّ بل موريا! أجل موريا! مباركٌ أنتَ يا إلهي ملك إسرائيل، ملك العالم الذي استعاد لي الاسم من متاهة الأسماء الضائعة.

شركة موريا للسياحة. فلأجرّب حظّي، بل هبلي المتّقد عبثًا الآن. أعود إلى جوجل تبارك اسمه وأبحث

عن الشركة، فأجدها. أنتقل إلى صفحتها الإلكترونيَّة الإنجليزيَّة. أهرع نحو تفاصيلها بفضولٍ هائل:

[شركة موريا للسياحة والسفر. تأسَّست في عام 1968 لصاحبها شكيب القصابي، وهي من أعرق الشركات السياحيَّة في القدس الشرقيَّة. تُقدِّم خدماتها وطاقمها السياحيّ المميَّز للسيَّاح من كافَّة أنحاء البلاد والعالم].

ثم أبحث عن عنوان الشركة، فأجد أنَّ لها أكثر من فرعٍ أهمُّها فرعها الرئيسيّ التاريخي في البلدة القديمة، في حارة النصارى تحديدًا، بالإضافة إلى رقم هاتف وفاكس الإدارة العامَّة. أتعمَّق بتأمُّلي في موقع الشركة الإلكترونيّ، كما لو أنَّني سأعثر الآن صدفةً على أور الآخر. ولكن، لحظةً واحدة! لحظةً واحدةً فقط! إذ إنَّه من الدقَّة الاعتقاد بأنَّ اسم الشركة لا يوحي بأصلها القوميّ، ولكنَّ اسم صاحبها عربيٌّ تمامًا، أو على الأقلّ ليس عبريًّا. شكيب؟! لا يوجد اسمٌ كهذا بالعبريَّة. إنَّه اسمٌ عربيّ. وأنا، وبحكم إتقاني للعربيَّة، فإنَّني سأُحيل الاسم إلى أصوله العربيَّة. حتى إنَّ عنوان الشركة ليس في غرب أورشليم، حيث الأحياء والأسواق اليهوديَّة، بل في حارة النصارى الواقعة في البلدة القديمة، بالإضافة إلى فرعها الآخر الواقع حيث شرق أورشليم العربيّ، شارع رأس العامود، وهذا ما يؤكِّد حتمًا الطامة الكبرى القاضية بأنَّ أيالا ليست إلاَّ مجرَّد وهمٍ يمثِّل اعتداءً صارخًا على البوست تراوما خاصَّتي، ليُحيلها إلى مرض انفصام الشخصيَّة. هنيئًا لي إذن، إذ ما الذي يفعله أور شابيرا أشكازي تمامًا في شركة سياحةٍ عربيَّة

خالصة داخل أورشليم الشرقيَّة؟

حسنًا، فلأمعن بهرائي هذا. لأدَّعي الافتراض التالي، حيث سأفترض الآن أمام محن سَلَطة الفواكه الفارغ هذا أنَّ أور شابيرا الآخر كان قد ادَّعى عمله دليلاً سياحيًّا في شركة السياحة هذه لكي يخفي نوايا مهنته الحقيقيَّة، ألا وهي أنَّه تاجر آثار، أي لصٌّ حفَّار قبور ومواقع آثاريَّة. كان قد استغلَّ فرصة عثوره على هويَّتي، فقام بانتحال شخصيَّتي ليضلِّل كلَّ من يسعى وراء اقتفاء آثاره. لعينٌ أنتَ يا أور الآخر. عبقريٌّ. أفاتارٌ حقيقيّ. ذكيٌّ ومخادعٌ ومتمرِّس، ويبدو أنَّك تحب المارشميلو.

حسنًا، أيُّ الأسماء تنتحل الآن؟ أيُّ شخصيَّة تنتحل لتحقِّق المزيد من أرباح بيع الآثار المسروقة؟ هللويا! حُلَّت المسألة. ولكي أتأكَّد قاطعًا أنفاس شكوكي، سأسألني للمرَّة الأخيرة: هل أيالا حقيقيَّةٌ حقًّا؟

لأبحث عنها هي الأخرى، لعلِّي أصطاد اسمها في الشبكة العنكبوتيَّة، إلى أن أجدها حقيقيَّةً في أتمِّ العافية والاكتناز، كصدمتي هذه.

***

[«أريد أن أعيش قرنًا بأكمله. مائة عام. هذه أمنيتي الأخيرة في هذه الحياة».

ذلك ما كانت تتمنَّاه جدَّته سوزانا من الحياة. عامان آخران لتحتفل بقرنها، وتعلِّق عليه الأماني النازيَّة البائدة بالقضاء على جنسها. عامان لتبصق بوجه هتلر وتاريخه،

غير أنَّ فيروس كورونا كان قد أباد أمنيتها، لتموت متأثِّرةً بأعراضه عن عمرٍ ناهز ثمانيةً وتسعين عامًا. جدَّته سوزانا التي لطالما استغرب شدَّة تشبثها بالحياة، لدرجة أنَّه كان يسأل نفسه دومًا عندما كانت تحتضنه إثر كلِّ عودةٍ من جيشه العرمرم: هل الموت هو سبب الحياة؟ كانت في كلِّ عامٍ تحتفل فيه بذكرى المحرقة تنشل من صندوق أشيائها وذكرياتها كنجتها العتيقة، كنجمة أيَّامها الغابرة في فرانكفورت. كانت تتحسَّس بأناملها المرتجفة ملمس الكنجة وأوتارها وعصاها، من دون أن تجرؤ على جسِّها عزفًا واستعادة أمجادها الموسيقيَّة. غير أنَّها في آخر مرَّةٍ فتحت بها الصندوق قفزت منه على حين غرَّةٍ طفلة القبو، التي سألت سوزانا بسخريةٍ على مرأى منه:

- هل علمتِ يا سوزي بأنَّ حفيدكِ هذا الذي يُشبه ابنكِ الراحل أور كان يعمل حفَّار قبور؟

انتفضت الجدَّة وشهقت بحدَّة، ثم أطاحت بطفلة القبو عن حافَّة الصندوق الضخم، لتحشر نفسها به قائلةً لها بتهدُّجٍ ألمانيِّ اللهجة:

- أوصدي عليَّ باب الصندوق جيِّدًا، وأمَّا الكنجة فاعزفي عليها ما تشائين من أناشيد نكبتكِ].

***

وأنا أسير في طريقي لزيارة أبي، أؤكِّد بصورة شبه نهائيَّةٍ وشبه حاسمة بأنَّه لن يعيش متشبِّثًا بالحياة كما فعلت جدَّتي سوزانا. إنَّه بحاجةٍ إلى ربع قرنٍ تقريبًا لكي يحطِّم رقمها القياسيّ، ولهذا هو محطَّم الآن في سرير غيبوبته الذي أعوده فيه في هذا الصباح النيسانيّ.

ولكي أكون دقيقًا، هذا أكثر صباح من صباحات الأوَّل من نيسان الذي أدخله وأنا بتمام الأرق ومجافاتي لكلِّ أشكال النوم، كالسكينة والإغفاءة والقيلولة وحلم اليقظة، وصولاً إلى النوم العميق.

إنَّه الأوَّل من نيسان المنير بشمسٍ كاذبة لا حرارة فيها لتمنحني القليل من دفء الربيع. لِمَ لا تكون كاذبة؟ فاليوم يوم كذبة نيسان، والكذب مشروعٌ فيه سواء أكان أبيض أم أسود أم رماديًّا، وهذا ما أكَّده ديفيد غروسمان في روايته «ابتسامة الجدي» عندما قال:

«تلتصق الأكاذيب كالحشوات المغناطيسيَّة بالصدق. تكمن فيه وتصيبه بالاهتراء، حتى تكتسب شبهًا مطلقًا به. ثم ينسى الناس المادَّة التي تصل الحشوات ببعضها البعض».

حسنًا، بماذا سأكذب على أبي اليوم؟ سأكذب قائلاً إنَّني نسيتُ كلَّ الكلمات التي تعلَّمتها باللغة العربيَّة. سأكذب أيضًا بالقول إنَّ العرب قرَّروا الهجرة الجماعيَّة من أرض إسرائيل طواعية، من دون إكراهٍ أو إبعادٍ قسريّ، بعد قبول طلبات توظيفهم الجماعيّ لدى شركاتٍ كنديَّةٍ وأميركيَّة. سأكذب بأنَّني تزوَّجتُ أخيرًا، وقريبًا جدًّا سيرى حفيده البكر الذي سأسمّيه جدعون، على اسم أخي المرحوم وحبيب قلب أبيه الشهيد جدعون. سأكذب أيضًا أجمل الكذبات، حين سأقول له إنَّني عثرتُ داخل أحد الدواليب في حجرته المشتركة مع أمِّي على دفتر مذكَّرات لأمِّي، كتبت فيه قصائد غزليَّة فاحشة تغزَّلت فيها به وبعشقها له. ماذا

سأكذب عليه أيضًا، وأنا مقبلٌ الآن على غيبوبة إنسانٍ متَّشحة بأشباحٍ ممزَّقة؟ سأكذب عليه بكلِّ الحقائق التي أنشأنيَ عليها. سأنفي كلَّ الكذبات التي عاهدني عليها.

صباح الخير أبا جدعون!

هكذا أُلقي عليه تحيَّةً صباحيَّةً عربيَّة، هو الملفَّع بغيبوبته، الهائم في ملكوت الليمبو. أدنو منه. أميل عليه. أقبِّل جبينه. أُدقِّق بملامحه. ألاحظ أنَّه بدأ يخو نحو ملامح طفولة الشيخوخة، أي أنَّه بات على العتبة، عتبة من سبقوه إلى مهاوي الموت.

حسنًا...

أجلس على المقعد قبالة السرير، ثم أنتشل هاتفي من جيبي وأشرع بالقراءة له. بلى، سأتلو عليه مقالة مريم التي لا هدف لها سوى التأكيد على فداحة ما أنا فيه من رعبٍ وصدمات.

سأتلو عليكَ يا أبي القصَّة، كلَّ القصَّة، فهل تحبُّ أن أتلوها بالعبريَّة أم العربيَّة؟ ما الذي ترغب فيه أنت؟ ما الذي تهواه؟ قل بحقِّ كلِّ الآلهة والأنبياء الغائبين؟

فليكن، إذن سأقرأها لك باللغتَيْن، إذ إنَّه وبعد ولادتك ببضعة شهورٍ يا أبي، تحديدًا في يوم الجمعة الموافق 12 آب 1949، وفي سعيٍ من جيشنا الأبيِّ لتثبيت أركان الدولة الفتيَّة وحدودها، صدرت الأوامر بتطهير منطقة صحراء النقب، عبر طرد أكبر عددٍ ممكنٍ من القبائل البدويَّة إلى مصر، ومنع تسلُّل العرب من هناك. كانت هذه مهمَّة مركز قيادة جيشنا الأخلاقيِّ

للغاية في النقب، حيث وجّه قائد الفصيل العسكريّ، الرائد أوري روزنبلوم، أمرًا لجنوده بأن «عليكم أن تطلقوا النار وتقتلوا كلّ عربيّ يوجد في قطاعكم». وهذا ما قامت به الدوريّة العسكريّة المكوّنة من جنودنا الأوفياء لطهارة السلاح، وفظائع المحرقة النازيّة، والخوف المستعر من الإبادة الجماعيّة المحدقة بنا حتى في هذا المستشفى، حين صادفت عربيًا في الصحراء فقتلتهم، وجِمالاً فقتلتها، ورجلَيْن وفتاةً صغيرة، فلم يقتلهم أفراد الدوريّة بل طردوا الرجلَيْن واعتقلوا الفتاة. وهنا يا أبي عليكَ أن تتوخّى الدقّة التاريخيّة، فثمّة جدلٌ حادٌ في أوساط المؤرّخين وعلماء الاجتماع الإنسانيّين حول عمر الفتاة، فيما إذا ما كان بين العاشرة والخمسة عشر عامًا، أو بين الخامسة عشرة والعشرين عامًا. ما الفرق؟ إذ يشبه هذا الجدل السخيف والمخيف ببرودة العلميّ مسألة الخلاف حول العدد الدقيق لضحايا المحرقة النازيّة من اليهود، أكانوا مليونًا أم ستّة ملايين؟

على أيّة حال، جرى جلب الفتاة البدويّة إلى الاستحكام العسكريّ حيث مقرّ الفصيل. كان ذلك في يوم الجمعة يا أبي، قُبَيْل استقبال مساء السبت وربِّ السبت. وعليك أن تتخيّل ما الذي كان يعتري الفتاة في تلك اللحظات الحارقة في قلب الصيف والقيظ والصحراء، عندما نصبها الجنود عاريةً في وسط الاستحكام، ليقترح قائد الفصيل عليهم إمّا أن يضاجعوها كما يشاءون، أو يرسلوها إلى المطبخ لتعدّ لهم أشهى وأطيب المأكولات العربيّة البدويّة. فأبى الجنود يا أبي، وهتفوا بحماسٍ مستعر: المضاجعة... المضاجعة.

ثم أقاموا مراسم العربدة والوحشيَّة. إذ قاموا بقصِّ شعرها، شعر الصبيَّة البدويَّة الحريريّ، ثم غسلوها ونظَّفوها جيِّدًا، ثم اغتصبوها واغتصبوها واغتصبوها. ثم أمر قائد الفصيل بعيْد هتكها وتمزيقها بإعدامها.

حسنًا يا أبي، سأنقل لكَ الآن حرفيًّا ما كُتِبَ حول هذه الواقعة:

«أمر الرقيب ميخائيل العريف دافيد بأخذ جنديَّيْن معه، مزوَّدَيْن بمعوَلَيْ حفر. أُحضِرَت الفتاة، وتمَّ إصعادها إلى السيَّارة المصفَّحة.

صرخ أحد الجنود قبل مغادرتهم المكان بقليلٍ بأنَّه يريد استعادة البنطلون الخاكي الذي كانت ترتديه الفتاة، بعد أن خُلِعَت عنها ثيابها التي تمَّ إحراقها لاحقًا. أمر قائد الفصيل بتعريتها وإعادة البنطلون إلى الجنديّ. ظلَّت في السيَّارة ببلوزة تريكو فقط، في حين كان الجزء السفليُّ من جسدها مكشوفًا تمامًا. ابتعدوا عن القاعدة مسافة نحو 500 متر. ظلَّ السائق في السيَّارة، بينما ابتعد أربعةٌ من الجنود، ومعهم الفتاة، قليلاً بين الرمال.

بدأ العريفان إلياهو وشمعون بحفر قبر. عندما لاحظت الفتاة ما يفعلان، بدأت تصرخ وتجري هاربة. جرت حوالى ستَّة أمتارٍ قبل أن يصوِّب نحوها الرقيب رشَّاشه ويطلق عليها رصاصةً واحدة. أصابت الرصاصة صدغها الأيمن. ظهرت بقعة دمٍ في مكان الإصابة. سقطت على الأرض ولم تتحرَّك. واصل الجنديان الحفر. عاد الرقيب ميخائيل إلى السيَّارة. تقدَّم نحو السائق شاحبًا

مرتعدًا. وضع سلاحه وقال: «أعتقد أنّي لم أعد قادرًا على ارتكاب مثل هذا الأمر». قال شاؤول السائق إنّه من المحتمل أنّ الرصاصة لم تقتلها على الفور، وإنّها قد تحتضر وتتعذّب لعدّة ساعاتٍ وهي مدفونةٌ حيّةً.

طلب شاؤول من العريف أن يُسدي له معروفًا، بأن يذهب إلى الفتاة ويُطلق عليها المزيد من الرصاص للتأكد من أنها ميتة. لم يتمكّن العريف من تلبية الطلب. تقدّم العريف دافيد نحوه، أخذ الرشّاش وأطلق بضع رصاصات على جسد الفتاة. لم تكن الحفرة التي حفرها العريفان عميقة، بلغ عمقها 30 سنتيمترًا تقريبًا. دفنا الجثّة، وغطّياها بالرمال، ثم عادا إلى الاستحكام»».

هذا ما حدث يا أبي. ولكي لا أثقل عليك همومك في غيبوبتك هذه، يتوجّب عليّ القول إنّه، وللأمانة التاريخيّة، فقد تمّت محاكمة قائد الفصيل وجنوده بسبب هذه الجريمة الشنيعة التي وقعت في استحكام نيريم الصحراويّ، وحكِمَ عليهم بالسجن ما بين بضعة شهورٍ وبضع سنين. رغم أنّ الضابط دافع عن نفسه أمام القضاة بالقول إنّه على استعداد للقتل بدمٍ باردٍ، حتى لو استهدف القتل النساء والأطفال، وإنّه يتبنّى ويدعم ما حدث في مجزرة دير ياسين، مُستلهمًا ما اقترفته النازيّة من مجازر في فرنسا إبّان الحرب العالميّة الثانية(١). وأمّا ما يجعلني أجد القليل من السلوان في هذه القصّة، هو أنّ جدّي يوسف الناجي من المحرقة النازيّة لم يشارك فيها، لأنّه كان معطوبًا جرّاء ما ذاقه من ويلاتٍ في معسكر الإبادة الجماعيّة أوشفيتز، كما ذكرت لي سابقًا،

ولذلك لم يشارك في الجهد الحربيّ والأعمال القتاليَّة خلال حرب الاستقلال. ولكنَّ الذين اغتصبوا الفتاة وقتلوها يا أبي هم ناجون آخرون من أوشفيتز، وغيتوات ومعسكرات التجميع والإبادة الأخرى في أوروبا، أليس كذلك؟ غير أنَّ ما يُثير بي الرغبة بالعواء ونهش نفسي هو ذلك التساؤل البغيض عن شعر الفتاة، إذ لماذا بحقّ سماء من لا سماء لهم، لماذا قاموا بقصِّ شعرها؟ لماذا؟!

حسنًا.

ربَّما كانوا يريدون الانتقام من حارسٍ نازيّ في أوشفيتز، فقاموا بقصِّ شعرها وإلباسها بنطالاً عسكريًا لتشبيهها به. ولكنَّ حارس المعسكر النازيّ أبيض البشرة وأزرق العينَين وأشقر الشعر، وأمَّا تلك الصبيَّة البائدة فكانت حنطيَّةً لفحتها قليلاً سُمرة الصحراء. كانت برونزيَّةً بهيَّةً حريريَّة الشعر والجسد.

حسنًا... ما رأيك بهذه القصَّة يا أبي؟ أم الأجدى أن أسأل هل كنت تصغي أصلاً؟!

***

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع

[جذع صنوبرةٍ غليظٌ كان كفيلاً باتِّكاءٍ لذيذٍ امتصَّ تعبهما، بعد قضائهما العصر بالاستجمام في أحراش جفعات شاؤول. قيلولةً مستحبَّةً منشغلةً بمراودتهما عن اليقظة، ويقظته هو تحديدًا، النابعة من شدَّة تأثره بالعبق المنبعث من جسدها، هي التي اتكأت بجانبه متَّشحةً بسوادها. جِباب رأسها أسود، حَجَبَ شعرها الأشقر عنه. رداؤها أسود، كسا بياض جسدها قاطبة، وستر عنه رياحين نهدَيْها وحلاوة سُرَّتها وشذى فخذَيْها. التصق بها أكثر، فنأت عنه بنفورٍ قائلةً ببحَّة صوتٍ لطالما أسرته به، بالعبريَّة لا بتلك العربيَّة المباغتة:

- ويحكَ يا رجل!... اخنع لطُهري وردَّ عنِّي خطيئتك.

توسَّلها متأجِّجًا بذاكرة جسدها الناريَّة:

- دوريت، ما بك يا وله قلبي وواحة أيَّامي؟... ألا تدعيني أنهل منكِ فأنا ظمآن؟

تحسَّست لحاء الجذع الخشن بأناملها، ثم قالت بسلامٍ وطمأنينة:

- أنا نذرتُ نفسي لاسم السماء، ولن يمسَّني إنسيٌّ من بعدك.

- لماذا هربتِ؟ لماذا هجرتني مقابل سوادكِ هذا؟

- هذا السواد نورٌ لهُداي، ونارٌ تحرق الضالِّين من أمثالك.

- بل هو قناعٌ يا دوريت، قناع تسويةٍ مع واقعٍ كان أقسى من قلبكِ القاسي هذا.

- لا ليس قناعًا، بل إيمانًا.

اهتزَّ جذع الشجرة بعنف، فارتاعا مُرْتدَّيْن عنه محدِّقَيْن بأعلى الشجرة، فإذا بطفلة القبو جالسةً على أعلى غصن من دون أن تُفصِح عن وجهها، تهتف منشدة:

- الأقنعة للوجوعين... الأقنعة للمنبوذين... الأقنعة للتائهين.

تشبَّثت دوريت بظهره، طوق النجاة من رعب طفلة القبو، من دون أن تعلم أنَّها قد مسَّته بحرارة نهدَيْها المتأهِّبَيْن دومًا لفمه الشهيّ، ثم قالت له:

- أرغب بسماع أغنية إيمي واينهاوس I cheated my self للمرَّة الأخيرة.

هدَّأ من روعها وهو يجذبها أكثر نحو الالتصاق بظهره، قائلاً:

- حسنًا. دعيني في البداية أطرد هذه اللعينة بقطع الغصن الذي تجلس عليه، وأُحيله كنجعةً تعزفين عليها ما حلَّ بكِ من كبت شهواتٍ مختنقةٍ فوق جسدي.

هتفت طفلة القبو بسخرية، وهي تقفز من الغصن إلى الشجرة المقابلة له:

- جدَّتكَ سوزانا لن يعجبها البتَّة العبث بعصا كنجتها على يد هذه المعتوهة. لن يعجبها ذلك أبدًا!.

***

تتدفّق بسهولةٍ متسلّلةً إلى لبِّ دماغي أغنية مادونا Frozen، أثناء وقوفي على الرصيف المقابل لهذا المبنى الضخم المسيَّج بأشجار السرو والصنوبر.

كنتُ أودُّ من سائق سيَّارة الأجرة أن يعبر بوَّابة المبنى لكي يقذفني عند بابه الداخليّ، لكي أتّقي شرور التجوّل في هذه المدينة، إلاَّ أنّه توقّف أمام المبنى وانتظر خروجي من سيَّارته، بعد أن سئم من صمتي وشرودي خلال الرحلة التي استغرقت حوالى خمسٍ وأربعين دقيقةً من تلّ أبيب إلى شارع صلاح الدين في أورشليم، أمام مبنى معهد أولبرايت للأبحاث الأثريّة.

انتظر السائق عدَّة لحظات استحالت دقيقة، دقيقتَيْن، قذفهما عن ترقّبه بهزّ كتفَي معلنًا نهاية الرحلة. التفتُّ إليه بضياعٍ مستغربًا وجودي في سيَّارته المركونة في أحد شوارع أورشليم، إلى أن تذكّرتُ أسباب السفر فاعتذرت له عن تخبّطي بنفحه إكراميَّةً بالإضافة إلى أجرته.

أورشليم! منذ متى لم أتجوَّل في شوارعها وأزقّتها؟ منذ زمنٍ بعيدٍ لا أذكر الآن أنّه قد كان يومًا. أراقب ما حولي في الشارع، والشارع هادئٌ يسترعيني سكونه في هذه الظهيرة الخالية من الروّاد المتجوّلين.

تسعفني فطنةٌ مباركةٌ في زمنٍ ليس بزمني، وشارعٍ ليس لي، حين أدرك أنّ سبب السأم الذي اعترى المكان هو رمضان. رمضان شهر الصيام الخاصّ بالمسلمين. بلى، أنا في بداية رمضان، بداية زمنٍ لا أتقن لحظاته ولا أفقه إيقاعه. غير أنّ قشعريرة خشيةٍ

طفيفة الارتعاش تمسُّني الآن، لأنَّ أورشليم في رمضان عالمٌ آخر. عالمٌ مدجّج بالشرطة، وحرس الحدود، والمواجهات اليوميَّة العنيفة، وعمليَّات الطعن وإطلاق النار التي ينفِّذها مخرّبون فلسطينيون، أعجز حتى هذه اللحظة عن إدراك أسباب إقدامهم على الموت بهذه الصورة المسرحيَّة المصاحَبَة بعشرات آلات التصوير في الشوارع، والهواتف الجوَّالة الخاصَّة بروَّاد هذا المسرح الشاسع، أورشليم. كما أنّني كنت قد لاحظت أثناء مرور سيَّارة الأجرة في شارع السلطان سليمان، المطلّ على باب شخيم (10)، قوَّات الشرطة وحرس الحدود وهي على أتمِّ الاستنفار من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار في رمضان هذا، لأكتشف أنّني كنت موفّقًا بعدم مزاولة هواية التجوُّل سيرًا على الأقدام في شوارع وميادين هذه المدينة البعيدة كلَّ البعد عن معاني اسمها، السلام. سيَّارة الأجرة أفضل، ولا يوجد بها زمنٌ رمضانيّ. إنَّها كبسولةٌ زمنيَّة، فيها زمني أنا الذي أتسلَّل من خلاله إلى هنا، إلى هذا المبنى الذي أسعى إلى سبر أغواره الآن.

أقطع الشارع. أجتاز البوَّابة الحديديَّة الكبيرة. لا ألتفت حولي. أكتم صوت مادونا. أسير كروبوت آليّ نحو المدخل الرئيسيّ للمبنى. أتفاجأ من بديهيَّة خطواتي كما لو أنّني كنت هنا من قبل، وزرت المكان عشرات المرَّات. ثم أتوقَّف عن المسير فجأة. أكاد أُقلع عن مسعاي المغامِر هذا. ماذا أفعل هنا؟ أيّ جنونٍ يملي بالعبث هذا؟

حسنًا... بأيّ صفة سأدخل؟ من أنا؟! اللعنة! لقد نسيت الخطة، خطّة الدخول إلى عالم أور شايبرا الآخر. ما اسمي؟ ما هي صفتي؟ بأيّ لغة سأتحدّث؟ ماذا سأقول في الداخل؟ أأنسحب الآن مرتدًا خائبًا مذعورًا من الانسياق وراء هذه اللعبة المجهولة العواقب والمصائر؟ كلاّ، لا أرتدّ، فأنا أفاتارا لن أنسحب. أنا أفاتاره هو. أنا أور شايبرا الحقيقيّ. هل أنا حقيقيٌّ حقًّا؟! اللعنة! فلأدخل إذن هكذا من دون أدنى تدبيرات مُحكَمَة. فلأدخل إلى اللعبة شاقًّا غمار ذلك الأور الآخر الذي انتحلني، لعلّي أحرز نتائج جديدةً متعلّقةً بالبحث، بحثي عن نقطة تعيين مغايرة مخيفة مجهولة قد أُبهر بها طبيبتي هداس. قد تكون نقطةَ التعيين المنشودة نقطة الارتكاز الخلاصيَّة المهولة، التي تُعيد دفعي نحو سطح هذا الواقع الذي أعمه في قعره.

لحظةً واحدة. لماذا لا يكون القعر هو الوجه الآخر للسطح؟ لماذا لا يكون الواقع مُصابًا بانفصام شخصيَّة، تارةً سطحٌ وتارةً أخرى قعر؟

حسنًا، فلأحسم الأمر، المسألة، اللعبة. إنّها البداية، ولتكن إنجليزيَّةً مثقلةً برطانتي العبريَّة الأشكنازيَّة، أحلُّ بها على هذه السكرتيرة الجميلة، الجالسة وراء مكتب يبدو أنّه مكتب الاستقبال في هذه القاعة الكبيرة الهادئة، التي لا تنعم إلاّ بحضورها هي الشابّة الشقراء.

أُلقي عليها تحيَّة الظهيرة المعطَّرة بلقب الآنسة على حساب لقب السيِّدة، بعد أن لمحت مؤشّرات لا توحي بزوجةٍ تنتظر على أحرّ من الجمر نهاية الدوام، لتغدو بعد

قليلٍ ربَّةً في بيتها، هي الحالية أصابعها من أيّ خواتم قد تشي بارتباطٍ ما. عليَّ اللعنة! ماذا أفعل؟ أيُّ دقَّةٍ مهووسةٍ بالتفاصيل الصغيرة تساورني الآن؟!

تهدِّئ من روعِ قلقي بردِّ التحيَّة بصوتٍ أنثويٍّ ينعم ببراءة الطفولة. أصمت للحظة أثناء وقوفي قبالتها، لأختبر في داخلي إمكانيَّة عدم خذلان صوتي لي بارتعاشة توتُّر، ثم أقول بتماسك:

أنا أور شابيرا... أعمل دليلاً سياحيًّا وباحثًا آثاريًّا. أتوقَّف عن التعريف باسمي وصفتي، متوخِّيًا أيَّة أجراسٍ قد تُقرع في وجهها إثر إلقائي لاسمي، فلا أعثر على أدنى تأثُّرٍ قد يشي بمعرفةٍ مسبقة. أرتبك. لا لن أرتبك. سأطمئنُّ أكثر بتوقُّعي أنَّها تولَّت مهمات موظَّفة الاستقبال مؤخَّرًا، في الفترة التي تلت اختفاء أور شابيرا الذي أجسِّده الآن. ثم تحثُّ سَرَيَان الطمأنينة في داخلي بقولها:

- بماذا أخدمكَ يا سيِّد شابيرا؟

تتحوَّل في لحظةٍ مباغتةٍ من مخاطبتي بإنجليزيَّتها الأميركيَّة اللكنة، إلى عبريَّةٍ أشكنازيَّةٍ مبهرة، أنارت قلبي وطردت عنه ظلمة عثراتي الإنجليزيَّة:

- اعذرني... أنا راشيل طالينسكي، السكرتيرة الإداريَّة للمعهد. ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

أتأمَّلها للحظات بعد أن ألهمتني بالعبريَّة، ما أدَّى إلى إعادة برمجةِ لساني المحمَّل بما سأتفوَّه به من كذبٍ عبري، مرفقٍ بإطراءٍ مُدَّعى:

- أنت يهوديَّةٌ إذن؟

- يهوديَّةٌ أميركيَّة، وأشكازيَّةٌ مثلك.

وتمتلك حسَّ الدعابة أيضًا. حسنًا، داعبيني جميلتي راشيل، وأسعفي جنوني بطوق نجاة. أخاطبها بعد أن دعتني للجلوس أخيرًا، مطمئنَّةً ربَّما لعبريَّتي الأشكازيَّة:

- لقد اطَّلعتُ في صفحتكم الإلكترونيَّة على أهمِّ المشاريع والدورات التي تنوون إقامتها خلال الفترة القادمة، فهل لديك تفاصيل أخرى بإمكانك تزويدي بها؟

أُقلع عن الحديث فجأةً عندما أتذكَّر موسم التنقيب الذي أشرف عليه المعهد العام الماضي في منطقة تلِّ مجدو، ومشاركة أور الآخر فيه. ثم ألقي طعمي الكاذب أمامها لعلَّها تلتقطه بشيءٍ من الحقيقة، إذ أستدرك الحديث بحماسة:

- بالمناسبة... أنا شاركت العام الماضي بالبعثة الآثاريَّة في تلِّ مجدو.

أُدقِّق بملامحها، علِّي أن ألتقط أيَّة ردَّة فعلٍ بصنَّارة ادِّعاءاتي. تقول بتهذيب:

- للأسف، لم أكن منتدبةً في المعهد في ذلك الوقت، ولكنَّني كنت أعرف البروفيسور بريان مور.

ورطة! إنَّها الورطة الأفظع، فبماذا سأعقِّب الآن؟ من بريان مور هذا؟ أُقرِّر الإمعان بهبل العموميَّات:

- كم هو بارعٌ هذا البروفيسورا... هل ما زال يعمل هنا؟

تستغرب بشدَّة، ثم تقول بنبرة حزنٍ اكتستها بغتة:

- أوه سيِّد أورا... ألا تعلم أنَّ البروفيسور مور قضى مختنقًا أسفل ركام إحدى المقابر الفرعونيَّة في مصر في أيلول الماضي؟

يا ربَّ الحماقات وهذه السكرتيرة اللعينة أنقذني! ماذا أفعل الآن؟ بماذا أجيب؟ لو كان أور الآخر مكاني الآن، فبماذا كان سيعقِّب؟

أقول، وقد سعيتُ للاكتساء بأشدِّ نبرات الحزن والمواساة واللوعة المتنحنحة:

- أحقًّا ما تقولين؟! يا إلٰهي! لم أكن أعلم. اعذريني!

- لقد هزَّ خبر موته عالم علم الآثار برمَّته. إنَّه خسارةٌ فادحة.

خبَّأت بقولها استنكارها لجهلي بموته. أشعر بأنَّ وقت انسحابي من أمامها قد حان، لكي لا تفاجئني بمعلومة أخرى أجهلها، كأن تقول لي إنَّ أور الآخر يشرف على دورة ترميم اللقى الآثاريَّة في القاعة الواقعة خلف مكتبها.

أقول مدَّعيًا المزيد من الحسرة:

- إنَّه خسارة كبيرة حقًّا. آه لا تعلمين كم أنا مدينٌ لهذا البروفيسور المبارك الذكر بخبرتي في مجال الحفريَّات الآثاريَّة.

تواسيني بعد نجاحي باستعادتها من استنكارها لجهلي بموته:

- فليكن ذكره مباركًا! قل لي الآن بماذا أخدمك؟

أسأل نفسي متخبِّطًا: وبماذا ستخدمينني أنت الآن؟! ما حاجتي إليك؟!

ثم أقول لها مستنكرًا براعتي بالكذب:

- كنت أريد أن أعرف إن كان لديكم أيُّ خططٍ لافتتاح مشاريع ومواسم تنقيبيةٍ جديدة.

- بالطبع... لدينا موسمان هامَّان في الفترة القادمة، في أيَّار القادم تحديدًا. الأوَّل هنا في أورشليم في مدينة داود (ا ا)، ونحن بحاجةٍ إلى متطوِّعين وخبراء محلِّفين. بإمكانك التسجيل الآن إن أردت.

أسألها في سرِّي بماذا أُسجِّل أيَّتها الفتاة البريئة الجميلة المعطاءة؟ بماذا أُسجِّل؟! وهل أفقه أنا شيئًا في علم الآثار؟ أنا عاجزٌ عن التنقيب. أنا بحاجةٍ لمن ينقِّب في داخلي حتى يعثر على النصب التذكاريِّ لسيرة حياتي المحترقة.

أتوقَّف عن الندب السرِّيِّ من أجل الشروع بعمليَّة انسحابٍ تكتيكيٍّ من أمام هذه الورطة التي أُلقمت نفسي بها بعبث، ثم أقول لها:

- حسنًا... هذا جيِّد. عليَّ أن أحسم أمري، ففي أيَّار لديَّ خيارٌ آخر. أنا بحاجةٍ لدراسة الموضوع.

- ولكن يجب أن تُعلِمَنا بحسم خياراتك قبل الخامس والعشرين من نيسان الحاليّ، بسبب محدوديَّة عدد المشاركين.

أُعلِّق في سرِّي متسائلاً أيُّ حسمٍ يا فتاتي؟ أيُّ حسمٍ

وأيُّ صنادل ونعالٍ تلقينها في وجهي الآن؟ وجهي الكاذب وحديثي المُلفَّق بأنفاس أور الآخر، ألا لعنة ربِّ اللعنات عليه.

أقف. أصافحها بأدب، معربًا عن خالص تقديري للوقت الذي خصَّصته لي، والذي لا أعلم ما هي أهمِّيَّته في هذا المعهد الخالي، وأمضي مختتمًا زيارتي هذه بأسمى آيات الترحُّم والتعازي الحارَّة للفقدان الفادح للبروفسور... ما اسمه؟! آه! بريان مور المبارك الذكر.

***

[تهالك على مقعدٍ خشبيٍّ مزروعٍ على رصيف الشارع الهادئ. تحسس مسند المقعد. إنَّه حقيقيّ. اتَّكأ برأسه عليه. أغمض عينَيْه سعيًا وراء الاسترخاء والاتِّحاد بأغنية شالوم حانوخ «بانتظار المسيح». وما إن جذبته الإغفاءة حتى استعادته منها سكرتيرة المعهد بهزِّ كتفه. فتح عينَيْه ولمح رأسها مُعلَّقةً في سماء رأسه، ثم قالت بإثارة:

- الآن عرفتك أيُّها المخادع... أنت ذلك البطل السينمائيّ. بلى، أنت بارعٌ جدًّا!

اعتدل في جلسته ملتفتًا نحوها، فوجدها تُعلِّق حقيبةً بكتفَيْها وترتدي زيَّ طالبةٍ في مدرسةٍ داخليَّةٍ إنجليزيَّة. ثم سألها بحذر:

- أيُّ ممثِّلٍ يا طفلتي الجميلة؟

ضربت قدمها بالأرض محتجَّة، كطفلةٍ أفسدها الدلال المفرط:

- لقد رأيتكَ مرارًا في أفلام ستانلي كوبريك. لا تقل لي الآن إنَّكَ لست ذلك الممثل الذي يرتدي القناع. كلُّ أفلام كوبريك مليئةٌ بالأقنعة.

نزعت حقيبتها المدرسيَّة عن ظهرها، وانتشلت منها قناعًا أبيضٍ ذا أنفٍ مستدقٍ طويل، ووضعته على وجهه قائلة بإثارةٍ وسرور:

- كم يليق بك؟! ألم أقل لك إنَّك ذلك الممثِّل البارع؟

ثم قفزت عن مسند المقعد لتجلس في حجره. وما أن شرعت بتقبيل القناع، حتى أطاحت بها همسات طفلة القبو، التي كانت مختبئةً أسفل المقعد:

- هل نسيتَ هذا القناع أيُّها الأحمق؟ هل نسيتَ أنَّك كنت ترتديه أثناء أدائك لقسم الولاء لإسرائيل وربِّها في ساحة هيكلكم(1.2)، بعد تخرُّجك من دورة ضبَّاط الصفِّ في لواء المظلِّيين؟

انتفض بدوره عن المقعد، وهرع وراء سكرتيرة المعهد المفزوعة، صارخًا بعد أن عجز عن نزع القناع عن وجهه:

- أيَّتها العابثة! عودي وانزعي القناع عن وجهي. عودي!].

ها أنا الآن أجلس على مقعدٍ خارج المعهد، في شارع صلاح الدين. مقعدٌ يواري عُريي خيبتي أمام تلك السكرتيرة، التي لو كانت على درجةٍ عاليةٍ من الفطنة لألقت القبض عليَّ متلبِّسًا بشخصيَّةٍ أخرى، وصفة ليست لي. هل كانت ستصدِّق أنَّني مجرَّد أفاتار؟ أو

بالأحرى هويَّتي هي ذلك الأفاتار، الذي يصول ويجول في رحاب البلاد منتحلاً شخصيَّتي.

حسنًا... ماذا أفعل الآن؟ ما العمل؟ أتفقَّد هيئتي. أجول بنظري متفحِّصًا الشارع من حولي. ثمَّة حركة متنامية تدب فيه، والدعر يشرع بالدبيب في أوصالي. أغرز السمَّاعتين في أذنيَّ. أعيد الصخب الموسيقيَّ إلى رأسي. حُلِّي عليَّ ببركاتك مادونا، وجمِّدي خفقان قلبي الملتاع بأغانيك.

أقف. أتنفَّس. شهيقٌ عميق، زفيرٌ حارّ. أُمرِّر كفِّي على وجهي متحسِّسًا ملامحي قبالة أورشليم. أورشليم برمتها مرآتي، أنا الأشكازيُّ التائه في أرجائها. أسألني ما الذي يتوجَّب عليَّ فعله الآن؟ هل أعود إلى تلِّ أبيب لأختبئ في شقَّة أسرتي البائدة، أم أمارس المزيد من العَمَه هنا؟ أجلس مرَّةً أخرى على المقعد. أشرع بالتفكير بالخطوة القادمة. إلى أين ستجرفني هذه الخطوة؟

أقوم من جديد. أسير مغادرًا شارع صلاح الدين نحو باب الساهرة المؤدِّي إلى البلدة القديمة، أورشليم العتيقة التي لم أزرها متجوِّلاً بها سوى مرَّاتٍ معدودةٍ في حياتي البائسة، كانت آخرها قبل ستَّة عشر عامًا بعيد تخرجي من دورة صفِّ الضبَّاط في لواء المظلِّيين، حيث جرت العادة العسكريَّة على إلقاء قَسَم الولاء والانتماء للوطن في ساحة الحائط الغربيِّ وأطلال هيكلنا الغابر. هناك ألقينا القسم، ثم خرجنا من رحاب الربِّ لنحتفل ليلاً في أزقَّة أورشليم وشوارعها، أنا ورفاقي الضبَّاط. كنت إلهًا صغيرًا حينذاك، إله حربٍ معبَّأً بأنفاس يوشع بن نون

وديفيد بن غوريون، وايتسحاق رابين، وذلك الإعلان العظيم للواء المظليين.

جبل الهيكل بأيدينا، وها أنا الآن بين يدَيْ جبل الهيكل. يُقلّبني كيفما يشاء، ويلقيني داخل أزقّة أورشليم لأسلكها وأنا مفعم بالخوف ممّا يدور حولي من حراك وأجواء متوتّرة، توحي بقرب وقوع المصائب في هذا الزمان الرمضاني. أمرُّ قُرب العسكر الرابضين بجانب باب الساهرة، المشحوذين بطاقة التأهّب القصوى. أتوتّر قليلاً حين ألمح بنادقهم. لماذا أتوتّر وأخاف؟ ألستُ يهوديًّا مثلهم؟ أليست أورشليم بأيدينا؟ فلِمَ الذعر الذي لا يليق بضابطٍ مظليٍّ مثلي؟

يستوقفني أحد الجنود بعد أن استرعاه توتُّري. يدنو منّي ممتشقًا بندقيّته. إصبعه قريبةٌ من زناد لطالما ضغطتْ عليه في حروب إسرائيل الماضية. يطالبني ببطاقة الهويّة. من شدّة رعبي أغفل عن اللغة التي خاطبني بها. أمنحه البطاقة التي تشرع بإعادة الثقة إلى أصلي الأشكنازيّ. يتفحّص البطاقة، ثم يُحدّق بملامحي قبل أن يهزّ رأسه، معربًا عن اعتزازه واعتداده لأصلنا المشترك أنا وهو.

ثم يشرّع لي بوّابات أورشليم. هل تعرّض أور الآخر لمثل هذا الموقف؟ ربّما، ولكن لا بدّ أنّه واجهه بجرأة أشدّ وعزيمة أمضى. لماذا؟ لأنّ الانتحال يمنح الأمان، يمنح الخبرة والتمرّس والخشية من الوقوع في خطأ التفاصيل الصغيرة.

أسير متوغّلاً في عمق أورشليم. ثمّة حياةٌ فيها. ثمّة روائح، والروائح إحدى صفات الأمكنة ذات الحميميّة

العالية. حوانيت. باعةٌ متجوّلون. بسطات خضارٍ طازجة. هتافات الباعة التي لا أسمعها بسبب صخب مادونا، ولكنّني أحسّ بها وألحظها من وراء نظّاراتي الشمسيّة السوداء.

أنعطف يمينًا لأسلك درب الآلام، درب يسوع إلى الصلب على قمّة الجلجلة. أين صليبي أنا الذي أتهافت الآن على هذه المدينة؟ أورشليم الذهبيّة، مدينة الأنبياء وإهراق الدماء وصدوع السماء، وهذا الازدحام الشديد لكافّة الأديان.

اليهود هنا. النصارى. المسلمون. وأنا اليهوديُّ الذي يسير في درب آلام يسوع النصارى في زمن رمضان المسلمين. فليحيَ ستانلي كوبريك إذن!

يأخذني الدرب إلى آخره، إلى حارة النصارى التي أصل إليها بعد عبوري تقاطعاتٍ ودروبًا وقناطر وأسواقًا وهتافاتٍ وحشود مؤمنين وجنودًا، إلى أن أصل مراديَ حيث شركة موريا للسياحة.

أتوقّف مخفّفًا عنّي عبء أنفاسي الثقيلة لأراقب مدخل الشركة، الواقعة في الطابق الثاني من هذا المبنى العتيق المرفوع على قناطر حجريّة. أقرأ الاسم المخطّط على بافطة أنيقة باللغات الثلاث، العبريّة والإنجليزيّة والعربيّة. ثم ماذا؟

هل سأرتكب حماقةً أخرى كالتي ارتكبتها منذ قليلٍ في معهد أولبرايت؟ وبأيّ صفة سأقتحم الشركة؟ بأيّ صفة؟ ماذا سأدّعي؟ هل سأقول إنّني أور شابيرا الحقيقيّ؟ وبأيّ لغةٍ سأداهم أصحاب الشركة؟

آه كم أحتاج مريم الآن. مريم معلّمتي العربيّة التي لو كانت معي الآن لخفّفت عنّي عبء اللغة العربيّة، وإلحامي لنفسي وسط حشد من العرب للمرّة الأولى في حياتي، من دون أن أكونَ مدجّجًا بالسلاح ولابسًا بزّتي العسكريّة.

ماذا؟! هل هذه هي المرّة الأولى حقًّا التي سأواجه بها عربًا سوى مريم بلا وجهي العسكريّ؟

حسنًا... فليكن اسمًا غير اسمي. فلأنتحل صفةً غير صفتي. فلألعب لعبته هو، أور الآخر. ليكن اسمي أشكازيًّا: يوئل... أمير... شموئيل... لا، فليكن ميكي! ميكي اسم جميلٌ وموسيقيّ. وأمّا العائلة: هندل... برينر... أمستردامسكي... فلتكن برينر، تيمّنًا بجدّتي روت برينر مباركة الذكر.

حسنًا... ماذا بعد؟ ما هي صفتي؟ مهنتي؟ سأكون أفاتارًا لشركة سياحة جديدة مقرّها تلّ أبيب، تبحث عن سبل للتعاون مع شركات السياحة الأورشليميّة. فليكن اسم الشركة الملك شاؤول مثلاً. لا... شركة العالم الصغير. لا. لا. فليكن اسمًا محايدًا، مثل الشركة المتّحدة للسياحة والسفر! اسم مهنيّ ولافت.

حسنًا... تفضّل سيّدي ميكي برينر.

أصعد السلالم الحجريّة نحو الطابق الثاني، بعد أن أنتزع من أذنيَّ أغاني مادونا وأرتّب هندامي. أردّد في سرّي ميكي برينر، مندوب الشركة المتّحدة للسياحة والسفر. ثم أدخل صالةً رحبةً فيها بعض السيّاح الأجانب،

بالإضافة إلى موظَّفي الشركة. أتَّجه صوب موظَّف يقف وراء مكتب الاستقبال. أُلقي عليه التحيَّة بعبريَّتي الأشكنازيَّة الواثقة، فيردُّ التحيَّة بعبريَّة متواضعة اللهجة. موظَّفٌ في مقتبل العمر، وسيم الملامح لطيف التعامل:

- تفضَّل... بماذا أستطيع أن أخدمك سيِّدي؟

أتأمَّله للحظات أثناء تحذيري لنفسي بعدم الوقوع بالتباسات معهدٍ أولبرايت التي نجوت منها بالصدفة، ثم أقول بجدِّيَّة ذات طابع رسمي:

- أنا ميكي برينر، مندوب الشركة المتَّحدة للسياحة، والتي أُنشئت مؤخَّرًا في تلِّ أبيب. جئت إليكم من أجل بحث آفاق التعاون بيننا وبين شركتكم.

يتفاجأ الموظَّف الشابُّ من ضخامة العرض الذي قذفته في وجهه. يبدو أنَّني بالغتُ في الفبركة. يلتفت حوله مبتسمًا باحثًا عن موظَّفٍ أعلى منه سلطةً وتأثيرًا في هذه القضايا، ثم يقول بحماس:

- هذا من دواعي سرورنا سيِّد ميكي.

أقاطعه بصوتٍ مرتفعٍ ادَّعيت فيه الانتعاش، بعد أن ألحظ قدوم موظَّفٍ آخر صوبنا بدت عليه هيبة التأثير والنفوذ في الشركة، طويل القامة السمراء نحيلها، مكلَّل بقبَّعةٍ خضراء صغيرة:

- لقد أوصاني بالقدوم إليكم... أحد الأصدقاء المشتركين... كان يعمل موظَّفًا لديكم.

يسألني الرجل الطويل بعد ترحيبه بي بحرارة:

- ومن هو صديقنا المشترك هذا؟

تكتسيني ملامح جدِّيَّة، عزَّزت من إمكانيَّة تقمُّصي شخصيَّةً أخرى. أخفي جلَّ اختلالاتي وصدماتي، لتلوح بارقة اسمي، اسمي الحقيقيِّ. ثم أقول بتماسك:

- إنَّه أور... أور شابيرا.

يتخبَّط الرجل الطويل مرتدًّا إلى الوراء خطوتَيْن كالملدوغ، أمام اضطراب الموظَّف الشابِّ وبداية حلول الارتباك عليَّ. ثم يتمالك نفسه قائلاً بغضبٍ فظٍ أطاح بوداعته ولطفه:

- ومن قال لك إنَّ شخصًا بهذا الاسم كان موظَّفًا لدينا؟ أرجوك هذا مقرُّ عملٍ ولقمة عيشٍ، وليس ركنًا للسخرية والمزاح، فإذا لم يكن لديك شأنٌ جدِّي فتفضَّل مع السلامة.

أحتار في أمرِي، ما يؤدِّي إلى تخبُّطي وشروعي بالتخلِّي عن التورط أكثر مع هذا الرجل الساخط. تكتظُّ الكلمات في جوفي. أتلعثم. لا أعقِّب بأدنى احتجاج على مخاطبته لِي بهذا الأسلوب، الذي ذهب بكلِّ الأناقة التي أسبغتها على حضوري في شركته. أنسحب من دون أن أعقِّب بكلمة. أهرول على السلَّم الحجريّ. أكاد أقع متعثِّرًا برداءة خطَّة انكشف فشلها الصريح. أسير بضع خطوات، ثم أتوقَّف متَّكئًا على الجدار الحجريّ بجانب مقرِّ الشركة لأستردَّ أنفاسي المتسارعة. أسير إلى الأمام في الطريق المؤدِّية إلى باب يافا(13)، المؤدِّي بدوره إلى أورشليم الغربيَّة.

أخطو ببطء، بتخبُّط، بحيرةٍ تامَّة. ثم تحطُّ يدٌ على

كتفي. همس صاحبها:

- توقّف.

يدبُّ الذعر في أوصالي. أخشى الالتفات للحظات. أعراض البوست تراوما تصهر أصلي العسكريَّ وجرأتي الحربيَّة. ألتفت بحذر، فإذا هو الموظّف الشاب الذي استقبلني داخل الشركة.

يجذبني إلى جانب الطريق، ثم يلتفت حوله بحذرٍ ويقول بصوتٍ خفيض:

- سيِّد ميكي... أرجوك اعذرنا على هذا الالتباس. فقبل عدَّة أسابيع جاءت فتاةٌ يهوديَّةٌ لتسأل عن صديقك هذا، أور شابيرا، وقام الشيخ مرسي بطردها كما طردك أنت. فهل تعرفها؟ هل تعرف أور شابيرا حقًّا؟

أتوازن. أُعيد الأمن والثقة لهيئتي، وتمسُّني بارقة أملٍ قد تؤدّي بي إلى دروب أور شابيرا الآخر. أسأله بصوتٍ مبحوح:

- ومن مرسي هذا؟

- مرسي هو كبير الموظَّفين وأقدمهم في الشركة. والآن أجبني، هل تعرفهما؟ الفتاة أو شابيرا؟

- وما همُّك أنت إن كنت أعرفهما أم لا؟

- حسنًا، قد أساعدك وأبو...

تقطع يدٌ سمراء حطَّت على كتفه دابر بوحه لي، وتبعده عنِّي، فإذا هو مرسي قد اقتحم على حين غرَّةٍ

سعي الموظَّف الشابّ نحو الإفضاء بما قد يشي بأور الآخر. يأمره موبِّخًا بالعودة إلى مقرِّ الشركة، ليواجهني أنا كومة الهراء المرتعشة في هذه الطريق الأورشليمية العتيقة. أشعر للحظة بأنَّ أورشليم هُجرت سوى منه ومنِّي. لا أحد سوانا. لاّ أحد يخترق مواجهته الناريَّة لِي. يحدجني بنظراتٍ قاسية، ثم يقول مهدِّدًا:

- لا أريد أن أرى وجهك هنا مرَّةً أخرى، هل تفهم؟ هيًّا، انصرف من هنا.

أنصرف مترحِّمًا على كبريائي الذكوريّ وعنفواني العسكريّ، إذ أواري نفسي بالخيبة والفزع وأفرُّ من وجه هذا الرجل الغاضب. لا، لن أنجل ممَّا يلمُّ بي الآن من ارتجافٍ وتعرُّقٍ وأنفاسٍ ثقيلة لاهثة ملتصقة بأعراض البوستِ تراوماً. أؤكِّد لنفسي أنَّ ثمَّة خيطًا دقيقًا يكاد لا يرى يفصل بين نوبة الذعر ونوبة الغضب. غير أنّني لا أعلم الآن، وأنا أتقافز ممتطيًا خفقان قلبي، هل كان بإمكاني الإجهاز على هذا الرجل الذي خلَّفته ورائي وإشباعه لكمًا وضربًا، أم أنَّ نوبة الذعر الجارفة هي التي تسيطر على مجريات فراري من وجهه الساخط؟

فلأهرب إذن... إلى تلِّ أبيب.

فلأهرب حتى الرمق الأخير من بارقة أمل، ما إن لاحت من فم ذلك الموظَّف الشابّ حتى أخمدها ربُّ الغضب الذي طردني من أورشليم.

***

[كان القمر بدرًا منيرًا، لدرجة أنَّ الحشد السياحيَّ

الصغير الذي كان يقوده تفاجأ من حجمه الكبير وقربه الشديد. استرعى ذلك انتباه الدليل السياحيّ، فقال لهم مطمئنًا:

- أرجوكم لا تقلقوا، لن يقع القمر عليكم فهو مثبّتٌ جيّدًا بالسماء.

ثم قفز عن ظهر عومر، موظّف الاستقبال في عيادة طبيبته هداس، مردفًا بسرور:

- هل تعلمون أنّ هذا القمر ليس طبيعيًّا؟

ارتاع الحشد بشهقات ولوعات انبعث منها صوت صديقته دوريت، التي تساءلت وهي تتشبّث بعنق الطبيب الشابّ مودي، شريك أمّه في عيادتها:

- هل تقصد أنّ هذا القمر الصناعيّ لم يخلقه الباري في سفر التكوين؟!

أطلق ضحكةً مجلجلةً في وجهها، ما أدّى إلى انقلاع حجابها عن شعرها الأشقر، قائلاً:

- كلاّ عزيزتي دوريت... هذا القمر قامت بتشييده كائناتٌ فضائيّةٌ مجهولة، كنصبٍ تذكاريٍّ لها.

هتفت جدّته سوزانا بأسى:

- لقد كنتُ أعتقد أنّ الكائنات الفضائيّة هي التي شيّدت أوشفيتز!

قاطعها جدُّه نير متأفّفًا:

- هذه أشدُّ الجولات السياحيّة مللاً في حياتي. هيّا، فلنعد إلى جفعات شاؤول، المطلّة على نصب متحف

ياد فشيم.

استوقفته ابنته ليطال، وهي أيضًا أمُّ الدليل السياحيِّ الأخرق، قائلةً أثناء تصفيفها شعر نيتع، موظَّفة الاستقبال في عيادتها:

- لكلٍّ منَّا نصبه التذكاريُّ الخاصّ.

ثم طبعت قبلةً حارَّةً جدًّا على وجنة مودي، ما أثار احتجاج أبيه نيتسان، الذي صرخ قائلاً أثناء تنظيفه بندقيَّته:

- أريد أن أعود إلى مجدال، حيث نصب ولدي الشهيد جدعون. لا أريد البقاء في تلِّ أبيب الخاطئة. احفروا لي قبرًا بجانب جدعون.

فهمس جدعون من وراء أبيه:

- أنا أخاف ظلام الحفرة يا أبي. ادفني في القمر.

قطعتْ عليه توسُّله ضحكةٌ فاحشةٌ صدرت عن شير، صديقة طفولة أخيه البائدة، والجالسة في حجر طبيبته النفسيَّة هداس، ثم انقلبت الضحكة إلى حشرجة وعويلٍ إثر فشلها بقول ما شاءت قوله. أخذت شير تسعل بشدَّة، فأسعفتها هداس بالتربيت على مؤخِّرتها مؤنِّبة:

- يكمن السبب في الكنجات. لقد أكثرتِ من ابتلاع الكنجات يا شير، كنجات سوزانا وآهاتها.

علَّقتْ جدَّته روت، قائلةً بتذمُّرٍ وأسى وهي تلفُّ جسدها بسجَّادتها الفارسيَّة الفخمة:

- كلُّ شيءٍ سوزانا... ألا تحترفون سوى قصَّة سوزانا؟ ألا أعني لكم أنا أيَّ شيء؟!

صرخ هو مشيرًا ناحية القمر:

- انظروا!... حدِّقوا جيِّدًا، ثمَّة شخصٌ ما جالسٌ على سطح القمر.

فاشرأبَّت أعناقهم وحدَّقوا نحو القمر. لمحوا كائنًا ضئيل الحجم، ملامحه غامضةٌ ومحتجبة، فأسعفهم هو قائلاً بغيظ:

- تبًّا! هذه طفلة القبو!

فعقَّبوا جميعًا بجوقة دهشةٍ واستنكار، متسائلين:

- طفلة القبو؟!

أجابتهم هي من شاهق قمرها بصوتها الحزين:

- أنا النصب التذكاريّ. اسألوا سوزانا لكي تتأكَّدوا من أنا].

***

أصول وأجول في الشقَّة كالمجنون، كأسد جريح. كلاَّ، أنا مجرَّد أرنبٍ مفزوع. بلى، هناك في الزِّقاق الحجريّ، الذي لم ترحمني أورشليم وأنبياؤها فيه، كنت على أتمِّ الخوف الذي أتقنه جيِّدًا منذ حربي التموزيَّة في لبنان. إذ شعرتُ بأنَّ ذلك الرجل الطويل القامة الذي اسمه مرسي استحال قذيفةً مضادَّةً للدروع، أصابتني في صميم قلبي وأحالتني أشلاء منثورةً في أنحاء أورشليم.

موسيقى تلُّ أبيبي الجميلة. موسيقى لي ولك. لعلِّي

بعد قليلٍ أهوي من حالق هذه الشرفة لمحو أعماقك الإسمنتيَّة. موسيقى صاخبة، صارخة. صراخ. صراخ. صراخ الـ Heavy metal يخفِّف عنِّي صدمة ذلك اللقاء، الذي لم تُسدَل الستارة الأخيرة عليه بعد. كلاَّ، فما زال في الحبل بقيَّة. ما زال هناك أملٌ عابثٌ بترَّهاتي، قد يدفعني من جديد للتنقيب في بئر تلك الشركة السياحيَّة، فقد أعثر عليه مختبئًا هناك. هناك أور شابيرا الآخر تجوَّل. هناك تسكَّع. هناك في معهد أولبرايت اقترف الفبركة على أصولها، وسامر البروفسور الراحل بريان مور، وخاض معه في شؤون الآثار والتاريخ. هناك افتتح مشروع احتياله باتِّحاله شخصيَّتي، منذ عمله في شركة موريا. ما الذي يفعله يهودي أشكنازي في شركة عربيَّة أثبتت أصولها العرقيَّة والقوميَّة في وجهي غضبًا متفجِّرًا على هيئة الرجل الطويل؟ مرسي هذا لديه الأصول. يحوز أصل الحكاية ومبتدأها وخبرها. أجل. لقد لمست، اعتقدت، أيقنت، اشتممتُ رائحة أور الآخر منبعثةً من تهديده لي.

لماذا عاملني بكلِّ تلك الخشونة والقسوة؟ لماذا أدَّى اندلاع اسم أور شابيرا في شركته إلى احتراقه في وجهي؟ ثمَّة لبسٌ في الأمر. ثمَّة فأرٌ يعضُّ مؤخَّرة القصَّة، ويتوجَّب عليَّ تدبير مصيدته الأخيرة المُحكَمة، أيالا. بلى... أيالا كانت هناك أكثر من مرَّةٍ ربَّما. اللعنة عليها، فلقد أفسدت خطَّتي. سدَّت الدروب في وجهي بإلحاحها الملهوف على أور الآخر. أريده! أريد أورا هكذا كانت تتأوَّه متقلِّبةً فوق نيران الشهوة. أريده حيًّا. أريده ميتًا. أريد أور. ويحي، فلأهدأ!

اهدأ يا رجل! ما بك؟ بل ما الذي ليس بك والكلُّ يلعب بك؟!

حسنًا، إنَّ إقامة أيِّ شكلٍ من أشكال التواصل مع أيالا سيحتاج إلى أكبر قدرٍ ممكنٍ من الاعتذارات والتوسُّلات، لكي تصفح عنِّي وتتفهم نوبة غضبي وطردي لها من بيتي، أقصد بيت جدَّتي سوزانا، ووجوب تحمُّلي حشريتها العالية الدقَّة، القاضية بالعثور على أور الآخر بأيِّ ثمن. لا، إنَّ فكرة التواصل معها وطلب مساعدتها حمقاء تمامًا، كحماقتي هذه بوقوفي في الشرفة الزمهريريَّة.

أنأى برغبتي عن الشرفة، والشرفة مآل الحائرين، والقناع مآل الموجوعين والمنبوذين. فليكن القناع إذن. بل هو القناع. أنا لا أعاني من البوست تراوما بل أعاني من الأقنعة. الأقنعة شخصيَّات، والشخصيَّات أرواح وغاياتٌ وأحلامٌ وأمنياتٌ وخيباتٌ ونكبات. آخر الأقنعة كان ميكي، ميكي برينر. هذا كان اسمي في أورشليم، ميكي... ميكي ماوس. هللويا.

***

أتهاوى فوق أريكة داخل الصالة. والصالة كبيرة. سفينة تتأرجح. يتقاذفها موج حيرتي الهادر. أقبض على هاتفي. أتأمَّل به. أتوسَّله فض عزلتي الرهيبة هذه، إذ أكتشف الآن مدى وحدتي، وهذا الثقل الهائل للإقصاء عن واقعٍ لم تعد مجرياته تعنيني منذ أن فقدت طعم الحياة والأشياء وتطوُّراتها. من يخفِّف عنِّي آلامي الآن؟ أين أمِّي، أخي، جدَّتي سوزانا، أبي؟ لم يتبقَّ لي

أحدٌ في هذه الحياة. لا أقارب. لا أحبَّة. لا أصدقاء. وحدي في هذه الشقَّة، والشقَّة سفينةٌ بحاجةٍ لميناءٍ تلفظ أنفاسها الأخيرة فيه، ولا ميناء سوى مريم التي أعثر عليها فاعلةً في الشبكة العنكبوتيَّة. ألقي عليها تحيَّةً مسائيَّةً إلكترونيَّةً عبر الواتس آب، فتردُّها لي بالعبريَّة، لأكتب بالعربيَّة:

- أما زلت غاضبةً إذن؟

- وما أدراك؟

- لأنَّك تكتبين بالعبريَّة.

تستأنف مراسلتي بالعربيَّة هذه المرَّة:

- إذن... العربيَّة لغة راحة البال، والعبريَّة لغة أوجاع الرأس!

- وهل أنا سبب أوجاعك.

- ...

- أجيبي مريم.

- إذا ما أجبتك بنعم فاذا ستقول؟

- سأقول إنَّني تلميذٌ أحمق يخشى فقدان معلِّمته في هذا المساء الموحش.

- وما الذي تريده في هذا المساء يا تلميذي الذي يعتقد أنَّه أحمق؟

- أن تذهبي معي غدًا إلى أورشليم!

- اسمها القدس... بالعربيَّة هي القدس!!

- حسنًا يا نبيَّة الأسماء... هل ترافقينني؟

- وهل أنا صديقتك حتى أذهب معك؟!

- أرجوك مريم... خفِّفي من سطوة قسوتك عليّ.

- وما الذي سنفعله في القدس؟

- اعتبريها جولةً سياحيَّة.

- دعني من حماقاتك أور، فأنا منشغلةٌ جدًّا بإعداد رسالة الماستر. بالمناسبة، هل قرأت المقالة؟

- قرأتها، وسأرسل لك انطباعي في الأيَّام القادمة.

- ولماذا ليس الآن؟

- الآن أنا حائرٌ ومهموم... إلى اللقاء.

- حسنًا كما تشاء. إلى اللقاء.

أُلقي الهاتف بجانبي، وألعن مريم وأنفتها الشديدة في التعامل معي. فمن الذي يفترض به أن يشعر بالدونيَّة، أنا أم هي؟

أنا الأشكنازيُّ ذو الأصول الكييوتسيَّة، ابن التاريخ العسكريِّ التليد، حفيد الناجين من المحرقة، أم هي العربيَّة الفلسطينيَّة، التي يتوجَّب عليها أن تشعر بالامتنان والعرفان لبقائها هي وأسرتها حتى هذه اللحظة في أرض إسرائيل، واحة الديموقراطيَّة والأمن في الشرق الأوسط، المزدحم بالحروب الأهليَّة والدكتاتوريَّة؟

إنَّها مواطنةٌ في دولة إسرائيل. يجب أن نُسمِّي الأشياء وكلَّ الحماقات بمسمَّياتها. مواطنة من السكَّان الأصلانيِّين، تحمل هويَّةً إسرائيليَّةً وجواز سفرٍ إسرائيليًّا

ورقم ضمان اجتماعيّ إسرائيليًّا، وتدرس في جامعة إسرائيليَّة، وتسير وتتجوَّل في طرق المدن الإسرائيليَّة، لتأتي في النهاية طبيبتي هداس وتخوِّف من إصابتي بمرض انفصام الشخصيَّة! بل مريم هي المصابة بالفصام، وأعراض سياسات الهويَّة والمعرفة والأحلام والأسماء. ذلك التشبُّث اليائس والمهووس بأسماء القرى والمدن العربيَّة! مجرَّد لفظها للاسم كان يمثِّل لها تعويذةً سحريَّةً لامتلاكه، تسويةً معيَّنةً معي، تعرب من خلالها أمامي عن رفضها لي ولوجودي على أرضها - أرضي.

***

إحدَّق في المرآة من دون أدنى أملٍ برؤية وجهه بها. هزَّ رأسه بعنف، معتقدًا أنَّ الماريجوانا أصابت عينَيْه بخللٍ عضويّ. ثم حدَّق مرَّةً أخرى، فرأى ملامح لا تشبه ملامحه. فرك عينَيْه بشدَّةٍ حتى احمرَّتا، ثم فتحهما ببطءٍ وحذرٍ لكي يتأكَّد من الملامح. ملامح بريئة، ناعمة، هادئة، وديعة، كانت طفلة، وجهها نابضٌ بالحياة والنضارة. حرَّك عينَيْه ذات اليمين وذات اليسار، ففعلت مثله. رفع رأسه إلى أعلى، فرفعت رأسها مثله. عاجلها بتكشيرةٍ ففاجأته بمثلها. ضحك، ضحكت. مدَّ لسانه بحركةٍ من حركات طفولته البعيدة، فمدَّت لسانها. صرخ، صرخت. قهقه، قهقهت. ثم سألها:

- من أنتِ؟

أجابت بدلالٍ طفوليّ:

- من أنتَ؟

نهرها:

- كفاكِ عبثًا. سألتك من أنتِ وماذا تفعلين في مرآتي؟!

أطلقت العنان لضحكةٍ بريئةٍ صافية، ثم تساءلت بدهشة:

- أنت تراني إذن؟!

- أجل أراكِ. من أنتِ؟!

- أنا لعنتك وبركتك.

- قلت لك من أنت؟

- أنا ماضيك وحاضرك.

- اللعنة! من أنتِ؟

- أنا ألمك وراحتك.

- هل أنتِ طفلة القبو المشؤومة؟

- أنا أنت، أنا آخرك.

- أُحذِّرك. للمرَّة الأخيرة سأسألك من أنتِ؟

- فإذا لم أجبك، ماذا أنت فاعل؟

- سأحطِّم المرآة عليَّ وعليك، سأحطِّمها برأسي.

- لن تقوى على هذا.

- حسنًا، سترين.

ثم ضرب برأسه المرآة، التي انقلبت ثقبًا هلاميًّا مدَّ ألسنته الفضِّيَّة واللازورديَّة الناعمة التي جذبته وامتصَّته إلى جوفها، ثم اختفى مخلِّفًا وراءه لفافة الماريجوانا ودفتر

ذكرياته].

***

أنا الآن مشحوذٌ بالرمق الأخير من ماضيَّ العسكريّ، إذ أقبض على بقايا ضابط المظلّيين الذي كنته، وأنصب كميناً لطريدتي المنشودة بنظري، الذي لا يفارق مدخل شركة موريا للسياحة في حارة النصارى.

منذ الصباح وأنا رابضٌ هنا، في هذا المقهى السياحيّ الذي لا يبعد كثيراً عن طريدةٍ مفترضَة قد تطلّ من باب الشركة. إذ أعود مرّةً أخرى برجاءٍ لا يشي بالكثير من الأمل، بل هو رجاءٌ مثقلٌ بيأسٍ فتّاك، قادني إلى أعماق أورشليم العتيقة لأجلس كما يليق بسائح أجنبيّ ساهمت ملامحي الأشكنازيّة باختراعه، في هذا المقهى الهادئ الذي لم يعجّ بعد بالروّاد والسيّاح، في هذا الصباح الذي أنشد فيه ذلك الموظّف الشاب الذي كاد يبوح منذ أيّامٍ بكلّ أسرار اللعبة الأفاتاريّة وأسرار أور شابيرا الآخر.

أراقب بقلقٍ مُطعَّمٍ بصبرٍ ذي بلاغة عاليةٍ معبّأةٍ بأنفاسٍ طويلة. هكذا درّبوني في الجيش. الكمين نصيب الصابرين. الكمين المحكَم هو للصيّاد الذي يتقمّص دور الفريسة. لا بندقيّة أمتشقها الآن لأقتنص أحد المخرّبين، بل عينَيْن خبيرتَيْن تستر هما عن إثارة الشبهات نظّاراتٌ سوداء ضخمة، تحجب نصف وجهي المُظلَّل بقبّعة رياضيّةٍ رماديّة اللون. ثم أنظر. أُدقّق. أبحث عنه. لم يظهر بعد، رغم صعود بعض السيّاح إلى الشركة وهبوطهم منها. حسناً، من يصبر ينَل، وأنا سأنال ولن

أبرح هذا المقهى إلاّ ومعي طريدتي. ألمح حشدًا من السياح يشرعون بالتجمع أمام باب الشركة. أدقّق بهم بقلب يخفق إثارة. سياح يابانيون لا يتجاوز عددهم العشرة، يقفون أمام مدخل الشركة، كأنّهم ينتظرون وصول أحد ما. وما يلبث هذا الأحد أن يهبط عليهم من علياء الشركة، فإذا هو طريدتي الموظّف الشاب الذي استحال دليلاً سياحيًا بالغ البهجة والحماسة. يقف في وسطهم بينما يتحلّقون حوله ليزوّدهم بتفاصيل المسير السياحيّ داخل أورشليم العتيقة، ثم يقودهم نحو درب الآلام. يعبرون من أمامي. أنغمس أكثر بمقعدي. أشيح بوجهي عنهم لكي لا أثير انتباه طريدتي. وما أن يقطعوا عدّة خطوات مبتعدين عنّي، حتى أدفع ثمن ما شربت وأنطلق بأثر الموكب السياحيّ. أسير وراءهم، على مبعدة منهم تتناسب ونظري وعدم إثارة شبهة الموظّف الشاب، الذي يشرع بمعهود الدليل السياحيّ المتمثّل بتلاوة تاريخ الأمكنة ومعالمها وأصولها. يقفون فأقف، مدّعيًا الانشغال بتفقّد تحف تذكاريّة معروضة على بسطة أحد الدكاكين. ثم يسيرون فأسير. أظلّ على هذه الحال التي أستعيد فيها هيبة شخصيّتي الحربيّة البائدة، حتى نبلغ منتصف درب الآلام، فأتفقّد مدى قدرة هذه الرقعة بالتحديد على توفير ضمانات تكفل مداهمتي للموظّف الشاب، فأجدها مناسبة، خاصّة بعد أن يتوقّف ليدعو الحشد السياحيّ لشرب بعض المرطّبات المنعشة من أحد الحوانيت.

أُدقّق بالرصيف الذي يقع عليه الحانوت، فأجد بجانبه مدخلاً مؤدّيًا إلى زقاق خالٍ وشبه معتم. أغتنم الفرصة

وأنقضُّ عليه على حين غرَّة وأفتكُّه من الحشد، لأجذبه إلى داخل الزقاق بأدنى جلبة ممكنة لا تُثير ريبة السيَّاح أو أيِّ أحدٍ من المارَّة. أبادره بلهجةٍ ادَّعيت بها الشجاعة والتماسك، مستخدمًا كلَّ ما أوتيت من صرامةٍ عبريَّة:

- لم يسعفني الحظُّ بالتعرُّف إليك في المرَّة الماضية.

يتلعثم الشابُّ مأخوذًا بوميض مباغتتي له، ثم يقول بصوتٍ متهدِّجٍ ركيك العبريَّة:

- ومن أنت؟ ماذا تريد منِّي؟

أنتزع قبَّعتي ونظَّاراتي وأفاجئه بوجهي، ليعلِّق مستعيدًا هدوءه:

- آه! هذا أنت صديق أور شابيرا.

ثم ينأى بخطوتَيْن عن وجودي الصادم أمامه، مستدركًا بعبريَّته المصرَّة على توتُّرها:

- وما الذي تريده؟

أعاجله بكلِّ ما أوتيت من معرفتي وفصاحتي العربيَّة هذه المرَّة:

- أريد أن تقول لي أين أور؟

يرتبك من محاصرتي له بالعربيَّة، ثم يسألني بحذر:

- من أنت؟ هل أنت ضابط شاباك؟

أتساءل بصدق:

- وهل توحي هيئتي بأنِّي ضابط شاباك؟

- ضبَّاط الشاباك يجيدون العربيَّة أفضل منِّي أنا

العربيّ.

- لست ضابط شاباك، اطمئنّ... والآن أعلمني بسرعةٍ لكي تلحق بسيّاحك... هيّا!

يغمغم متهكّمًا:

- ولكنّ قل لي لم تسعَ وراءه؟ هل آذاك؟ هل سرق منك شيئًا؟

- هذا ليس من شأنك.

- حسنًا... وما هي علاقة الفتاة اليهوديّة به، تلك التي سألتنا عنه منذ أسابيع، هل هي شاباك أيضًا؟

- قلت لك أيّها الأحمق إنّني لست ضابط شاباك، وهي أيضًا ليست كذلك.

ثم أنقضّ عليه بآخر ما تبقّى في حوزتي من شجاعة، وأجذبه بخشونة من ياقته، ثم أهمس في أذنه بحزمٍ شديدٍ يسعفني به اعتقاده الجازم بكوني ضابط شاباك:

- قل أين هو... لا تسبّب لنفسك مشكلة.

يتوسّل إليّ أن أفلته وهو يسعى مختنقًا للانفكاك من قبضتي، ثم يقول بعد أن أرخي من إطباقي على عنقه:

- حسنًا... حسنًا... هدّئ من روعك. بالمناسبة أنا اسمي شادي، وأنا ابن صاحب الشركة الذي كاد ذلك الأحمق يتسبّب بإغلاقها وإفلاسها قبل أكثر من عام.

أقاطعه بلهفة:

- إذن فقد كان أور يعمل لديكم! لماذا كذب بشأنه الموظّف الآخر، وطردني من الشركة في المرّة الماضية؟

- بلى... ولكن أرجوك، الشيخ مرسي شخصٌ رائعٌ ومحترم، لا ذنب له باستغلال ذلك الوغد عطفه عليه ورعايته له... أرجوك لا تُقحِم الشيخ مرسي في هذا الشأن. عدني بألاَّ تتسبَّب له بالمتاعب.

- حسنًا... أعدك. ماذا عن أور؟

- ومن قال إنَّ اسمه أور؟! هو كان يلقِّب نفسه بأور شايرا. ذلك ما اكتشفناه إثر المتاعب التي أقحمنا بها، بعد أن شتم مجموعةً من السيَّاح الأميركيِّين وخلَّفهم وراءه تائهين في بريَّة صرعة الآثاريَّة.

كم كرهته وكرهت خيلاءه وغروره!

- ما اسمه إذن؟

يضحك الشابُّ ضحكةً خفيفةً ساخرةً وهو يُعيد ترتيب هندامه، ثم يقول:

- اسمه نور... نور الشهدي. ما اسمك أنت؟!

الفصل الخامس

أصحو في أجواء عيد الفصح، لأحشر دفتر ذكرياتي ونقاط تعييني في مؤخرة وقتٍ لم يعد لي، فأنا الآن أشرف على وقتٍ آخر يتراقص على قهقهات أفاتار كنته وكانني.

الآن... الآن... الآن... أهوي من حالق ضمير المتكلّم نحو هاوية ضمير الغائب، ثم انتشلني قطعةً قطعةً من هناك، لألمّ أشلائي فوق ضفاف ضمير المخاطب.

الآن...

سأخاطبكَ نور، سأخاطبكَ كما يليق بأفاتارٍ حقيقيّ.

اسمكَ نور الشهدي إذن. أنت معناي العربيُّ نور، وأنا معناكَ العبريُّ أور، فأيُّ صدفةٍ نورانيّةٍ هذه؟

أهلاً وسهلاً بكَ في شقّتي المتواضعة هذه، شقّة أسرتي التي تُشرف على الانقراض. لا تقلق، سأقوم بتقديمك إليهم جميعًا في الوقت المناسب، فأنتَ منّي، من أسرتي يا رجل.

حسنًا... دعني أُعْلِمُكَ في البداية بأنّني اشتريت حاسوبًا محمولاً من أفضل وأحدث الأنواع لأجلك أنت فقط، لكي أتعرّف من خلاله عليك. لم يكلّفني ثمن الحاسوب الكثير، هل تعلم لماذا؟ لأنّني معفيٌ من الضرائب، وهذه إحدى أفضل مزايا المعلن عنهم بأنّهم من معاقي جيش الدفاع الإسرائيلي.

بلى أيُّها الوغد، فأنت انتحلت هويّة ضابطٍ سابقٍ في وحدة النخبة التابعة للواء المظليّين، يُعاني من أعراض

البوست تراوما، فهل كنت تتوقّع هذا؟

قل لي... هل كنت قد أجريت بحثًا عنّي قُبَيْل انتحالك شخصيّتي وهويّتي؟ أقصد هل جوجلتني على جوجل؟ هذا ما سأفعله أنا الآن، سأجوجلك من دون أن تراني، فأنت لا يمكنك أن ترى الأفاتار خاصّتك الذي هو أنا، يمكنك أن ترى من خلاله فقط. ترى. تلحظ. تلمس مزايا هويّتي الأشكنازيّة.

هيّا، هل أنت جاهز؟ سأكتبك الآن:

نور شهديّ، ثم Go، ثم تنهال عليّ أنت وبياناتك وكلّ أيّامك:

نور مهدي الشهديّ. لاجئٌ فلسطينيّ. أصلك من اللدّ. حسنًا... من مواليد عام 1991. خرّيج المعهد العالي للآثار الإسلاميّة في جامعة القدس. حسنًا، باحث وكاتب متخصّص في شؤون الآثار الفلسطينيّة، والنظام الكولونياليّ الاستيطانيّ الصهيونيّ. حسنًا. تسكن في أحد مخيّمات رام الله. حسنًا. لديك حسابات ومواقع متعدّدة في مواقع التواصل الاجتماعيّ. فيس بوك. إنستغرام. تويتر. ولديك قناة بودكاست(١٠١) أيضًا. حسنًا. فلتسمح لي الآن بتفقُّد بيوتك الإلكترونيّة هذه، التي يتبيّن لي أنّك قد جعلتها عامّةً لا خاصّة. أنت معروفٌ إذن! مشهورٌ أيّها العابث ولا تحبّذ الخصوصيّة. فمن أين أبدأ؟ هل ستأخذ بيدي لتدلّني على أرحب المداخل التي سأدلف منها إليك؟ حسنًا. فلأبدأ قبل التوغّل فيك بإجراء مسح آخر مكثّف لبياناتك في موقع ويكيبيديا هذه المرّة. سأفرقع أصابعي الآن، سأصفّق،

ثم سأعدُّ لفافة ماريجوانا تصحبني في رحلة أنتَ معالمها. بالمناسبة، هل تُحشّش أنت؟ يليق بك الحشيش، أنت الذي كنتُ أعتقد أنّك مجرّد لصّ آثارٍ أشكنازيّ لعين، استتر بهويّتي ليهرّب من خلالها كنوز البلاد الآثاريّة. لم أعتقد للحظة أنّك عربي فلسطينيّ، والطامّة الكبرى أنّك لاجئ يسكن رام الله.

أريد أن أرى صورتك، ملامحك. أنا متلهّف لرؤيتك. أطلب صورك من موقع ويكيبيديا. تلوح وسيمًا. أبيض البشرة بلحية كثّة مضرجة بحمرة خفيفة. شعرٍ عسلي مجعّد. عينان زرقاوان. لحظة! اللعنة! أنت حقًّا تشبه أخي المرحوم جدعون! بالمناسبة، دعني أعلمك بأنّ أخي جدعون قُتل في رام الله قبل اثني عشر عامًا، وفي مخيّمك أنت تحديدًا. ولربّما كانت الصدفة متألّهةً بضرورتها إذا ما قُتل جدعون في الزقاق المحشور فيه بيتك.

حسنًا. أقلِّب صورك. ثمّة صورةٌ لك وأنت منشغلٌ بالحديث في إحدى الندوات. صورةٌ وأنت تتصارع مع أحد جنودنا في إحدى نقاط الاحتكاك والتماس. صورة مع حشد من المتضامنين والمنافقين والمختلّين الأجانب. صورةٌ داخل زقاقٍ في مخيّمك. صورةٌ وأنت تقبّل يد امرأةٍ عجوز، تحمل في يدها الأخرى صورةً لشابّ أقرأ التعريف الخاصّ بها، فإذا هي صورةٌ لسجينٍ مخرِّب من مخرِّبي مخيّمك، يقضي حكمًا بالسجن المؤبّد مدى الحياة داخل سجوننا.

سجوننا نحن. خذ نفَس ماريجوانا. خذ، لا تخشَ شيئًا

يا رجل، فالحشيش سيعينك مثلي على تحمُّلي وتحمُّلك، وسيحملنا معًا في غيمة انفصالٍ عن هذا الواقع المستعصي على إدراكي.

حسنًا. أُدقِّق أكثر بملامحك. أُكبِّر الصور. أريد أن أحفرك في رأسي. أريد لذاكرتي البصريَّة أن تهزج بوسامتك وشبهك بأخي المرحوم جدعون. وسيم أنت يا نور، وسيم وأشكازي. الآن أُدرك لماذا لم تقع في مأزق التفاصيل الصغيرة. الآن أكتشف مدى صعوبة إلقاء القبض عليك متلبِّسًا بهويَّتي من قبل الشرطة الإسرائيليَّة والشاباك، فأنت أنا، لا أقلَّ ولا أكثر. ما مدى براعتك وإتقانك للغة العبريَّة بلكنتها الأشكازيَّة؟ أفترض أنَّكَ بارع. لو لم تكن كذلك لما خلبتَ لبَّ أيالا، وأسرتها بحضورك الفتَّان. أيالا التي تبحث عنك. قل لي الآن بربِّك: هل ضاجعتها؟ اسمع، لا تتردَّد ولا تخجل وقل لي الحقيقة. إذا ضاجعتها فأنت لم تفعل ذلك لأنَّك نور، بل لأنَّك أور. أور شابيرا.

حسنًا... يتوجَّب عليك أن تعلم الآن مدى إمكانيَّة سحقي لك في لحظة. بلى، بإمكاني تحطيمك وسحقك عبر التسبب بإلقاء القبض عليك، وجعلك تشارك صديقك المخرِّب الآخر زنزانةً قذرةً داخل أحد سجوننا. يكفي أن أتقدَّم ببلاغٍ أقول فيه إنَّك انتحلت شخصيَّتي وزورت هويَّتي. يكفي أن أقول، وأنا الأشكازيُّ ابن الماضي العسكريِّ الباهر، وحفيد الناجين من المحرقة والأسرة الثكلى، إنَّك فلسطينيٌّ لاجئٌ من المناطق الفلسطينيَّة، وتشكِّل خطرًا على حياتي وعلى الأمن الوجوديِّ

الخاصّ بدولتي. ها، ما رأيك؟ هل أفعل هذا؟ لا تقلق، لن أفعلها لأنّني أريد أن ألعب يا سيّد اللعبة. أريد أن ألعب بك. ألعب معك. نلعب معًا. فلنلعب!

قل لي قبل أن أغفل عن التباهي بفصاحتي: هل أعجبتك لغتي العربيّة؟

ها أنا أردّها لك، أردُّ عبريّتي الأشكنازيّة التي سرقتها منّي بعربيّتك الفصحى، التي أتعلّمها على يد معلّمة عربيّة سأعلمك بشأنها بعد قليل. ولكن دعنا الآن نمارس شيئًا منك، إذ أنتقل من صورك البائسة هذه التي لم تسرّني إلاّ بأثرٍ من أنني تسبّبت به ملامحك، نحو كاباتك وأبحاثك. يا للهول! أنت لا تضيّع وقتك عبثًا يا رجل! ما هذا الكمّ الهائل من المقالات؟

أنت مثقّفٌ إذن، ولست لصّ آثارٍ وحفّار قبورٍ عتيقة. أنت مثقّفٌ من الطراز الرفيع. أجري مسحًا سريعًا لعناوين كاباتك. أعثر على دراسة لك أثارت جدلاً بحثيًّا في حقل علم الآثار، حول المكان الحقيقيّ لقبر مريم المجدليّة. حسنًا، أنت تفترض أنّ المجدليّة مدفونةٌ في كيبوتس مجدو، حيث قرية اللجون العربيّة المُهجّرة، كما تدّعي أنت. آه، الآن أعلم علمًا مرفقًا بدويّ الألعاب الناريّة سبب التحاقك المزيّف ببعثة معهد أولبرايت، وإسفافك وغلوّك الأشكنازيّ في كيبوتس مشمار هعيمق، خفر الأمّة الصهيونيّة. لقد كنت تبحث عن آثار المجدليّة إذن! ما لك وللمجدليّة أنت أيّها المغفّل؟ لماذا طبخت رأسك بها؟ تخاطر بحياتك وباسمي وهويّتي من أجل إثبات حدثٍ تاريخيّ لن

يقدِم أو يؤخِر شيئًا في إيقاع التاريخ المسيحيّ، ولا بي أنا أيضًا الذي كنت أعتقد أنّك انخلتني في سبيل أمرٍ جلل، فإذا بك تعرِضني لأتفه الوقائع السطحيّة. عليك اللعنة! بالمناسبة، أودّ أن أعلمك بأنّك فشلت بإزالة آثار اعتدائك الآثم على هويّتي، وذلك عندما تعثّرتُ بأيالا التي انطلت عليها خديعتك الأشكازيّة. أيالا هي التي زوّدتني بطرف الخيط، عندما جاءتني بصورةٍ عن بطاقة هويّتك، أقصد هويّتي المنتحَلة، انتزعتها هي من أرشيف حاسوب ضابط الأمن في كيبوتس مشمار هعميق. لا تقلق، فأنا أنكرت صلتي بالهويّة، وقلت بطرد أيالا من بيتي بعد أن اكتشفت أنّها تحبّ المارشميلو كما أحبّ أنا اللعب معك الآن.

حسنًا... هلاّ بدأنا من فيس بوك سيّد نور؟ ما رأيك؟ تفضّل سيّدي، فليكن فيس بوك إذن.

حساب عامّ. سبيل ماءٍ للعابرين والعابرات في دروبك الإلكترونيّة. ماذا سنفعل الآن؟ صفحتك الرئيسيّة مكتظّةٌ بالتفاعلات والتعليقات، تسبّب بها بوست كتبته أنت. فما هو بوستك اللعين هذا؟

«أعتقد أنّ الهاوية التي أصبحنا نتراقص على حافّتها، مُستمعين لقهقهاتها، باتت تملي علينا تطبيقًا إلكترونيًا جديدًا نضمن من خلاله تحرير الوطن افتراضيًا. فليكن اسم التطبيق «حرِر وطنك»».

وتمتاز بحسّ الفكاهة أيُها الكوميديُّ الصغير! تهكّم يا نور تهكّم، لِمَ لا؟

تهكّم بكلّ ما أوتيت من جرأة، فمن مثلك يقوى على

ادِّعاء هويَّةٍ أشكازيَّةٍ بهذه الصورة الباهرة؟

حسنًا، هل ترغب الآن بأن أخاطبك كلمةً لكلمة، أم وجهًا لوجه؟ نتحدَّث حديثًا خاصًّا، ولكن بأيِّ صفة؟ هل أجرؤ أنا على وجه التحديد على فعل هذا، أم أنَّني مستمتعٌ فقط بممارسة هذه اللعبة الإلكترونيَّة؟

لا أعلم. ربَّما. حسنًا، إلى تويتر الآن. لديك الكثير من المتابعين والمتابعات. مؤثِّرٌ أنت أيُّها... أيُّها الماذا؟ بماذا تُحبُّ أن تُشتم الآن أيُّها الأفَّاق؟

أقرأ تغريدتك الأخيرة:

«ترقَّبوا صدور باكورة أعمالي الكلابيَّة، بعنوان «سيرةٌ لكائنات كولونياليَّة». التفاصيل قريبًا...».

وتحبُّ الإثارة أيضًا! تحبُّ التشويق والتسويق لكاباتك أيُّها القطُّ الشقيّ. لا، لا. أنت لستَ سهلاً أبدًا. أنت ماكرٌ يا نور. ماهر. أشكازيٌّ جدًّا جدًّا. صحيح، قل لي: هل ما زلت أشكازيًّا؟ أقصد هل ما زلت تنتحلني؟ متى كانت آخر مرَّةٍ تفوَّهت فيها زورًا وبهتانًا باسمي؟ متى؟!

حسنًا... ما رأيك الآن بأن أستمع إلى صوتك، لكي تمنحني فرصةً للتعرُّف عليك أكثر، للاستحواذ على صوتك. لديك بودكاستٌ أسبوعيٌّ بعنوان «حكي كولونياليّ». ما بك أنت؟ كلُّ شيءٍ لديك كولونياليٌّ كولونياليَّة؟!

ألا تتقن سوى هذا المصطلح؟! ألا تحترم نفسك؟! ألا تعتقد بأنَّك كولونياليٌّ أكثر مني حين استعرت هويَّتي؟! بلى، لا تتَّهمني بالوقاحة الآن أرجوك. أنت استعرت

هويّتي انتحالاً وزيفًا وقناعًا. لا تنكر هذا أرجوك.

فلأستمع إليك الآن. سأستخرج صوتك من أرشيف البودكاست الخاصِ بك، ولا تقلق فمعنا الوقت كلّه. الوقت الجديد الذي أستدرجك فيه يا نقطة تعييني الأخيرة، التي سأريح بها قلب طبيبتي النفسيّة هداس وأكافئها بعثوري عليك. لعلّي أستقيل معتزلاً ترّهاتي ونوبات غضبي وجنوني وذعري، وكلّ أعراض البوست تراوما. لا تخف نور، صحيح أنّني أعاني من البوست تراوما، ولكنّني لست مؤذيًا. قد أجرحك قليلاً، ولكنّني لست مؤذيًا. قد أتسبّب باعتقالك قليلاً، ولكنّني لست مؤذيًا. قد أشارك في حرب أخرى ضدّك وضدّ شعبك، ولكنّي لست مؤذيًا. قد أقتلك قليلاً، ولكنّي لست مؤذيًا.

اللعنة عليك وعلى اللحظة التي انتحلت فيها هويّتي! بلى، الآن أكتشف اللوعة الجارفة. الآن أدرك الأسباب، وأصل البلاء والاختلال والحلم بلغة مخيفة ليست لغتي. أنا أحلم بلغتك اللعينة منذ ما يقارب العامين، فقل لي إذن متى وقعت على هويّتي؟ هل سرقت معطفي الجلديّ الذي كان لأخي جدعون؟ كانت الهويّة في جيبه الداخلي. قل لي: هل ارتديت المعطف؟ هل ما زلت تملكه؟ متى زورت الهويّة؟ قبل عام؟ عامين؟ شهر؟ شهرين؟ متى أيها اللعين؟ متى؟ أجب.

***

[الحلقة الأولى من بودكاست: «حكي كولونياليّ»

مرحبًا... سامعيني منيح؟... صوتي واضح؟ على كلّ حال مرحبًا كمان مرّة... محسوبكم كائن كولونياليّ خاضع تحت النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ الصهيونيّ. وكمان شوي رح أشرحلكم قد ما بقدر شو يعني كائن كولونياليّ... عشان هيك بتمنّى تتحمّلوني، لأنّي رح أستعمل كلمة كولونياليّة كتير في الحكي تبعي.

طيّب... بتعرفوا إنّو إحنا بحاجة للحكي. لازم نحكي... ولازم نصغي لبعض ونفهم على بعض. إذا ما حكينا بنفقع... بننجن... وبنتركب على الآخر. آه صحيح... لازم تعرفوا كمان إنّي رح أستخدم كلمة كراكيب كتير بكلامي. لأنّو إحنا عبارة عن مجموعة مركبين بعالم مركب ملان كراكيب. صحّ ولا لأ يا حبايبيني؟

ماشي... رح أحكي بكثير شغلات وأمور... رح أركّب على وجعي سمّاعات كبار عشان تسمعوا صوتو. وجعي هو وجعكم، وحتى الحكي هو حكيكم. رح أحكي بشغلات بتفكّروها إنتو بديهيّات، بس هي عبارة عن كراكيب هائلة. مصائب ماشية معنا كأنّها خيالنا. إحنا عايشين بعالم بسّ اللي بعرف تفاصيلو بيقدر يعيش فيه. وإحنا بحسب اعتقادي فش عنّا ترف القدرة على امتلاك التفاصيل... بجوز لأنّو إحنا جزء من هاي التفاصيل.

طيّب... أنا بدّي أحاول بمعيّتكم أوصل لمرحلة أقدر فيها أجاوب على عدّة تساؤلات، أكيد من أهمّها مين إحنا؟ ليش هيك صار فينا؟ أيمتا صرنا كائنات

كولونياليَّة خاضعة؟ شو قصدو الجنديّ الصهيونيّ لمَّا يأخّرني على حاجز التفتيش عن شغلي بحجَّة الدواعي الأَمنيَّة؟ ليش المستوطنين حرقوا عيلة دوابشة؟ وليش جماعة المستوطنين بقوموا بإحياء ذكرى المحرقة النازيَّة أو الهولوكوست؟ من وين هلّوا علينا هدول الجماعة؟ طيّب هم زيّنا كائنات كولونياليَّة ولا لأ؟ كتير تساؤلات رح أسألها... فعشان هيك لازم نعرف كيف بدنا نجاوب عليها. يعني لازم إجاباتنا تكون مربوطة بالمعرفة، والمعرفة يا حبايبيني بتاخدنا على المقاومة، والمقاومة الشاملة بتاخدنا على المعرفة الشاملة، وهكذا. بس المهمّ نعرف إنو قوَّة معرفتنا مش ظلم وسيطرة وتحكّم... قوَّتنا عدالة وحرِّيَّة... إجاباتنا لازم تستند على وعي تاريخي. شو يعني وعي تاريخي؟ يعني إنَّها تكون عندنا القدرة على فهم التاريخ وحركته وأحداثه... يعني لازم نصير كائنات تاريخيَّة واعية. عشان هيك أنا بدّي أقترح نقطة تعيين أأسّس عليها انطلاقتي بسياقي التاريخي، يلّي بجوز رح يودّيني على إجابات مقاومة...].

***

تقتحم مريم خلوتنا الإلكترونيَّة. مريم فاطم، هل تعرفها؟ هي المعلّمة التي لقّنتني أسس لغتك ولغتها. بلى، إنَّها عربيَّة من جماعتك، فدعنا نرَ ما الذي تريده مريم هذا المساء. بالمناسبة، في أيِّ يوم نحن؟ أي مساء؟ أي شهر؟ هل تعلم؟ أجبني. فأنا نسيتُ الوقت، وقتَ تلّ أبيب برفقتك. نسيتُ كلَّ شيءٍ لأستعدَّ متجهّزًا لك بكلِّ عتادي، المتمثّل بعزلتي هذه وما يكفل بقائي على

قيد الحياة من تموينٍ غذائيٍّ يكفيني لبضعة أيّام، فهل أنت سعيد؟

حسنًا، لنَرَ ما الذي تريده مريم بواسطة الواتس آب:

- مرحبًا أور، كلُّ عامٍ وأنت بخير.

أجل، إنّه عيد الفصح. تحبُّ الرسميّات مريم. تفرّق ما بين تلّ أبيب الصهيونية وبين أعيادها اليهوديّة. عيد الفصح الذي لم أمارس طقوسه محتفلاً به يومًا كيهوديٍّ صالح، فأنا أنتمي لأسرةٍ علمانيّةٍ تمامًا، كانت تستغلّ عطلة الفصح المديدة من أجل السفر والاستجمام في أرجاء العالم. ولكن لا يعني هذا ألاّ أردّ المجاملة لمريم. ما رأيك يا نور؟ حسنًا.

- وأنت بخير يا مريم... كيف حالك؟

- بخير. أجبني أنت... هل أنت بخير؟ لم نلتقِ منذ فترة. أين أنت؟!

أرأيت يا نور؟! مريم معلّمتي وصديقتي، شاءت أم أبت. انظرا إنّها تسأل عنّي وهي قلقةٌ عليّ. ولكن لا تقلق، فعلاقتي بها مشوبةٌ بتوترٍ مزمنٍ سببه هي أو أنا. لا أعلم. إذ كلّما أن ننهي درس اللغة العربيّة حتى نقحم نفسَينا بمهاترات ونقاشات لا جدوى منها. نقاشات تتجاذب أطرافها أنت في مقالاتك، أقصد في ترهاتك الكولونياليّة هذه:

- أنا بخير... منزوٍ في الشقّة، ناءٍ بنفسي عن تلّ أبيب هذه الأيّام.

هل تعلم لماذا قلت لها هذا الكلام يا نور؟ سأُعلمك،

فأنت منّي وأنا منك، أليس كذلك؟ ما الضير بإدخالك إلى عالمي الجوّاني؟!

حسنًا... قبل أيّام وقعت عمليّةٌ تخريبيّةٌ هنا في تلّ أبيب، في شارع ديزنكوف الذي لا يبعد عن مسكني هذا كثيرًا، حيث قام مخرّبٌ من جماعتكم بإطلاق النار بشكلٍ مفاجئٍ على روّاد أحد البارات هناك، فأردى بعضهم قتلى والآخرين جرحى، وفرّ من المكان، لتشتعل تلّ أبيب مدجّجةً بقوّات الأمن، التي ظلّت تبحث عنه حتى عثرت عليه فجرًا مختبئًا في يافا العتيقة، فأردوه قتيلاً بعد أن رفض تسليم نفسه لهم. ولهذا أنا خائفٌ يا نور. لن أنكر خوفي هابطًا من شقّتي هذه من أجل التجوّل في تلّ أبيب وشارع ديزنكوف، أحبّ الشوارع إلى قلبي وأطولها.

فماذا لو كنت هناك أنا ليلة السابع من نيسان؟ ماذا لو كنت أحتسي كأسًا برفقة أحد الأصدقاء؟ مع أنّه لا يوجد لديّ أيّ صديق.

حسنًا، أعلم أنّك ستقول، لو سنحت لك الفرصة، إنّ ذلك المخرّب لجأ إلى السلاح والقتل لأنّه استيقظ ذات صباحٍ على رائحة العفن التي تفوح من جثّة أمله وحياته ومستقبله، فلم يدّخر جهدًا في التضحية بنفسه قربانًا على مذبح المقاومة والحرّيّة. ومن هنا لا تستغرب أرجوك قدرتي على تقمّصك وتخيّلي الجيّد لما كنت ستقوله، فأنت لن تختلف كثيرًا عن مريم، التي برفضها التعليق استنكارًا لذلك الاعتداء الإرهابي هربت أكبر قدرٍ ممكنٍ من حزنها السرّيّ على مقتل المخرّب في يافا. ربّما

حزنت أيضًا على روّاد البار القتلى المساكين. ربّما هي مثلي على وشك الغرق في دوّامة الفصام. لا أعلم.

دعنا الآن من جدالٍ عقيم، ولنعد إليها، إلى مريم، التي ترسل لي متسائلة:

- ألن تخرج من عزلتك هذه؟

بماذا أجيبها؟ ماذا تقترح أنت يا نور؟

حسنًا سأجيبها بغتةً هكذا:

- هل تعرفين كاتبًا فلسطينيًّا اسمه نور الشهديّ؟

ها، ما رأيك؟ لقد فاجأتك أليس كذلك؟ فاجأتك أيّها اللعين بسؤالها عنك وعن اسمك وأصلك. فلنرَ إذن بماذا ستجيب:

- أجل. لا أعرفه شخصيًا، ولكنّني أقرأ مقالاته وأستمع للبودكاست الخاصِّ به. وسيصدر له كتابٌ في وقتٍ قريب.

هنيئًا لك يا نور، فهذا دليلٌ آخر على شهرتك. مريم البهيّة من أشدِّ معجبيك.

لحظة، فهي ترسل من جديد:

- ولكن قل لي من أين تعرفه؟ هل قرأت له؟!

أرتبك قليلاً. بماذا أُجيب؟ قل! هل أقول لها إنّك لصٌّ أفّاق ومنتحلٌ لهويّةٍ ليست لك؟

- ومن أين لي أن أعرفه يا مريم؟ كلُّ ما في الأمر أنّني كنتُ أتجوّل في بعض المواقع الإلكترونيّة العربيّة من أجل تقوية لغتي بعد انقطاعي عن الحصص معكِ

فتعثَّرت بمقالاته. بالمناسبة، قولي لي ما معنى كلمة كراكيب؟ كركوب؟

- لا أعتقد أنَّها كلمةٌ فصحى، ولكنَّه يستخدمها كثيرًا في أحاديثه وتعني فوضى... خربشة... ارتباك. ولكن قل لي ما رأيك بمقالاته ومدوّنته الصوتيَّة؟

لاحظ يا نور، أنا الآن مقبلٌ على شجارٍ حادٍّ مُشبع بالشتائم مع مريم. لاحظ:

- لا تعنيني ترَّهاته بأيِّ شيء. مجرَّد شخصٍ مهووسٍ بالكولونياليَّة، ويريد أن يقنع العالم بأنَّ إسرائيل دولة فصلٍ وتمييز عنصريَّين.

- بل أنت المهووس بضميركم الصهيونيِّ المرهف، وشعاركم البرَّاق: «إسرائيل دولة يهوديَّة وديموقراطيَّة».

أرأيت يا نور؟ لقد شرعت بالانقضاض عليّ، فكيف تحبُّ أن أردَّ عليها؟ هل أشتمها؟ هل أصفها بالحقد والعنصريَّة والشوفينيَّة:

- كونكِ تعيشين مواطنةً في هذه الدولة، فهذا هو التطبيق الحقيقيُّ لشعار «إسرائيل دولة يهوديَّة وديموقراطيَّة».

- أور، أنتم تحمّلونا أوزار واو العطف الواقعة ما بين اليهوديَّة والديموقراطيَّة. تكمن المشكلة بواو العطف التي ليست مضطرَّةً للعطف على الديموقراطيَّة دائمًا. لا يمكن للدين، أيِّ دينٍ كان، أن يستوعب مفاهيم الديموقراطيَّة في أرجائه.

سأستفزُّها أكثر، ما رأيك يا نور؟

- فيلسوفةٌ أنتِ في هذا الليل الكئيب يا مريم. فيلسوفةٌ صغيرة.

- وأنت أشكازيٌّ سطحيّ. مع السلامة.

- مع السلامة يا فيلسوفتي الصغيرة.

ما رأيك يا نور؟ أرأيت ما هي طبيعة نقاشاتي الصاخبة القصيرة الأنفاس مع مريم؟

لا تعطِني رأيك، سأعرفه بعد قليلٍ عندما أطَّلع على ترَّهاتك أنت أيضًا، فالوقت كلُّه لك. دعني الآن أطلعك على المزيد من مريم، لأنَّني أعتقد، وكلِّي ثقةٌ باعتقادي هذا، بأنَّك تستنكر الآن هذه العلاقة المختلَّة التي تجمع بين رجلٍ أشكازيٍّ وامرأةٍ عربيَّة. من هنا دعني أوضِّح، مزيلاً عنكَ استنكاركَ البغيض، بالقول والأسف يعتريني إنَّ العطب الذي أصاب كينونتي الحربيَّة أدَّى إلى إفساد أحلامي بلغتك العربيَّة. ولكي أصلح هذا العطب يتوجَّب عليَّ التوغُّل في أصوله ومسبِّباته وحروفه، التي اكتشفت بعد تورطي بتعلُّم اللغة العربيَّة أنَّها مغمَّسةٌ بسموم مريم الفتَّاكة، مريم التي لم تتردد بتعليمي، إثر اكتشافها فداحة الخرافة التي أعاني منها بسبب البوست تراوما. للأسف نور، لو لم أكن معطوبًا لما قبلتْ مريم بتعليمي أصول لغتك ولغتها، ولهذا لا تستنكر أرجوك. لا تستنكر العلاقة التي تجمع بين أشكازيٍّ معطوبٍ وعربيَّةٍ سامَّةٍ أو حالمة.

***

[الحلقة الثانية من بودكاست: «حكي كولونياليّ»

مرحبًا حبايبيني...

اليوم بدنا نحكي أكتر عن نقطة التعيين. شو معنى نقطة تعيين؟ هادي النقطة بتعني نقطة انطلاقة وبداية، أنا بحدِّدها عشان أبلِّش منها بتحليل وتفكيك وفهم وانتقاد مجموعة من المحدِّدات والظواهر والحركات التاريخيَّة. يعني أنا شو عنوان حكاياتي الكولونياليَّة هادي؟ العنوان هو تفكيك النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ الصهيونيّ... يا حبيبي ما أكبر هالعنوان!

يعني بدنا نبلِّش بفهم مفهوم التفكيك، بعدها بدنا نروح نفهم شو يعني نظام، ويا إلهي قدِّيش بكره هادي الكلمة! بكرهها... أنا بكره النظام لأنِّي ما بحبّ الأمور والتفاصيل والأشياء توصلني جاهزة بدون ما أكون أنا جزء من تأسيسها وخلقها. طيِّب... بعد النظام لازم نفهم الكلمة الكبيرة، الله يلعنها من كلمة، وهي الاستعمار أو الكولونياليَّة. بالنسبة إلي أنا بحبّ أستخدم كلمة كولونياليَّة، لأنِّي بحسّ أحيانًا إنَّها كلمة استعمار مجحفة بحقنا أو بحس إنو إحنا مسخرة عن جدّ لمَّا نستعملها. كلمة كولونياليَّة بصورتها هادي المعرَّبة هي أدقّ بوصف وتحليل الكراكيب اللي إحنا عايشين فيها. ولمَّا نفكّك الكولونياليَّة رايحين تفهمو قصدي منيح من وراء معناها. بالوقت نفسه أنا بدِّي أحكي عن الاستيطان وأشكاله وأنواعه ودوافعه. بس الكلمة اللي رح أنهلك وأنا بفكّك فيها هي الصهيونيَّة. أوف ما أكبر هالكلمة... ما أعمقها ما أوحشها! بتعرفوا شغلة؟...

أحيانًا بشعر بعد ما فهمت إنّي كائن كولونياليّ خاضع إنّها علاقتي مع الصهيونيّة هي علاقة حميميّة مريضة أو مختلّة. أحيانًا بشعر إنّي مشتاق إلها كثير، رغم إنّي بكرهها كثير. وبتمنّى منكم ما تفهموني غلط، لأنّي كمان شوي رح أشرح أكثر عن هذا الموضوع... وبعد ما أقوم بالحكي عن كلّ هادي المفاهيم، بدّي أرمي بوجوهكم مفهوم مركّب وخطير ومخيف ومش إنساني، ألا وهو الأبارتهيد الكولونياليّ. كمان رايحين نحكي عن عدّة الشغل الخاصّة بالكولونياليّة، يعني تقنيّاتها، أو إذا بدكم بلغتكم الإلكترونيّة التطبيقات تبعتها، مثل التطهير العرقي، التطهير العرقي الزاحف والشمولي، احتجاز حيّز المكان وحيّز الزمان، الأماكن المغايرة، الإبعاد، المصادرة، القتل، الخطاب...

آه صحيح نسيت أحكيلكم إنّي رح أحكي كمان عنّا إحنا... يعني معقول بدنا نفكّك الآخر الكولونياليّ المسيطر من دون ما نفكّك حالنا إحنا كمان؟! شكلكم نسيتو إنّي أنا حكيتلكم المرّة الماضية إنّو أنا وإنتو عبارة عن كائنات كولونياليّة؟ بس أنا رح أحكي عن كركبتنا إحنا بالوقت المناسب، لأنّه بالأوّل لازم نفهم شو هي محدّدات الرحم اللي نولدنا منو ولادة قيصريّة صهيونيّة مشوّهة].

***

صباح الخير نور...

كيف حالكَ هذا الصباح؟ ماذا تفعل؟ ما هي مشاريعك اليوم؟

هيَّا، فلنطَّلع سويًّا على آخر مستجدَّاتك.

أفتح صفحتك الخاصَّة في إنستغرام. صورٌ جديدة. أنت نشيطٌ للغاية. يبدو أنَّك مهووسٌ بالتواصل الاجتماعيِّ الإلكترونيِّ. لِمَ لا؟ فالربُّ هذه الأيَّام بات ربًّا إلكترونيًّا، فلم لا تنتهز الفرصة أنت لصعود هذا المنبر من أجل نشر كتاباتك وأقوالك، أيُّها النبيُّ الإلكترونيُّ؟

صورك جميلةٌ هذا اليوم. هل تناولت إفطارك؟ ما هي الموسيقى التي تستمع إليها الآن؟ ربَّما فيروز. قالت لي مريم إنَّ العرب لا يفتتحون يومهم بلا صباح فيروزي، ولا يختتمونه أيضًا بلا صوت أمِّ كلثوم. حسنًا، سأتأمَّلكَ الآن وأنت تعلن أنَّك ستشارك اليوم في ندوةٍ ستتحدَّث فيها عن رموز النكبة، نكبتكم أنتم التي تحتفل بها نحن عيد استقلال. هدِّئ من روعك، ودعنا لا نتشاجر هذا الصباح على التاريخ والهويَّات والأسماء والرموز، ودعني أؤكِّد على وسامتك. قل لي: هل وسامتك هي التي حفَّزتك على ارتدائي؟ على إحالتي إلى أفاتارك الخاصِّ؟! لحظةً واحدة، لم لا يكون الأفاتار هو القناع؟! بلى، أنت أحلتني إلى قناعك. أنا قناعك الأزرق والأبيض الذي راودتَ من خلاله إسرائيل وأربابها. راودت أيالا ومشمار هعيمق وكيبوتس مجدو وتلَّ أبيب وأورشليم. راودت وسحرت وتهكَّمت. ألم تشعر بفداحة التناقض يا رجل؟! ألم يحرقك قلبك الفلسطينيُّ أثناء ارتدائك لقناعٍ يهوديٍّ أشكازيٍّ صهيونيٍّ؟! لو كنت مكانك لاحترقتُ وجننتُ ووقعتُ

مهشَّمًا في هاوية الالتباس.

حسنًا...

أنا أفكّر الآن بصورة جدّيّة للغاية بالانخراط أكثر في لعبة الأقنعة هذه. ما رأيك؟ سأرتدي قناعًا أنا الآخر. لِمَ لا؟ قناعٌ أراك وأتعرّف عليك من خلاله. لن أتخلّى عنك نور. لن أتخلّى عن آخَرِي، فمن أنا لولاك أنت؟ سألتقي بك؟ سأحادثك؟ فما الضير في ذلك؟! الخوف؟ الذعر؟ الغضب؟ الصدمة؟ ماذا ستفعل؟ ماذا سأفعل؟!

سأرتدي قناعًا لا يمتُّ لي بصلة كما فعلت أنت. سأدَّعي أنّني فرنسيّ، لا... أميركيٌّ، لا. ألمانيّ، نعم ألمانيّ... فأنا ذو أصولٍ ألمانيّةٍ مُحترقة. فليكن اسمي يورغن. ألمانيٌّ خالص. واسم عائلتي فروم. رائع! اسم يقطر جرمانيّةً خالصة: يورغن فروم.

وأمّا صفتي ومهنتي، فسأدَّعي أنّني صحافيٌّ وباحثٌ مختص بالشؤون العربيّة، الفلسطينيّة منها تحديدًا، وأتقن العربيّة بعد أن درستها في جامعة فرانكفورت. فرانكفورت مسقط رأس جدّتي سوزانا. وأمّا ما يدعوني إلى التواصل معك فهو منطلق من موقعي الثقافيّ المهووس بالعرب. أنا أور، أقصد أنا يورغن فروم. سأتواصل معك من أجل إجراء مقابلة أناقشك فيها متجاذبًا معك أطراف مقالاتك ومواقعك وآرائك السياسيّة والثقافيّة، ها... ماذا قلت؟! إنّه قناعٌ جيّدٌ ومتقن، أليس كذلك؟! قناعٌ سأخدعك من خلاله، فأنت تحبّ الإعلام والنشر، ومُفعمٌ بحبّ الظهور. هل أنت موافق؟ حسنًا... فلنلعب اللعبة كما يليق بقناعَيْن

وسيمَيْن، فأنت كنت قد لاحظت وسامتي عندما استبدلت صورتي بصورتك في بطاقة الهويّة. لحظة، هل ما زلت تحتفظ بصورتي أم ألقيتها على قارعة طريقٍ إسرائيليّة أو عربيّة؟!

سأفاجئك يا نور ببلاغة قناعي الألمانيّ، وفصاحة لغتي العربيّة، كما فاجأتَ أنتَ أيالا وجماعتنا بلغتكَ العبريّة الأشكنازيّة. سأخاطبك، سأراسلك، سأراقبك، سألعن أصل أصلك، وقد ألتقيك. من يدري؟ كلُّ شيءٍ وارد.

أدقّق في صورك مرّةً أخرى، ثم أقف قبالة المرآة المعلّقة في صالة الشقّة وأقول:

«صباح الخير... أنا نور... نور الشهديّ». لا، لا بل سأقول:

«عمتم صباحًا. أنا يورغن... يورغن فروم».

***

[الحلقة الثالثة من بودكاست: «حكي كولونياليّ»

اليوم بدنا نحكي عن الكائن الكولونياليّ الخاضع. وأوّل إشي لازم تعرفوا إنو الكائن الكولونياليّ مش إنسان. بقصد إنو هو عبارة عن كائن معيّن... مخلوق بس بدون ملامح، بدون وجه واسم وهويّة. ممكن أحد منكم يسألني هلّق كيف إحنا بدون أسماء وملامح؟ ولو!

طيّب... معقول أنا بحكي هبل؟! معقول إنّها المرآة اللّي بشوف فيها وجهي بتكذب عليّ؟! هون التفاصيل... لمّا نكتشف إنّها المرآة كذّابة مزيّفة... مرآة مش أنا اللي صنعتها، مرآة صنعها الآخر الكائن الكولونياليّ المسيطر.

وعشان أعرف شو يعني كائن كولونياليّ خاضع لازم أعرف بالأوّل شو يعني كائن كولونياليّ مسيطر... يعني أنا بقدرش أتعرّف على ملامحي الحقيقيّة إلاّ إذا كسرت المرآة. والمرآة هي المعادلة الكولونياليّة اللي فيها طرفين، واحد إيجابيّ وواحد سلبيّ... وواحد مسيطر والتاني خاضع. يعني لو مش موجود هادا الكائن الكولونياليّ المسيطر، كان أنا مش موجود ككائن خاضع. كان أنا هلّق إنسان طبيعيّ مثل أيّ إنسان ثاني بالعالم. بس لأ... القصّة مش بهادي البساطة... لأنّي أنا كفلسطيني مصنّف بشكلٍ مسبق في ذهنيّة المحتلّ الكائن المسيطر. يعني أنا بتصنيفه مخرّب... إرهابي... معادي للإنسانيّة والساميّة... جاهل... متخلّف عصبي... دموي... شهواني... كسول... جشع... أناني خامد...

الكائن المسيطر هو يلّي حطني بهادي الخانة، مع إنّي أنا مش هيك. بس هو لأنّه بمتلك القوّة وكلّ التفاصيل،

قدر إنُّو يعمل خطاب كامل من الأحكام والأفكار والتصنيفات المسبقة، وربطها بدبّاباته ومقاتلاته وبواريده وبوارجه الحربيّة وقال إنت هيك... إنت هيك غصب عنك... وصار يطلّع وينظر إليّ بملامح واحدة موحّدة... وملامح مش إنسانيّة.. كلّ الفلسطينيّة صاروا كائنات كولونياليّة خاضعة، إذا في إلهم أسماء فهي محمّد أو أحمد. يعني باختصار شو يلِّي عملو الكائن الكولونياليّ المسيطر؟

اللي عملو إنُّو فكّكني، وبعد هيك اخترع شيفرة خاصّة في... زيّ الشيفرة الإلكترونيّة... زيّ الباركود. يعني أنا صرت جزء من خطاب إلكتروني شامل. شو هي أجزاء الشيفرة تبعتو؟

هي شيفرة مزدوجة... يعني شيفرة مخرّب في مقابلها شيفرة قمع وتحييد... شيفرة متخلِّف مقابلها شيفرة تعليم كولونيالي مستنير. الشهوانيّة مقابلها انضباط، المقاومة مقابلها قمع. الحركة مقابلها إقصاء.

كمان إشي لازم نعرفو. الكائن المسيطر فش إلو وجه وملامح طبيعيّة وإنسانيّة... هو مكركب مثلنا. يلِّي بقصدو مين فينا إحنا الفلسطينيّة عمره حفظ ملامح أو وجه الجنديّ الصهيونيّ على حاجز التفتيش؟! بشرفكو تحكولي لمّا تجيبوا سيرة جندي أو حدا صهيوني شو أوّل منظر بخطر على بالكم؟! أكيد منظر شابّ أشقر وعيونو زرق. صحّ ولاّ لأ؟! طيِّب إنتو بتعرفوا شو اسم الجندي؟! أكيد لأ، وأكيد إنّو رح نادي باسم موشيه أو شلومو أو كوهين!].

***

ها أنا في طريقي الآن للقاء طبيبتي هداس، فاعذرني يا نور على إقحامي لك بي وبعقدي النفسيّة، وبهذه الموسيقى التي تزلزل أسس دماغي. ولكن لِمَ تعذرني؟ لا تعذرني، فأنا أقدّم لك خدمة جليلة بإدخالك إلى عالمي النفسيّ. ألم تكن ترغب بعد انتحالك شخصيتي بمعرفة تفاصيل حياتي؟ هذا ما أفترضه الآن أثناء صعودي إلى العيادة. وعليه فإنّي أحذّرك قبل أن ندخل بعدم التفوه بأدنى همسة أثناء جلوسنا برفقة الطبيبة، لأنّها على درجة عالية من البراعة النفسيّة الطبّيّة، والتي لن تتردد من خلال بتأكيد إصابتي بمرض انفصام الشخصيّة. ولهذا أرجوك دعني أقود دفّة الحديث، على أن أُعلمك سرًّا بفحوى الجلسة. كما أنّه يمكنك الآن إرفاق شتائمك بشتائمي السرّيّة، التي سأكيلها لعومر موظّف الاستقبال:

- عصيرة طيّبة سيّد شابيرا! تفضّل، الطبيبة بانتظارك.

يلى نور، اشتمه كما تشاء، مؤكّدًا كم كنت أنا محقًّا بنفوري منه. حسنًا... ها هي طبيبتي، هل تراها؟ انظر كم هي شهيّة، مغرية، مثيرة! انظر إلى فخذيها الغضّين! يبدو أنّها منشرحة البال والفخذين اليوم. يا لحظّك الشبق يا رجل!

- أهلاً أور. تفضّل بالجلوس.

تفضّل نور. اجلس معي من دون أن تهمس بكلمة كما اتّفقنا. اجلس وتصبّب عرقًا على حسن هذه المرأة ذات الأنفاس النفسيّة الطيّبة:

- لقد قلقتُ عليك بعد أن ألغيتَ موعدنا المفترَض قبل يومَين.

سأكذب عليها الآن، هي التي تعلم تمامًا بأنني كاذبٌ رديء.

- لقد كنتُ منشغلاً بمعالجة بعض الشؤون القانونيَّة المتعلِّقة بإرث عائلتي.

ترمقني بهدوء. أنا أعرف نظراتها الثاقبة هذه. إنها تخترقني الآن. احترس يا نور... هيَّا اختبئ وراء الأريكة، فقد تكشف أمرك هذه اللعينة.

- محيَّاك نابضٌ بالحياة، وهذا أمرٌ مُشجِّع. ما الذي ألمَّ بك؟

- ألا يسرُّك هذا؟

- يسرُّني كثيرًا.

شكرًا يا نور، فالفضل كُلُّه يعود إليك في نضارتي النهاريَّة هذه.

- هل ستُطلعني على آخر كتاباتك اليوم.

بماذا أجيبها الآن يا نور؟ هل أقول لها أنني حشرتُ الدفتر بمؤخِرة وقتٍ لم يعد لي؟ هل أفضي بك إليها؟ هل أعترف إليها بأنَك معي الآن.

- أشعر بأنَّ آليَّة الكتابة باتت تخنقني أكثر ممَّا تُريحني... تزيدني خوفًا بالأحرى.

- من ماذا الخوف؟

- من تراكم نقاط التعيين التي تطلبينها منِّي.

- وهل تختلق نقاط التعيين، أم هي مختبئةٌ في مسار حياتك وذكرياتك؟

أتجنَّب الإجابة، وأقفز كأرنبٍ بَرِّيٍّ إلى ضفَّةٍ أخرى من ضفاف الحديث:

- ما رأيك بأن أكتبها كرواية؟ ألم تنصحيني أنتِ بهذه الحماقة؟

تبتسم ابتسامةً خلَّابة، تخلب بها لبِّي وربَّما لُبَّك يا نور:

- إنَّ كتابة روايةٍ حماقةٌ بالفعل، ولكنَّه فعلٌ جيِّدٌ إذا كان سيتسبَّب براحتك. الرواية قد تكون في بعض الأحيان المثوى الأخير لكلِّ ما نخشاه ونعاني منه.

أأعجبتك هذه الحكمة الجميلة التي أطلقتها في وجهَيْنا، أقصد في قناعَيْنا يا نور؟ بلى، تعجبنا. أقول:

- حسنًا... ولكن لن تكون الرواية عنِّي، وعن سيرتي الغابرة أو الحاليَّة.

- عمَّن إذن؟

هل أبوح لها بالسرِّ الآن يا نور؟ هل أقول لها إنَّني سأكتب الرواية عنك وعن كيفيَّة انتحالك هويَّتي؟

- سمعتُ مرَّةً ديفيد جروسمان يقول في إحدى حواراته المتلفزة إنَّه على استعداد لتقمُّص شخصيَّة قائد معسكر إبادةٍ نازيٍّ في سبيل كتابة روايةٍ عن المحرقة النازيَّة.

- وهل ستُقدِم على فعل ذلك أنت؟

- فعل ماذا؟

- كتابة روايةٍ عن المحرقة وضحاياها والناجين منها؟

- بل سأكتب روايةً أتقمَّص بها شخصًا آخر... شخصًا سواي.

- ومن هو؟

- لا أعلم... عربيّ... فلسطينيٌّ ربَّما.

***

أرأيت يا نور كيف تفاجأت هداس من اختتامي للجلسة؟ فأنا لاحظت ذلك من ارتعاشة خدَّيها، اللذين كنتُ على وشك امتشاقهما ووضعهما على كتفي وكتفك، معلنًا خلاصي منها ومن علاجها النفسي، هي الطبيبة المختلَّة التي تريد أن تثبت فرضيَّاتها عليَّ. تارةً فرضيَّة الفصام، وتارةً نقاط التعيين، وتارةً القابليَّة للانتحار. ألا لعنةً لعناء شديدة اللعنة تحلُّ عليها وعلى عيادتها وعلى سكرتيرها عومر، هي التي لم أعلمها إكرامًا لك بقدومك معي إلى عيادتها، كما لم أعلمها أيضًا بأنَّني عثرت أخيرًا على نقطة التعيين النهائيَّة، نقطة الخلاص.

أنت نقطة التعيين يا نور. أنت أيُّها اللعين المبتدأ والخبر. والآن، هلمَّ معي لكي أُعرِّفك إلى آخر شبه الأحياء في أسرتي، أبي نيتسان. أبوك، ألا تعرفه؟ أبوك الذي تدرَّبت على لفظ اسمه أكثر من مرَّة وأنت تتجهَّز لخوض غمار ميادين إسرائيل وفضاءاتها. دعني أُعلمك إذن أنَّ أبانا قد هوى في لجَّة العماء البدنيّ، ويصارع الغيبوبة منذ أكثر من عام. ألم تزره في مستشفى إيخلوف أيُّها الابن العاق؟ ألم تلحظ أنَّ ثمَّة خللاً في

هويَّتك يتعلَّق بأبوَّتها التي ضاعت؟ حسنًا... لا عليك، فمن أين لك أن تعلم بغيبوبة أبي؟ حتى أنا أغفل في بعض الأحيان عن زيارته لاعتقادي بأنَّه مات منذ أن قُتِلَ أخي جدعون بمخيَّمك اللعين، لا بل مات منذ أن أمعنت أمِّي بإذلاله وكسره.

حسنًا... توقَّف! ثمَّة دويٌّ في الأرجاء... في السماء... في الفضاء. إنَّه دويُّ صفَّارات الإنذار. اللعنة! ماذا هناك؟! فلنختبئ! هيَّا، ثمَّة غارةٌ صاروخيَّةٌ أطلقتها جماعتكم الإرهابيَّة. هيَّا، ألا تريد أن تختبئ؟! لحظة... لحظةً واحدة! ثمَّة أمرٌ غريب! لماذا توقَّفت السيَّارات؟ لماذا لا يلجأ المارَّة إلى الملاجئ؟ لماذا لا يهرعون مثلي خائفين نحو ملاذ آمن؟ ألتفت حولي. انظر معي نور، ثمَّة خطبٌ ما. أضع يدي على رأسي وأعضُّ شفتي. اللعنة! إنَّها صفَّارة ذكرى المحرقة، صفَّارة الحداد والوقوف دقيقة صمتٍ على أرواح من حُرِقوا وقُتِلوا إبَّان المحرقة النازيَّة. اللعنة! هيا، قف معي. قف قلت لك، ألا تتمتَّع بذرَّة مواساة وإنسانيَّة؟! قف إكرامًا للضحايا. قف احترامًا للإنسانيَّة. قف متنكِّرًا بقناعي.

أقف منتصبًا بكلِّ ما أوتيت من حسرةٍ وألم، متذكِّرًا أرقام الموت الموشومة على أذرع أجدادي. هل لأجدادك أرقام موتٍ موشومةٌ على أذرعهم؟ بالطبع كلاَّ، فمن أنتم لتحرَقوا مثلنا في المحرقة؟!

أبلغ المشفى. قل لي: هل تعبت من التجوُّل سيرًا على القدمين يا نور؟ هل تعبت منِّي؟ اصبر، فما زلنا في بداية اللعبة. هيَّا ادخل، هذه حجرة أبي ومهد غيبوبته. انظر

إليه، حدِّق، لقد عاد طفلاً صغيرًا. انظر كم تقلَّص جسده وحضوره حتى شارف على الغبار. اقترب منه. المس بيدك جبينه، جبينه الناعم. قل له شيئًا. حسنًا، لن أحرجك أكثر. اترك لي دفَّة الحديث معه:

- هل ما زلت غاضبًا منِّي يا أبي بسبب ما تلوته عليك في الزيارة السابقة؟ أرجوك لا تغضب، فقد كدتُ أُجنُّ حانقًا ممَّا قرأته عن تفاصيل تلك الحادثة الصحراويَّة المفجعة، خاصَّةً حين تخيَّلتكَ برفقة أولئك الجنود الناجين من المحرقة النازيَّة وهم يقصُّون شعر الطفلة البدويَّة، ثم يغتصبونها مرارًا. قل لي الآن: هل كنت ستقترف مثلهم تلك الجريمة لو كنت معهم؟! لن أقسو عليك أكثر. دعني الآن أقم بتعريفك بصديقي الجديد. بالمناسبة، إنَّه عربيٌّ، فلا تحرجني يا أبي بامتعاضك وضيقك من وجوده في حجرتك هذه. اسمه نور، نور الشهدي. ها هو، هل تراه؟ ألقِ التحيَّة على أبي يا نور. نور، لماذا لا تتكلَّم؟ لمَ أنت صامتٌ منذ أن تعثَّرتُ بك؟ قل شيئًا يا صديقي تواسي به أبي وغيبوبته. حسنًا... كما تشاء. إنَّ نور خجولٌ ومنطوٍ على نفسه يا أبي، فلا تعتب عليه، فهو بمثابة ولدك. بل هو ولدك أور... أور شابيرا، ابنك وابن ليطال. لا تستغرب أرجوك، فكلُّ شيءٍ جائزٌ في هذه الحياة، سوى عودتك من هذه الغيبوبة.

اطبع قبلةً على جبينه. ألا تفعل مثلي يا نور؟ حسنًا... كما تشاء. وداعًا يا أبي. إلى اللقاء القادم.

***

[الحلقة الرابعة من بودكاست: «حكي كولونيالي»

مرحبًا حبايبيني...

قبل ما نقترح نقطة التعيين اللي هي نقطة انطلاقنا لحو فهم الحالة اللي إحنا عايشين فيها، لازم نفهم بالأوّل شو يعني تفكيك... وما دام حكينا تفكيك، هادا يعني إنو في مبنى كبير بدنا نفكّكه ومشان نعمل هيك لازم نسكن فيه... لازم يفهم هادا يلّي قام ببناء البنيان إنو هو ما قدر يبنيه لحالو إلاّ من خلال حالي أنا... وأنا شو حالي بنظر الجاني؟ حالي حال مشرّد هامشي تافه محبط... ممكن حدا يقلّي هلّق طيّب ليش نفكّك؟ ليش ما نهدم؟ الهدم أحسن.

المشكلة إنّو بحالة الغرب قبل 300 سنة الأمور بتختلف كثير. يعني المادّة الخام يلّي بنى منها الغرب بنيانه المركزي هي أنا. وعشان أنا الهامش أهدّ وأفكّك لازم أروح أسكن في البنيان. بس كيف؟ السكن فيه يعني تحليله وإدراكه وتفكيكه عن طريق ردّه إلى أصوله وعناصره الأوّليّة. لمّا أفكّك الشيء بعيد أنا أساسه ومركزه مش هو مركزي. وعشان نخلص من كينونتنا الكولونياليّة لازم نفكّك العقليّة المركزيّة يلّي أنتجت هادي الكينونة... لازم نفكّك المركز من الهامش، عشان نثبت إنو العقل المركزي الغربي مش هو الأساس. مش هو ربّ المعرفة والحقيقة، وإنو في حقائق ثانية بعوالم أخرى... وعشان أعرف بإنّي بلّشت أتحرّر من المركز لازم أعرف إنّي مش هامش. أنا جاي من الهامش على المركز علشان أمارس فيه عمليّة كاملة

من التفكيك على أساس الهدم والبناء... رح أضلّ أهدم وأبني لحدّ ما أوصل لنتيجة كونيَّة كبيرة. مش عنصريَّة مش شموليَّة خانقة ومقيتة... عشان هيك لازم نعرف إنو إحنا بدنا نبني شيء جديد مش لأنو إحنا أحسن ناس ولازم نصير مركز الكون... لأ، إحنا بدنا نكون بشر بني آدمين بهادا الكون يلّي بوسع لكلّ الناس ولكلّ الأفكار يلّي بتكفل الحياة بكرامة وشرف وحرّيّة وتقدّم وضمير... إحنا بدنا نصير إنسانيّين، مش كائنات كولونياليَّة مشوّهة].

***

أستقبلكَ هذا المساء بلفافة ماريجوانا، ستعقب عشاءً أقيمه على شرفك. ها... ماذا قلت؟ هيَّا تفضَّل سيِّد نور. بالمناسبة، أرجو أن تعذرني على جهلي بأصناف الطعام التي تفضّلها، ولكنَّك على درايةٍ بمطبخنا الأشكنازيّ، أليس كذلك؟ أنتم العرب لديكم مطبخٌ شرقيٌّ محترم، كما قالت لي مريم شارحةً ذات حصّةٍ تعليميّة. تحبون المقلوبة والمنسف والمسخّن. حسنًا، سأطعمك هذا المساء نخر الطعام الأشكنازيّ: «الحريمه». ما رأيك؟! لا تمتعض، إنَّها وليمةٌ لذيذةٌ مكوَّنةٌ من صلصة الطماطم والفلفل الحارّ، التي أغمس قطع سمك السلمون بها لتتشرّب نكهتها اللذيذة واللاذعة، لتشعر وأنت تذوقها بأنَّ ثمَّة أوركسترا عذبةً وشهيَّةً تعزف في فمك. قل لي: هل أسكب نبيذًا أحمر أم أبيض في كأسك، أم أنَّك لا تحتسي الخمر؟ آه، نسيت! أنت مسلم، أليس كذلك؟ المسلمون لا يحتسون الخمر، فهو

حرام. اعذرني، ودعني أُعلِمكَ من خلال هذا الالتباس بأنّني أنا أيضًا لا أحتسي الخمر. ليس لأنّه حرام، بل لأنّني أخشى من إيقاظه لكلِّ شياطيني النائمة في داخلي.

حسنًا، هيَّا بنا إلى الصالة. تفضَّل، اجلس بجانب حاسوبي لنتفحَّص سويًّا آخر ترَّهاتك. ها أنت قد أعلنت عبر صفحاتك الإلكترونيَّة موعد إطلاق كتابك الأوَّل، «سيرة لكائنات كولونياليَّة». ستطلقه يوم الأحد، الموافق الخامس عشر من أيَّار، في منطقة مسافر يطا(15) المهدَّدة بالمصادرة والاستيطان. تريدها حربًا إذن يا نورا! هذا ما تقصده أنت بقولك إنَّ حفل الإطلاق سيكون بمثابة اشتباكٍ ثقافيٍّ مع المستعمر الصهيونيّ، أليس كذلك؟ حسنًا... ها أنت تنشر بعض المقتطفات من محتويات الكتاب. فلنقرأ معًا:

«إذن، أنا فئةٌ بشريَّة. ولكي أصير إنسانًا منعتقًا من جرحه، ومن معادلةٍ خارقةٍ بوحشيَّتها، عليَّ أن أكتب، أن أغنّي، أن أصلحَ العطبَ الذي أصابني، إذ سأمنح للكلماتِ حقَّها بالتهادي، ليكتمل المعنى ويزول العطب.

أنا الكائن الكولونياليُّ الخاضع للكائن الكولونياليّ المسيطر، والمعادلة المُقحم بها رغمًا عنّي هي «الآن»، هي هذه اللحظة الراهنة التي أسعى للانعتاق منها. ولكن أين أنا الآن؟

أنا أسير نظام المعنى الخاصّ بالكولونياليَّة. أنا لستُ في تابوت، لست في صندوق، بل في غُرفةٍ صغيرةٍ تكاد

تتّسع لي ولكنّها لا تتّسع لأحلامي. قُرةٌ بها ثقبٌ صغيرٌ لا يراه الكائن الكولونيالي المسيطر. ثقبٌ أنظر منه نحو العالم الذي أُقصيت منه، لا لأصوّر المشهد بل لكي أبحث عن ذاتي فيه، عن أناي الإنسانيّة. أنظر محدّقًا ليس بتلك التحديقة ذات النظرة الحلم المتسلّلة والهادفة لأن تصير الآخر، إذ أُحدّق بالآخر من دون أن يراني لا لأصيره، بل لأتحرّر منه وأُحرّره منّي».

برافو نورا! سأصفّق لكَ الآن. كم أنتَ شاعريٌّ وتجريديٌّ للغاية في تحليل الأمور. أنت داخل قُرةٍ إذن! ثقب صغير أيها الملعون، أليس كذلك؟!

قُرتكَ هي القناع الذي سرقته منّي، لتتحفني الآن بأنّني أنا السبب في تشييئك وإحالتك إلى مجرد فئة بشرية، كائنٍ مستباح، كائنٍ كولونياليّ خاضع. لا بلْ قُتَ بما هو أفظع من هذا حين شيّأتني أنا أيضًا، أنا الكائن الكولونياليّ المسيطر. أيُّ هراءٍ هذا؟!

فإذا كنت لا تريد أن تصيرني، لماذا ارتديت قناعي واسمي إذن؟ لحظة! هذه أحكامٌ سابقةٌ لأوانها. دعني لا أشفي غليلي منك الآن، لأنّني أرغب بتصفّح المزيد من منشوراتك الهرائيّة هذه، التي تحترف بنشرها الآن فن الإثارة والتشويق:

«ها هو يتقدّم، فلا تصفّقوا له عندما يعانق الضوء، إذ قد يرتبك محرجًا من الوقوف أمامكم، فهو لم يزل طفلاً. رحّبوا به بصمتٍ إذن، هو الذي أصرّ على المجيء بملابس الانتفاضة، المكوّنة من كوفيّة لفّ بها وجهه ورأسه، وتيشرت أسود مهترئ، وبنطالٍ أخضر ممزّق.

حافي القدمَيْن، يقبض على حجارته بكفَّيه آيةً للعالمين. سأحاوره الآن، فانصتوا جيِّدًا لما سيقول:

- كيف أنت؟... كيف حالك؟

لصوته بُحَّةٌ تتداخل فيها طفولةٌ ورجولةٌ معًا.

- بخير.

- أعلِ صوتك قليلاً، فهم لا يسمعونك. وقل ما اسمك؟

- اتَّفقنا أنا وأنت على عدم ذِكر الأسماء الشخصيَّة أرجوك... أنا اسمي طفل الحجارة.

- غريب! فأنا اسمي طفل الحجارة أيضًا.

- ولي اسمٌ آخر أطلقه عليَّ الجنود.

- ما هو؟

- مُخرِّب.

- وماذا خرَّبت؟

- لم أخرِّب شيئًا.

- حسنًا... لماذا سمَّاك الجنديُّ بهذا الاسم إذًا؟

- لا أعلم... ربَّما لأنَّني خرَّبت شارعنا المدمَّر ببعض المتاريس. ربَّما لأنَّني خرَّبت دولاب الجيب العسكريِّ الذي دعس صديقي حتى الموت. ربَّما لأنَّني خرَّبت حديقة أمِّي الزاهية منقِّبًا عن الحجارة التي سأقذف بها الجنديّ، لأنَّ قنابل غازه السامّ أذوت أزهار أمِّي. لا أعلم، أنا مخرِّب. هكذا قال هو.

- ولكن ما اسمك الحقيقيّ؟ ولماذا لا تنزع هذا اللثام عن وجهك؟

- اسمي طفل الحجارة، وعندما يبتعد الجنود من أمام بيتي ووجهي وأجواء حديقتي وحارتي، سأنزع اللثام عن وجهي هاتفًا باسمي.

- هل تعرف أسماء الجنود؟

- سمعت مرَّةً أخوتي الكبار يتلفظُون بأسماء غريبة، مثل الكابتن كوبي، الكابتن شلومو، كوهين.

- ومن هؤلاء الكباتن؟

- إنَّهم من اعتقلوا إخوتي. يقولون إنَّهم من جهاز أمنٍ اسمه غريب عجيب.

- جهاز الشاباك؟

- نعم، نعم. هذا هو اسمه.

- ألا تخاف أن يقتلك الجنود؟

- أخاف؟! لقد قتلوني. ألا ترى الثقب؟! انظر إلى صدري لترى ثقبًا صغيرًا أحدثته رصاصة مزَّقت قلبي وقلب أُمِّي.

- وما الذي تشعر به الآن؟

- أشعر بأنَّني أعمى... لا أرى سوى الظلام. هذا هو الخوف.

- لا تخف.

- لماذا؟

- لأنّك النور.

- وهل قدر النور الظلام؟»».

حسنًا نور. لن أنكر تأثُّري بما قرأتُ للتوّ، على ألاّ تنكر أنت إنسانيّتي بكآباتك، إذ أشعر الآن بأنّك تختزل الأحداث والوقائع والتاريخ. تقضم منه قطعةً وتقذف أخرى. تريد أن تسلّط الضوء على جرحك حاجبًا جرحي بالظلام. لماذا؟ لماذا لم تأتِ على ذكر المحرقة مثلاً؟ تأتي على ذكر طفلٍ قُتِل بإحداث ثقبٍ بقلبه على يد جنديّ إسرائيليّ، وتحجب ما حدث لأجدادي بالمحرقة النازيّة؟! ولكن لحظة. لحظةً واحدةً دعني خلالها أسحب نفس ماريجوانا، لأعلمك إثره بكلّ صراحة بأنّني أحسدك يا رجل. أحسدك لأنّك كنت قد لمحت في طفولتك آخَرَك، لمحت وجه الجنديّ والضابط والعسكر الذين كانوا ينقضّون على مخيّمك ليل نهار. لأنّني وبعكسك تمامًا، لم أرَ وجوههم. لم ألمحها أبدًا في معاركي الباسلة ضدّكم. في لبنان لم ألمح وجهًا عربيًا بل إرهابيًا، وفي غزّة لم أعثر على ملامح آدميّة بل على بقايا وجوهٍ وأشلاء دامية. بالمناسبة، حتى ذلك الموظّف الشابّ الذي يعملِ في شركة موريا للسياحة، والذي زوّدني باسمك، لم يرَ وجهي، بل رأى وجه ضابط شاباك متجلّيًا أمامه بكامل ملامحه المرعبة.

وأمّا أنت فقد رأيت وجهي الحقيقيّ، ومن يرى يصير إنسانًا لا كائنًا مسخًا، أليس كذلك؟! أهذا ما تود سماعه منّي الآن؟ عليك اللعنة!

حسنًا...

دعني من كتابك القادم الآن، فقد أرهقتني بشذراته. لأنتقل إلى أرشيف مجريات حياة الكاتب فيك. أعثر على حوارٍ أجرته صحافيةٌ فرنسيةٌ معك. حسنًا، دعني أقرأ بتركيزٍ شديدٍ لكي أكتسب مهارات المقابلة الصحافيّة، وكيفيّة صياغة الأسئلة، وفنّ الحوار، فأنا الآن متقمّصٌ شخصيةً وهميّة، يورغن فروم. أنسيت؟!

حسنًا... أنت تتباهى إذن! ألم أقل لك إنّك عابثٌ يهوى الظهور والتباهي والتفلسف؟ والأنكى هو استعراضك لثقافتك الموسيقيّة المرهفة. أتخيّلك الآن وأنت تحاور الصحافيّة:

- أنا لا أستطيع الكتابة بلا موسيقى يا سيّدتي... الموسيقى هي إيقاعي السرّيّ.

فتسألك الصحافيّة الحسناء، وهي تعبث بشعرها الأشقر مأخوذةً بسحر كلماتك:

- وأيّ أنواع الموسيقى تفضّل أيّها الكاتب المرموق؟

- الموسيقى الكلاسيكيّة تحديدًا. أحبُّ الفصول الأربعة لفيفالدي. كونشرتو دي أرانجويث. شهرزاد لكورساكوف. وأحيانًا أسمع أغاني البوب الصاخبة. أحبّ مثلاً أغنيةً اسمها دانس مونكي. هل تحبّينها أنت؟

تضحك الصحافيّة بإثارة، ثم تقول بهمسٍ مغوٍ:

- أعشقها. هل ترقصها معي؟

- بلى... لنرقص!

لنرقص نور لنرقص، سأشعل الشقّة الآن بأغانيك وموسيقاك. تريدها دانس مونكي إذن! فليكن، هيّا

ارقص! سأرقص... سأرقص.

***

حسنًا نور. دعني الآن، عشيَّة رقصنا وفرحنا واحتفالنا بقرب صدور كتابك، دعني أكتب إليك دعوةً صحافيَّةً مهنيَّة، أدعوك عبرها إلى حوارٍ حصريٍّ معي أنا. أنا الصحافيُّ الألمانيُّ يورغن فروم، سأكتبُ إليك رسالةً أرسلها إلى بريدك الإلكترونيّ، لكي تأخذ أمور الاحتيال طابعًا رسميًّا حازمًا:

[الكاتب العزيز نور الشهدي:

تحيَّةً طيِّبةً وبعد...

أنا الصحافيُّ الألمانيُّ يورغن فروم، الباحث في الشؤون العربيَّة والفلسطينيَّة. أودُّ إبلاغك بأنَّه، وبعد اطِّلاعي الموسَّع على كتاباتك والاستماع إلى البودكاست الخاصِّ بك، فإنَّني آمل بتلبيتك دعوتي لإجراء حوارٍ موسَّع، بحكم تواجدي في الوقت الحاليِّ في القدس.

وتفضَّل بقبول فائق الاحترام:

يورغن فروم

الخميس 12 أيَّار 2022].

ثم Send. ستصلك رسالتي بعد قليل، فلا تبخل عليَّ بردٍّ سريع يا نور.

***

[الحلقة الخامسة من بودكاست: «حكي كولونياليّ»

مرحبًا حبايبنيني...

اليوم بدِّي أوضّح أكثر بشكل سريع ليش اخترت المنهج التفكيكي بالحكي الكولونيالي يلِّي رح أحكي معكم. أنا اخترت التفكيكيَّة لأنَّها بتعبِّر عنِّي وعن المهمشين والمسحوقين. عن الناس يلِّي اكتشفت إيمانها التحرري من خلال الكفر بحقيقة العقل الحضاري الغربي. التفكيكيَّة تعبير عن المسكوت عنه... هي زي ما حكيت بالبداية مكبِّرات الصوت يلِّي حطِّيتها فوق جرحي ووجعي عشان يسمعو العالم، وصوتي العالي يلِّي هو صوتكم لازم يعلى أكثر ويصرخ بوجه روح المبنى الغربي، روحه المعرفيَّة... أو إذا بدكم بدِّي أصرخ بوجه الابستمولوجيا الميتافيزيقيَّة الغربيَّة. سامحوني على هالكلمتين الصعبات... فزلكة زيادة بعرف... بس ما تقلقوا إحنا لقدَّام شوي رايحين نعرف شو المقصود من وراء هالكلمتين.

طيِّب... اليوم بدنا نأسِّس لنقطة انطلاقنا. وعشان نجاوب على تساؤلاتنا الكبيرة اللي طرحتها أنا بالبداية، شو رأيكم نروح على المرحلة التاريخيَّة يلي بلَّشت تتشكّل فيها طينتنا، قصدي طينة الكائنات الكولونياليَّة الخاضعة من جهة، والكائنات الكولونياليَّة المسيطرة من جهة ثانية. نقطة التعيين يلِّي بدِّي أقترحها بتبلِّش بأوروبا من أواخر القرن الثامن عشر... يعني خلينا نقول من سنة 1770 وإطلعوا. والطلوع تبعنا بدنا نفكّك فيه أكثر من 100 سنة عصفت بالدنيا كلّها، وهي يلِّي بسمُّوها عصر

التنوير والثورات والقوميّات. يعني القرن التاسع عشر يلّي صارت فيه أهمّ صيرورة تاريخيّة معرفيّة بالدنيا.

شو يلّي صار بهديك الفترة؟ صار شغلات كثيرة لسّاتها لليوم بتأثّر بخط حياتنا، شغلات مثل العقلانيّة... الديموقراطيّة... الليبراليّة... الاشتراكيّة... الجمهوريّة... المواطنة... القوميّة... العنصريّة... الاستشراق... الكولونياليّة... وغيرها من الشغلات يلّي تراكمت فوق بعضها عشان تخلق مفهوم اسمو الكينونة الكولونياليّة... كينونة بتعاني من انفصام الشخصيّة... يعني الديموقراطيّة يلي تم بلورتها بأوروبا هي مش نفسها الديموقراطيّة يلّي جابتها مدافع الكولونياليّة معها لمّا احتلّوا أرضنا ونهبوا ثرواتنا. الاشتراكيّة الصهيونيّة يلّي تشكّلت بأوروبا عشان تدافع عن حقّ اليهود بالوجود بوجه العنصريّة الأوروبيّة هي مش نفسها الاشتراكيّة يلّي دعا إليها ماركس والفلاسفة الإنسانيّين. الاشتراكيّة الصهيونيّة نشأت بأوروبا نظريًا بطريقة حلوة وإنسانيّة كثير، بس تمّ تطبيقها عمليًا علينا إحنا بطريقة نكبويّة وبتطهير عرقي عنصري فاشي.

هادي هي الميتافيزيقا الغربيّة... ازدواجيّة معايير أخلاقيّة... باختصار، إحنا نعاني من الشيزوفرينيا الأخلاقيّة الغربيّة].

***

أصحو صباح الجمعة على أسنّة الذعر الحادّة، التي أدمتني قلقًا من ارتكابي لحماقة مراسلتك. يا إلهي! هل فعلت ذلك حقًا؟!

أهرع كالمسوس إلى الحاسوب لأتأكّد من وهم ما كتبته بالأمس. هل راسلتك حقًّا؟ اللعنة!... أفتح بريدي الإلكترونيّ، فأعثر على الحقيقة مُمدَّدةً بدلال فوق جثّة وهمي، إذ أقرأ ردّك الذي لم يَطُل على رسالتي:

[الأستاذ المحترم يورغن فروم...

تحيّةً فلسطينيّةً تعبق بصمود شعبي المقاوم...

أمّا بعد...

بدايةً أودُّ أن أتقدّم إليك بخالص التقدير لمتابعتك وقراءتك لكاباتي والبودكاست الخاصّ بي. وأمّا بخصوص دعوتك لي لإجراء مقابلة معي، فهذا شرفٌ كبيرٌ لي أنتظر حلوله على بفارغ الصبر. وبهذه المناسبة، وبما أنّك كما قلت لي متواجدٌ حاليًّا في القدس، دعني أدعُكَ لحضور حفل إطلاق واشهار كتابي الأوّل «سيرةٌ لكائنات كولونياليّة»، يوم الأحد القادم الموافق 15 أيّار 2022، في تمام الساعة الرابعة بمنطقة مسافر يطا المهدّدة بالمصادرة والاستيطان من قِبَل النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ الصهيونيّ، على أن نُجري اللقاء على هامش الحفل.

مع خالص الشكر والمودّة

نور الشهدي

الجمعة 13 أيّار 2022

رام الله].

أنت لا تضيع الوقت أو تتأخّر عن استغلال الفرص.

متهافتٌ أنتَ على كلّ شيء، بل تريد كلَّ شيء. لا حدود لطموحك، ولا حدود لطموحي أنا أيضًا سوى منح اللعبة المزيد من الإثارة، والتنفس بأنفاسٍ اصطناعيةٍ محتالة، متقمّصًا شخصيةً ليست لي.

حسنًا... لقد جذبتَ الطعم وابتلعتَه بنهم وجوع عظيمَيْن. فهل سأجذبك أنا الآن إليَّ بكلّ ما أوتيت من خبياتي لمواجهةٍ لا أعلم عمَّ ستسفر في مسافر يطا؟

فلأتخيَّل سيناريو اللقاء، ما رأيك؟ سنجلس سويًّا بُعَيْد نهاية حفل الإشهار أو قُبَيْله بقليل، وستكون أنتَ محاطًا بحشدٍ من القرّاء والكتّاب والمتضامنين الأجانب، والصحافيّين وبعض الآفاقين والمحتالين من أمثالك وأمثالي ربّما. سأخاطبكَ بعربيّتي الفصحى المثلة قليلاً بالخمر الأشكازيّ، ولكنّك لن تشكَّ بأصلي، فالألمانيّ أخو الأشكازيّ. أو بالأحرى ليس كلُّ الألمان أشكازيّين، وليس كلُّ الأشكازيّين ألمانًا. على أيّة حال، دعنا نركّز على المزيد من التخيل، إذ سأقول لك بعد نهاية اللقاء الصحافيّ الذي سيكون ناجحًا حتمًا:

- أريد أن أُفصِح لكَ عن شيءٍ سيّد نور.

فتجيب أنتَ براحةٍ تامّة:

- *لا تنادني بسيّد... نادني نور فحسب، وقُل ما تشاء.*

- *هل أنت متأكّد؟*

- *متأكّدٌ تمامًا... تفضّل!*

أدنو منك، من وجهك، أتحسّسه. بتفاجأ أنت. ترتدّ خطوتَين للوراء، فأتقدّم أنا خطوة. تانغو. كأنّنا نرقص

تانغو. ثم أدلي بدلوي قبل أن تحتجّ مستنكرًا تصرُّفي الأرعن هذا. سأداهمك بالعبريَّة الأشكنازيَّة:

- أين خبَّأت القناع؟ أين معطف أخي جدعون يا نور؟ أقصد يا أور؟

تُدعَر أنت. تتلعثم لتقع في الخطأ القاتل، مجيبًا بالعبريَّة من دون أن تقصد:

- أيُّ قناع؟! من أور هذا؟!

ثم تنتبه إلى هفوتك اللغويَّة هذه بعد فوات الأوان، إذ تصمت محدِّقًا بي للحظاتٍ بعجزٍ تامّ، لأخنقك أنا بقهقهاتي:

- أعِد لي اسمي وهويَّتي أيها المخرِّب الأفَّاق.

تلملم نفسك مدَّعيًا التماسك، وتمعن بالمزيد من العبريَّة:

- اسمي نور، نور الشهدي. وأيُّ جنونٍ سوى اسمي لا حاجة لي به.

- حسنًا، كما تشاء. فلندع جهاز الشاباك يحكم بيننا.

وما أن يقع عليك اسم الشاباك الرهيب، حتى تفرَّ من أمامي مفزوعًا، لتخلِّفني وراءك حائرًا مفزوعًا أكثر منك. فمن منَّا يخاف الآخر أكثر، أنا أم أنت؟!

***

نهارٌ آخر لي ولك في هذه الشقَّة التعسة. نهارٌ بأكمله أدور فيه في فلك كاباتاك. ليس كاباتاك هذه المرَّة على وجه الدقَّة، بكلّ ما يصاحبها من نقد واحتفاءٍ وإطراءٍ عليك وعلى أنفاسك المضادَّة للكولونياليَّة، بحسب

تعبيرك.

حسنًا... أتصفَّح، وليس لي سوى التصفُّح الإلكترونيّ سبيلاً إليك حتى هذه اللحظة. ثمَّة مقالة بعنوان «سياسات المعرفة: نهج بحثيّ مغاير لنور الشهدي»، بقلم سماء إسماعيل. أقرأ بعض الفقرات من مقالتها، التي تسلِّط الضوء على أبرز المفاهيم التي استحدثتها أنت، بحسب رأيها، ومدى تأثيرها على فهم ملامح الصراع الفلسطينيّ الصهيونيّ. ثم أنتقل إلى مقالة أخرى دسمة، بعنوان «أوديسّا كائنات نور الشهدي الكولونياليَّة»، بقلم البروفسور عبد الرحيم الشيخ(١٠). أجد صعوبةً في فهم مقاصده النقديَّة وتفكيكها، فهو بروفسور للغاية. ثم أختتم جولتي فيك وعنك بمقالة بعنوان: «مدى أهمِّيَّة الوعي المضادِّ للكولونياليَّة في كتابات نور الشهدي»، بقلم الأسير مراد الموسى. حتى الأسرى المحرَّرين يحتفون بك.

حسنًا... يبدو أنَّني كوَّنت صورةً عامَّةً تسمح لي بامتلاك مزايا المحاور البارع الذي سأتقمَّصه، فهل سأقابلك حقًّا يا نور؟ هل سنلتقي؟ هل يمكنني تجاوز كلّ خيباتي وأعراض صدماتي واختلالاتي والتباساتي من أجل أن ألتقيك؟ هل أتجرَّأ على مقابلتك؟ على ارتكاب ما ارتكبته أنتَ بحقِّي؟

بالمناسبة، وبما أنَّك كاتبٌ واعدٌ وموهوب، فلماذا لا تكتب قصَّتي؟ إنَّ سيرتي تستحقُّ التوثيق في رواية، وستكون أنت الفلسطينيّ الأوَّل الذي سيكتب سيرة يهوديّ أشكازيّ معتوهٍ قليلاً. ما رأيك؟!

أنسحب من جولتي الإلكترونيَّة لأعيد صلتي بمريم. لا

يمكنني التخلّي عن مريم.

مريم طوق نجاتي ربّما. ألم تكن مريم المجدليّة طوق نجاتك من التباسات القناع الذي تلبّسك وتلبّسته؟

مريم فاطم معلّمتي، وقد تكون المنأى الذي سيقيني شرور أحلام لطالما راودتني. بالمناسبة، هل تعلم أنّي لم أعد أحلم بالعربيّة؟ بالأحرى لم أعد أحلم مطلقًا. لا أعلم، ربّما أحلم، ولكن ما أن أصحو حتى أنسى ما واجهته في المنام. أجل، منذ أن اكتشفتُ أصلكَ وتعلّقتُ بكَ إلكترونيًا لم أعد أحلم بالعربيّة. قد يكون السبب في هذا المياومة العربيّة التي أزاولها معك منذ عدّة أيّام إلكترونيّة، إذ إنّه عندما يزدحم واقعي هذا بحروفك العربيّة سيسأم حلمي حتمًا من نسخ الواقع بالعربيّة أيضًا. أشعر بأنّني مقبلٌ على أحلامٍ جديدةٍ أشدّ رعبًا، أحلامٍ بالألمانيّة ربّما.

حسنًا... ها هي مريم كعادتها دومًا فاعلةٌ على الواتس آب:

- مرحبًا مريم. طالت قطيعتك هذه المرّة.

- ماذا تريد؟

- ما هذا الجفاء؟ ألن تطمئنّي عليّ؟!

- ما دمتَ على عهد وقاحتكَ الأشكازيّة فأنتَ بخير. قل، ماذا تريد؟ فأنا مشغولة.

- حسنًا... هل تذكرين ذلك الكاتب، نور الشهدي؟

- نعم.

- لقد علمتُ وأنا أتجوَّل في المواقع الإلكترونيَّة هذا الصباح أنَّ حفل إطلاق كتابه سيكون غدًا.

- أجل... في الذكرى الثالثة والسبعين للنكبة، في مسافر يطا. ما سبب اهتمامك بهذا؟

- لا شيء. مجرَّد فضول. هل ستذهبين إلى الحفل؟

- لا أعلم. لم أحسم أمري بعد.

- أنا حسمتُ أمري بالذهاب.

- ماذا؟! هل جُننت؟!

- ربَّما... ولكنَّني سأذهب، معك أو بدونك.

- بصفتك من؟

- بصفتي تلميذك... بصفتي أحبُّ الثقافة العربيَّة. ألم تُخبريني أنتِ بأنَّ هناك الكثير من المتضامنين مع قضيَّتكم؟... اعتبريني متضامنًا.

- أور... هل أنت جادٌّ حقًّا؟!

- أكثر جدِّيَّةً من أيِّ وقتٍ مضى.

- ...

- مريم أين أنت؟... أجيبي؟!

- حسنًا... نلتقي غدًا إذن، في تمام الثانية ظهرًا في يافا، ومنها نمضي إلى مسافر يطا.

- حسنًا... إلى اللقاء.

ما رأيك سيِّد نور؟! هل تفاجأت؟! أعتقد أنَّ مريم قد تفاجأت أكثر منك، مريم التي لم تحذِّرني من

عواقب حلولي المباغت وسط حشد هائل من العرب والمتضامنين. هل أنا متضامنٌ معك ومع قضيتك حقًّا؟ لا أعتقد، إذ إنّ لديّ مقاربةً مغايرةً لمشاعر التضامن والتعاطف مع الآخر، أيّ آخر كان، فالقضيّة تكمن في الصراع، ولن أنكر الآن حتميّة هذا الصراع التاريخي بيننا وبينكم. لهذا لا يمكنني أن أتضامن معك، كما لا يمكنك أنت أيضًا أن تتضامن معي، بعد أن قرأتُ معظم كتاباتك، واستمعتُ إلى معظم أحاديثك. ليس ثمّة تضامنٌ يا نور، فإمّا أن تتّحد بي، أو أتّحد بك، أو نبحث معًا عن اتّحادٍ ما يقينا شرور الأقنعة والأفاتارات والمحارق والنكبات، وهذا ما أجده نمطًا من أنماط التسوية العادلة في لقاءاتي مع مريم. مريم وأور، يا لهذه التوليفة العجيبة! توليفةٌ سرياليّة. تكرهني وأكرهها. تحبُّ أن تعلّمني هي وأحبُّ أنا التعلُّم منها. تنقضّ عليَّ بنكبتها وأنقضّ عليها بحرقتي. هكذا نحن، هكذا هي التي انتفخت أوداجها ربّما بمفاجأتي لها بعزمي على الذهاب إلى حفل إطلاق كتابك. فرحت ورقصت على إيقاع لغتها العربيّة التي لقّنتها لي، معتقدةً أنّها نجحت بانتشال يهوديّ أشكنازيّ من قعر هويّته المغلقة عليه، وعلى أعراض البوست تراوما التي يعاني منها.

نور... نور الشهدي. أنا أفاتارك، لا بل أنا أفاتارُ صحافيّ ألمانيّ اسمه يورغن، يورغن فروم، فاستقبلني بحفاوة المثقّفين وكرمهم.

وأمّا الآن فسأرتاح منك لبعض الوقت، موضّبًا ضمير المخاطب في حقيبة أوراقي ودفاتري، فلقد سئمت من

مخاطبتك في سرّي، وتعبتُ منكَ وتعبتُ مني ومن كلّ الضمائر الحيّة والميتة والحاضرة والغائبة. بالمناسبة، هل تعلم أنّك مُملّ؟!

***

تهدهدني الشقّة، تحفل بي أنا اليقظ منذ الصباح متأهّبًا للقاءٍ منشود بآخري نور الشهدي في عصيرة هذا اليوم. أقف أمام مرآتي، أتأمّل ملامحي، هيئتي، هندامي. نضرٌ أنا في هذا النهار. العافية تلفّ روح المغامرة التي انتابتني فجأة، ثم أمضي نحو الشرفة أقف فيها. حتى الطقس الآن يغدق عليّ رطوبةً أقلّ ممّا توقّع جسدي النزق من أجواء تلّ أبيب الساحليّة الخانقة على أهبة الصيف.

أتأمّل بما أبدته لي تلُّ أبيب من قوامها بلا موسيقى هذه المرّة، لكي أدرّب نفسي على التواصل مع محيطي بلا موسيقى، فالموسيقى كلُّها ستكون هناك حين سألتقي من اتّخذني أفتارًا له منذ أن أضعت هويّتي.

جميلةٌ هي تلُّ أبيب اليوم. صافيةٌ متجلّيةٌ هادئةٌ كما لو أنّها قرّرت الاحتفاء باندفاعي في أجوائها، بلا موسيقى صاخبة لطالما عزلتني عن ضوضائها ومجريات حياتها اليوميّة. ألمح من شرفتي مشارف يافا، حيث اللقاء المنتظَر بعد ساعة ونصف الساعة مع مريم، في المركز الثقافيّ. أمعن بالتأمّل. ألتفت نحو الشمال لألمح سوق العاديّات والملابس المستعملة، الواقع في الحدّ الفاصل بين تلّ أبيب ويافا. هناك باعت دوريت معطف أخي جدعون. هناك ضاعت هويّتي. فما ذنب نور إذن؟

ما الذي اقترفه هو الذي عثر على هويّةٍ ليست له في معطفٍ لربّما اقتناه هو بنفسه من السوق بثمنٍ بخس؟ فلا شيء ثمينٌ وغالٍ في سوق العاديّات الرخيص.

يقطع عليَّ تأمُّلي رنين الهاتف، فإذا هي طبيبتي هداس. أستغرب تذكّرها لي في هذا الصباح الذي يوشك على الانسحاب من أمام ظهيرة تلّ أبيب. يرنّ الهاتف. ماذا تريد هداس؟ لا أعلم لماذا أرتبك الآن فارًّا من الإجابة عليها. إلاّ أنّني أتمالك نفسي أخيرًا، وأجيبها بانشراح مصطنع:

- صباح الخير طبيبتي العزيزة.

تصبُّ في أذني لهجتها الحياديّة:

- صباح الخير أور. كيف حالك؟

- أنا في تمام الخير والعافية.

- ولماذا لم تعد تأتي إلى عيادتي؟ هل ثمّة خطبٌ ما؟

أستدعي الكذب ليحرّرني من محاصرتها لي:

- إنّني منشغلٌ بترتيب بعض الشؤون، كما أنّني أشعر بتحسنٍ وحيويّة.

تنقضّ عليَّ من جديد، متسائلة:

- أنت في تلّ أبيب إذن. بيتك في روتشلد، أليس كذلك؟

- بلى، وهل لي بيتٌ سواه؟

ثم تودّعني مشدّدةً على ضرورة زيارتي لها من أجل تقييم حالتي النفسيّة، فأعدها بهذا، هي التي لم أفضِ لها

بعد بواياي السرِّيَّة المطالِبة باسترداد هويَّتي من نور. لا تعلم طبيبتي البهيَّة أنَّني سأُداهمه في عصيرة هذا اليوم بشخصيَّة الصحافيِّ المدَّعى يورغن فروم، مستخدمًا في حيلتي هذه معلِّمتي مريم. أجل، بخفَّة تامَّة سأكسو نزعاتي بمريم، التي قد أتسبَّب لها بالمتاعب والورطات التي لا تحمد عواقبها مع نور وأمثاله من المضادِّين للكولونياليَّة، بحسب تعبيره، وذلك عندما سأُعلن هناك عن نهاية لعبة الأقنعة بيني وبينه. أنهض بالتأمُّل أكثر بتلِّ أبيب وأسوارها. ألقي عينيَّ فوق غربها، صنَّارةً بلا طُعمٍ وطَعمٍ لن تصطاد من أعماق البحر ما يفضُّ مآلات المجهول القادم الرابض في مسافرٍ يطا. أتأهَّب للانسحاب من وجه تلِّ أبيب وشرفتي. يرنُّ هاتفي للمرَّة الثانية. أيُّ نهارٍ هذا النهار الصاخب بالرنين؟! أنتشله من جيبي. يخفق قلبي عندما ألحظ الرقم الذي يومض على الشاشة، ثم أجيب. أصغي للمتحدِّث للحظات، ثم أقول له:

- حسنًا، ها أنا في طريقي إليكم.

أُنهي المكالمة. أقترب أكثر من حافَّة الشرفة. أضع يدًا على رأسي، ويدي الأخرى القابضة على الهاتف أطلب مريم. أهاتفها. يطول الرنين ولا مُجيب. أُعيد الكرَّة. رنين رنين رنين، ثم تُجيب:

- أهلاً أور. هل أنت جاهز؟

أتعربش حبائل صوتها المرتعشة، ثم أهوي منها ومن مريم ومن لعبةٍ أخشى عواقبها، لأقول لها بحرقةٍ شديدة:

- لقد توفِّي أبي قبل قليلٍ في مشفى إيخلوف.

تهتف بأسى واستنكار صادمَيْن، مُعربةً عن مواساتها لي بعبارات الصبر والسلوان. أرفع رأسي نحو السماء، كما لو أنّني أبتهل لإلهٍ مستترٍ بزرقة السماء، وأتذكّر خاتمة رواية باب الشمس لإلياس خوري. أتذكّرها بالعربيّة كما لقّنتني إيّاها مريم:

[أقف. المطر حبالٌ تمتدُّ من السماء إلى الأرض. قدماي تغرقان في الوحل. أمدّ يدي، أمسك بحبال المطر، وأمشي وأمشي وأمشي].

وأمّا أنا فلم أمشِ بعد، إذ يتناهى إلى مسمعي رنين جرس الباب المصحوب بطرقٍ عنيف. لا أجيب، لا ألتفت، بل أمدُّ يدي في فضاء الشرفة كما لو أنّني أصافح مريم، ثم أقول لها بحزمٍ صافٍ لم أعهده يومًا:

- قولي له، قولي لنور الشهدي إنّنا سنلتقي يومًا ما. ربّما بعد أن أدفن أبي.

***

14 تمّوز 2022

معتقل هدريم الكولونياليّ.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

Notes

[I] 1]

بُحيرة طبريا.

[I] 2]

نابلس.

[I] 3]

وَرَد في هآرتس العبريَّة، بتاريخ 23/ 6/ 2022.

[I] 4]

عيد المساخر اليهوديّ.

[I] 5]

بدر شاكر السيَّاب.

[I] 6]

حلال.

[I] 7]

حيّ الشيخ جرّاح المقدسيّ.

[I] 8]

Marc Lanigin, Aotumne Leaves

[I] 9]

بتصرُّف عن مقالة أفيف ليفي: «صدر القرار وتمَّ التنفيذ. غسلوها وقصوا شعرها واغتصبوها وقتلوها». هآرتس العبريَّة 28 - 10 - 2006. ورد في كتاب ياثير أورون: «المحرقة، الانبعاث، النكبة»، ترجمة أسعد زعبي، (مدار) المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيليَّة، رام الله، 2015.

[I] 10]

باب العامود.

[I] 11]

بلدة سلوان المقدسيَّة.

[I] 12]

حائط البراق.

[I] 13]

باب الخليل

[I] 14]

مدوَّنة صوتيَّة.

[I] 15]

تقع في الريف الجنوبيّ لمحافظة الخليل.

[I] 16]

أستاذ الدراسات العربيَّة في جامعة بيرزيت.